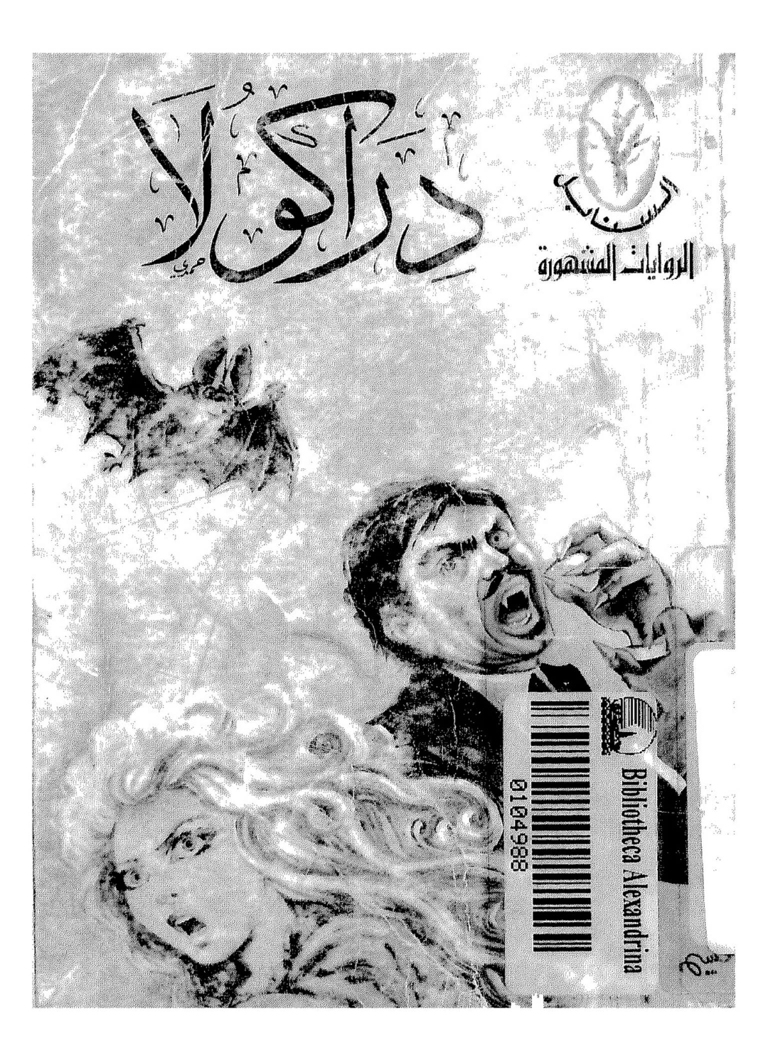
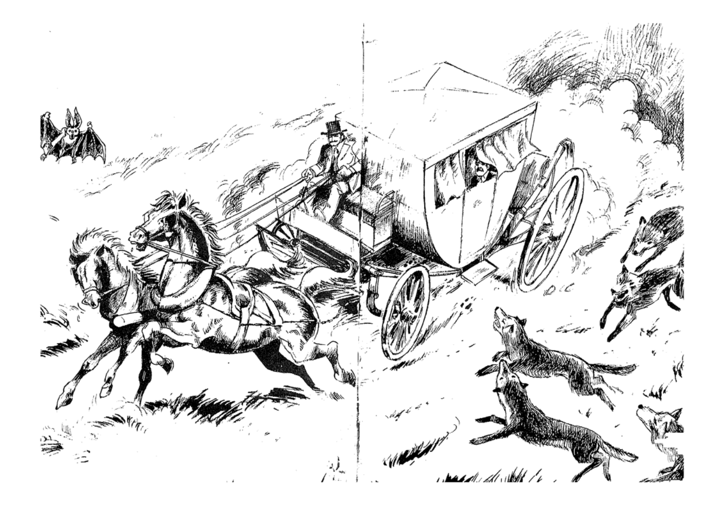

دراكولا
الروايات المشهورة

دراكولا



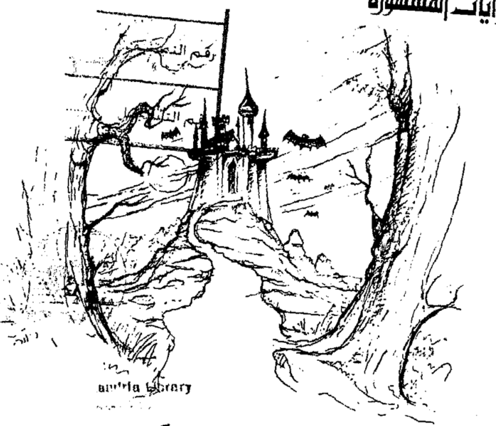
© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان
١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٠ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٤٨-٠

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

دراكولا

الروايات المشهورة



تأليف : برام ستوكر
إعداد : الدكتور محمّد محمود رضوان
رسوم : نسيم ج. نصيف

مكتبة لبنان
بيروت

اَلْقِسْمُ ٱلأَوّل
قَلْعةُ دراكولا

اَلْفَصْلُ ٱلأَوّل

لَمْ يَكَدِ ٱلقِطارُ يُغادِرُ بُودابِسْت حَتّى أَحَسَّ جُوناثان هارْكَر أَنَّهُ يُوَدِّعُ ٱلغَرْبَ وَيَسْتَقْبِلُ ٱلشَّرْقَ . لَمْ يَكُنْ جوناثان قَدْ غادر إِنْجِلْتِرا قَطُّ مِنْ قَبْلُ ، وَلِذٰلِكَ بَدا لَهُ كُلُّ شَيْءٍ غَريبًا عِنْدَما بَدَأَ رِحْلَتَهُ . أَمّا ٱلآنَ فَقَدِ ٱزْدادَ كُلُّ شَيْءٍ غَرابةً : ٱلطَّعامُ ٱلحِرِّيفُ ٱلَّذي يَجْعَلُهُ يُحِسُّ وَكَأَنَّ فِي فَمِهِ نارًا ، وَٱللُّغاتُ ٱلَّتي لا يَعْرِفُها ، وَوادي ٱلدّانوبِ ٱلـمُنْبَسِطُ الْـمُتَرامِي ٱلأَطْرافِ ، وَٱلنَّهْرُ ٱلْعَظيمُ ذاتُهُ . كانَتْ رُؤْيَةُ أَهْلِ ٱلرِّيفِ بِمَلابِسِهِمِ ٱلزّاهِيَةِ فـي كُلِّ مَحَطَّةٍ تَجْعَلُهُ وَكَأَنَّهُ في عالَـمٍ آخَرَ ، وَلَسَوْفَ يَكونُ هُناكَ ٱلكَثيرُ مِمّا يَرْويهِ لِصاحِبَتِهِ مينـا ، ٱلفَتاةِ ٱلَّتي يَعْتَزِمُ ٱلزَّواجَ بِهـا .

وَفيما بَعْدُ ، حينَما تَحَرَّكَ ٱلقِطارُ نَحْوَ ٱلشَّمالِ ، تَغَيَّرَ كُـلُّ شَيْءٍ مَرَّةً أُخْرَى ، فَقَدْ كانَتْ هُناكَ جِبالٌ ، وَغاباتٌ كَثيفةٌ ، وَأَنْهارٌ تَتَدَفَّقُ مِياهُها . وَتَمَلَّكَتْهُ ٱلدَّهْشَةُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلى ٱلقِلاعِ تَقِفُ شامِخةً فَوْقَ ٱلصُّخورِ العالِيَةِ ، وَتَمَنّى أَنْ تَكونَ ٱلقَلْعةُ ٱلَّتي هُـوَ ذاهِبٌ إِلَيْها عَلى شاكِلةِ هٰذِهِ ٱلقِلاعِ .

كانَ ٱلظَّلامُ قَـدْ بَدَأَ يَزْحَفُ عِنْدَما وَصَلَ إِلى مَدينةِ بِيسْتريتْز ٱلقَديمةِ ٱلجَميلةِ ، ٱلَّتي تَمْتَدُّ مِنْها طَريقٌ جَبَلِيَّةٌ تُوَصِّلُ إِلى بوكوفِينا . وَكانَتْ هٰذِهِ هِـيَ ثانِيةَ لَيْلَتَيْنِ قَضاهُما عَلى سَفَرٍ مُنْذُ غادَرَ بُودابِسْت . وَكانَ مَنْهُوكًا مَكْدودًا ، وَلِذٰلِكَ شَعَرَ بِالارْتِياحِ وَٱلسُّرورِ حينَما رَأى فُنْدُقَ « ٱلتّاجِ ٱلذَّهَبِيِّ » ٱلَّذي كانَ ٱلكونْت دراكولا قَـدْ رَتَّبَ لَـهُ ٱلإِقامةَ فيهِ ، وَٱلَّذي كانَ يَبْدو مِنْ مَظْهَرِهِ أَنَّهُ فُنْدُقٌ مُريحٌ تَشيعُ فِيهِ ٱلمَوَدَّةُ . وَصَعِدَ بِـهِ مُديرُ ٱلفُنْدُقِ إِلى غُرْفةٍ بَهيجةٍ نَظيفةٍ تُطِلُّ عَلى ساحةٍ رِيفِيَّةٍ غُرِسَتْ فِيها بَعْضُ أَشْجارِ ٱلفاكِهةِ .

وَبَعْدَ أَنِ ٱغْتَسَلَ جوناثان نَزَلَ لِيَتناوَلَ ٱلطَّعامَ ، وَوَجَدَ عَلى ٱلمائِدةِ ٱلمُعَدَّةِ لَهُ رِسالةً قَرَأَ فيها :

عَزيزي ٱلسَّيِّدَ هارْكَر ،

وَهٰكَذا قَدْ وَصَلْتَ إلى ترانْسِيلْفانْيا ، وَإنَّهُ لَيُسْعِدُني أَنْ أَتَرَقَّبَ لِقاءَكَ . أَرْجو لَكَ نَوْمًا هادِئًا ٱللَّيلةَ ، وَفي ٱلسَّاعةِ ٱلثَّالِثةِ بَعْدَ ظُهْرِ ٱلغَدِ ، سَتَرْكَبُ ٱلعَرَبةَ ٱلَّتي حَجَزْتُ لَكَ مَكانًا فيها ، وَٱلمُتَّجِهةَ إلى بُوكُوفِينا ، فَإذا بَلَغْتَ أَعْلى بُقْعَةٍ في ٱلطَّريقِ ٱلصَّاعِدِ إلى ٱلجِبالِ فَسَوْفَ تَجِدُ عَرَبَتي في ٱنْتِظارِكَ فَتُقِلُّكَ إلى حَيْثُ تَلْقاني . لَعَلَّكَ سَعِدْتَ بِرِحْلَتِكَ مِنْ لَنْدَن ، وَأَنا واثِقٌ أَنَّكَ سَوْفَ تَسْتَمْتِعُ بِٱلإقامةِ في أَرْضِيَ ٱلجَميلةِ .

صَديقُكَ

دراكولا

فَلَمَّا قَرَأَ جوناثان ٱلرِّسالةَ قالَ لِنَفْسِهِ : « ما أَكْرَمَهُ ! وَما أَشَدَّ مَهارَتَهُ في وَضْعِ بَرْنامَجِ رِحْلَتي ! » وَلٰكِنَّهُ حينَما سَأَلَ مُديرَ ٱلفُنْدقِ كَيْفَ وَصَلَتِ ٱلرِّسالةُ بَدا عَلى ٱلرَّجُلِ شَيءٌ مِنْ عَدَمِ ٱلارْتِياحِ ، وَتَظاهَرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ لُغَتَهُ ٱلأَلْمانِيَّةَ . وَعِنْدَما حاوَلَ جُوناثان أَنْ يَعْرِفَ مِنْهُ مَعْلوماتٍ أَكْثَرَ عَنْ قَلْعةِ دراكولا بَدا عَلَيْهِ أَنَّهُ غَيْرُ راغِبٍ في ٱلحَديثِ ، وَكُلُّ ما قالَهُ إنَّها تَبْعُدُ كَثيرًا عَنْ بيسْتْريتْز ، وَإنَّهُ لَمْ تُتَحْ لَهُ فُرْصَةُ زِيارَتِها قَطُّ .

كانَ هٰذا ٱلمَسْلَكُ غَريبًا ، وَلٰكِنْ عِنْدَما كانَ جُوناثان في طَريقِهِ بَعْدَ ظُهْرِ ٱليَوْمِ ٱلتَّالي إلى ٱلعَرَبةِ ، كانَ مَسْلَكُ زَوْجةِ مُديرِ ٱلفُنْدُقِ أَشَدَّ غَرابةً . فَقَدْ حَدَثَ حينَما كانَ مُتَّجِهًا لِيَأْخُذَ مَكانَهُ في ٱلعَرَبةِ أَنْ جاءَتْ إلَيْهِ وَعَلى وَجْهِها نَظْرةُ خَوْفٍ وَرُعْبٍ وَسَأَلَتْهُ : « أَلابُدَّ لَكَ مِنَ ٱلذَّهابِ ؟ »

فَتَطَلَّعَ إلَيْها جوناثان في دَهْشةٍ وَأَجابَها : « إنَّني لَمْ آتِ إلى هُنا مِنْ إنْجِلْترا لِلنُّزْهةِ . إنَّني هُنا في عَمَلٍ ، وَلَسْتُ أَمْلِكُ حَقَّ ٱلتَّصَرُّفِ حَسْبَما أَرْغَبُ ، فَهَلْ مِنْ سَبَبٍ

يَدْعوني إلى عَدَمِ ٱلذَّهابِ ؟ » .

فَقالَتِ ٱلسَّيِّدةُ وَهِيَ تَضَعُ يَدَها عَلى ذِراعِهِ : « أَرْجوكَ .. فَهُناكَ خَطَرٌ . »

وَحاوَلَ جوناثان أَنْ يَبْتَسِمَ ، وَلٰكِنَّ ٱلاِبْتِسامةَ لَمْ تُطاوِعْهُ ، فَقالَ لَها : « أَيُّ خَطَرٍ يُمْكِنُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لَهُ ؟ إِنَّني ذاهِبٌ لِزِيارةِ ٱلكونْت دراكولا . »

وَهُنا بَدا عَلى ٱلسَّيِّدةِ ٱرْتِباكٌ شَديدٌ ، وَأَخَذَتْ تَفوهُ بِعِباراتٍ بِلُغةٍ غَيْرِ ٱلأَلْمانِية .. لُغةٍ غَيْرِ مَفْهومةٍ لَهُ . وَكانَ هُناكَ آخَرونَ عَلى مَقْرَبةٍ جاءوا نَحْوَهُما . وَأَخيرًا خَلَعَتِ ٱلسَّيِّدةُ ٱلصَّليبَ ٱلمُعَلَّقَ في عُنُقِها وَوَضَعَتْهُ حَوْلَ عُنُقِ جوناثان ، وَبَدا عَلَيْها وَهِيَ تَفْعَلُ ذٰلِكَ مَظْهَرُ ٱلجِدِّيَّةِ ٱلشَّديدةِ حَتّى إِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ إِلّا ٱلقَبولَ ، بِٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ ٱلمَأْلوفِ أَنْ يَضَعَ ٱلرَّجُلُ ٱلإِنْجِليزِيُّ صَليبًا حَوْلَ عُنُقِهِ ، وَكانَ ٱلأَمْرُ غَريبًا بِٱلنِّسْبةِ لَهُ .

رَكِبَ جوناثان ٱلعَرَبةَ ، وَبَدَأَ ٱلسّائِقُ رِحْلَتَهُ ، أَمّا جُمْهورُ ٱلواقِفينَ فَقَدْ أَخَذوا يَرْسُمونَ في ٱلهَواءِ إِشارةَ ٱلصَّليبِ . وَكانَ هٰذا آخِرَ عَهْدِ جوناثان بِبِسْتْريتْز .

سَأَلَ جوناثان وَعَلى وَجْهِهِ ٱبْتِسامةٌ : « هَلْ نَحْنُ مُعَرَّضونَ لِخَطَرٍ داهِمٍ ، وَمِنْ ثَمَّ نَحْتاجُ إِلى ٱلْتِماسِ كُلِّ هٰذِهِ ٱلبَرَكاتِ مِنَ ٱللهِ ؟ »

فَأَجابَ أَحَدُ ٱلمُسافِرينَ في جِدِّيَّةٍ : « بَعْضُنا قَدْ يَكونُ في حاجَةٍ إِلَيْها . »

أَخَذَ جوناثان يَتَطَلَّعُ إِلى جَمالِ ٱلطَّبيعةِ ٱلفَتّانِ ، مِمّا جَعَلَهُ يَنْسَى — لِفَتْرةٍ مِنَ ٱلزَّمنِ — كُلَّ هٰذِهِ ٱلغَرائِبِ . وَٱلحَقُّ أَنَّ ٱلكونْت دراكولا كانَ عَلى حَقٍّ أَنْ يَفْخَرَ بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلأَراضي ٱلرّائِعةِ . كانَتْ هُناكَ أَشْجارٌ مُزْهِرةٌ ، وَحُقولٌ خُضْرٌ ذاتُ بَهْجةٍ ، وَأَكْواخٌ خَشَبِيَّةٌ ، وَجَداوِلُ جارِيةٌ ، ثُمَّ هُناكَ ٱلغابةُ ٱلَّتي يَكْتَنِفُها ٱلظَّلامُ ، وَٱلَّتي تَمْتَدُّ لِتُطَوِّقَ ٱلمَكانَ .

كانَ ٱلطَّريقُ غَيْرَ مُمَهَّدٍ ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ ٱلسّائِقُ يَمْضي بِٱلعَرَبةِ مُسْرِعًا ، كَأَنَّما يُريدُ أَنْ يُنْهِيَ ٱلرِّحْلةَ بِقَدْرِ ما يَسْتَطيعُ مِنْ سُرْعةٍ . وَفيما بَعْدُ ، حينَما بَدَأَ ٱلطَّريقُ يَتَصَعَّدُ

إلى ٱلجبالِ كانَ مُضطَرًّا إلى ٱلإِبْطاءِ . وَأرادَ جوناثان حينَئِذٍ أنْ يَنْزِلَ مِنَ ٱلعَرَبةِ وَيَسيرَ عَلى قَدَمَيْهِ بِمُحاذاتِها ، وَلٰكِنَّ ٱلسَّائِقَ لَمْ يَسْمَحْ لَـهُ ، وَقالَ مُحَذِّرًا : « لا ! لا ! إنَّ ٱلذِّئابَ هُنا خَطِرَةٌ . »

وَحينَما ٱنْتَشَرَ ٱلظَّلامُ ٱنْتابَتِ ٱلـمُسافِرينَ ٱلرَّهْبَةُ ، وَلٰكِنَّ ٱلسَّائِقَ زادَ في سُرْعَةِ ٱلجِيادِ ، وَلَـمْ يَكُنْ يَتَوَقَّفُ إلَّا لَحْظَةً رَيْثَما يُشْعِلُ ٱلـمَصابيحَ . وَأَخيرًا بَلَغَتِ ٱلعَرَبةُ أَعْلَى بُقْعَةٍ فـي ٱلطَّريقِ ، وَمَضَتْ فـي طَريقٍ لا هُوَ مُرْتَفِعٌ وَلا هُوَ مُنْخَفِضٌ ، وَقـدَّرَ جوناثان أَنَّهُ لابُدَّ أَنْ يَكونَ هاهُنا ٱلـمَكانُ ٱلَّذي تَنْتَظِرُهُ فيهِ عَرَبةُ ٱلكونْت دراكولا .

وَفَجْأَةً أَخَذَ ٱلرُّكَّابُ ٱلآخرونَ يُلَوِّحونَ بِأَيْديهِمْ يَلْتَمِسونَ لَـهُ ٱلبَرَكاتِ كَما فَعَلَ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ كانوا عِنْدَ ٱلفُنْدُقِ . فَهَلْ كانَ هٰذا أَمْرًا مَأْلوفًا ، أَمْ أَنَّهُ كانَ هُناكَ خَطَرٌ حَقًّا ؟ ثُمَّ تَوَقَّفَتِ ٱلعَرَبةُ وَٱنْتَظَرَتْ ، وَكانَ كُلُّ مَنْ فيها صامِتًا يَرْقُبُ ٱلـمَصابيحَ ٱلـمُشْتَعِلةَ ، أَمَّا ٱلجِيادُ فَكانَتْ تَرْتَجِفُ مُتَمَلْمِلةً .

وَبَعْدَ لَحَظاتٍ قالَ السَّائِقُ : « لا تُوجَدُ عَرَبةٌ هُنا ، لَيْسَ هُناكَ أَحَدٌ فـي ٱنْتِظارِ ٱلسَّيِّدِ ٱلإِنْجليزِيِّ فَمِنَ ٱلأَفْضَلِ لَـهُ أَنْ يَظَلَّ فـي ٱلعَرَبةِ مَعَنا إلى بوكوفينا ، ثُـمَّ يَعودَ غَدًا ، بَـلْ لَعَلَّ ٱلأَفْضَلَ لَـهُ أَنْ يَعودَ بَعْدَ غَدٍ . »

فَقالَ أَحَدُ ٱلـمُسافِرينَ : « أَوْ لَعَلَّ ٱلخَيْرَ أَلَّا يَعودَ أَبَدًا . »

فصاحَ آخَـرُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، خَيْرُ مـا يَفْعَلُهُ هُوَ أَنْ يَذْهَبَ إلى بوكوفينا . »

وَلَـمْ يَكَدْ يُتِمُّ عِبارَتَهُ حَتَّى طَرَقَ أَسْماعَهُمْ صَوْتُ عَرَبةٍ أُخْرَى مِـنْ خَلْفِهِمْ . وَظَهَرَتْ أَرْبَعةُ جِيادٍ سودٍ ، يَسوقُها رَجُلٌ طَويلٌ يَرْتَدي قُبَّعةً كَبيرةً سَوْداءَ ، وَكانَتِ ٱلقُبَّعةُ تُخْفي مُعْظَمَ وَجْهِهِ ، فيما عَدا عَيْنَيْهِ اللَّتَيْنِ كانَ ٱحْمِرارُهُما يَلْـمَعُ فـي ضَوْءِ ٱلـمِصْباحِ .

قالَ ٱلرَّجُلُ في لُغةٍ أَلـمانِيَّةٍ سَليمةٍ : « لَقَدْ وَصَلْتَ مُبَكِّرًا ٱللَّيْلةَ ياصَديقي . »

فَلَمْ يُجِبْهُ سائِقُ بيسْتريتْز ، وَكانَ واضِحًا أَنَّهُ خائِفٌ . فَرَدَّدَ ٱلرَّجُلُ مَرَّةً ثانِيةً : « لَقَدْ وَصَلْتَ مُبَكِّرًا ٱللَّيْلَةَ . »

فَأَجابَهُ سائِقُ بيسْتريتْز : « إِنَّ ٱلسَّيِّدَ ٱلإِنْجليزِيَّ كانَ مُسْتَعْجِلًا . »

فَقالَ ٱلرَّجُلُ : « أَظُنُّ أَنَّ هٰذا هُوَ ٱلسَّبَبُ في أَنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَهُ إِلى بوكوفينا . إِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْفِيَ ما يَجُولُ في ذِهْنِكَ مِنْ أَفْكارٍ ياصَديقي . » قالَ ذٰلِكَ ، وَٱبْتَسَمَ ٱبْتِسامَةً قَبيحةً ، فَظَهَرَتْ في ضَوْءِ ٱلـمَصابيحِ أَسْنانُهُ ٱلبَيْضاءُ غَيْرُ ٱلعادِيَّةِ .

وَمَرَّةً ثانِيةً لَـمْ يُجِبْ سائِقُ بيسْتريتْز بِكَلِـمةٍ ، وَإِنَّما قَفَزَ إِلى ٱلأَرْضِ بِسُرْعةٍ ، وَوَضَعَ



حَقائِبَ جوناثان في ٱلعَرَبةِ ٱلأُخرَى ، وَهَبَطَ جوناثان مِنَ ٱلعَرَبةِ ، وَساعَدَهُ ٱلسَّائِقُ ٱلجَديدُ في صُعودِ عَرَبَتِهِ . وَلَـمْ يَشْعُرْ جوناثان بِٱرْتِياحٍ حينَما ٱنْغَرَزَتْ أَصابِـعُ ٱلسَّائِقِ ٱلقَوِيَّةُ ٱلنَّحيلةُ بِعُمْقٍ في ذِراعِهِ .

وَٱنْطَلَقَتْ عَرَبةُ بيسْتريتز ثُـمَّ ٱخْتَفَتْ فـي ٱلظَّلامِ . وَأَحَسَّ جوناثان فَجْأَةً بِٱلوَحْدةِ ٱلـموحِشةِ .

قالَ الرَّجُلُ : « إنَّ ٱللَّيْلةَ بارِدةٌ ، فَخُذْ هٰذا غِطاءً تَتَدَثَّرُ بِـهِ . لَقَدْ طَلَبَ مِنِّي سَيِّدي أَنْ أَرْعاكَ خَيْرَ رِعايةٍ ، وَهُناكَ زُجاجةُ عَصيرٍ تَحْتَ ٱلـمَقْعَدِ إذا رَغِبْتَ في الشُّرْبِ . »

وَلَـمْ يَقُلْ شَيْئًا أَكْثَرَ مِـنْ هٰذا ، وَإِنَّما حَوَّلَ مَسارَ ٱلعَرَبةِ وَٱنْطَلَقَ بِها في طَريقٍ جانِبِيٍّ لَـمْ يَلْحَظْهُ جوناثان مِـنْ قَبْلُ ، وَكانَ يَمْتَدُّ لِيَتَصَعَّدَ إلى أَعْلَى ٱلجَبَلِ .

وَبَيْنَما كانَتِ ٱلعَرَبةُ تَسيرُ بِهِما في ٱللَّيْلِ ٱلبَهيمِ لَـمْ يَكُنْ جوناثان في ٱلبِدايةِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَرَى شَيْئًا . فَقَدْ كانَ ٱلظَّلامُ حالِكًا ، وَلَـمْ تَكُنِ ٱلعَرَبةُ مُزَوَّدةً بِمَصابيحَ ، وَإِنَّما كانَتْ تَطْرُقُ سَمْعَهُ طَوالَ ٱلوَقْتِ أَصْواتُ ٱلذِّئابِ ، فَيَعْوي ذِئْبٌ أَوَّلًا ، ثُمَّ يَعْوي آخَرُ بَعْدَهُ ، كُلٌّ يَرُدُّ عَلى صاحِبِهِ . وكانَتْ أَصْواتُها تَتَرَدَّدُ عَبْرَ ٱلوُدْيانِ ، وَكُلَّـما مَضَتِ ٱلعَرَبةُ قُدُمًا ٱزْدادَتْ أَصْواتُها ٱرْتِفاعًا ، حَتَّى بَدا وَكَأَنَّ ٱلذِّئابَ تُحيطُ بِهِما مِنْ كُلِّ جانِبٍ . وَحينَما حَدَّقَ جوناثان بِعَيْنَيْهِ خِلالَ ٱلظَّلامِ رَأَى قَطيعًا مِنَ ٱلذِّئابِ تَلْتَفُّ حَوْلَهُما كَأَنَّما تَقومُ بِحِراسَتِهِما . فَكانَتْ حَلْقةً مِنَ ٱلعُيونِ ٱلحُمْرِ تَتَحَرَّكُ مَعَهُما بِنَفْسِ ٱلسُّرْعةِ ٱلَّتي تَتَحَرَّكُ بِها ٱلجِيادُ .

وَلَـمْ يَكُنْ يَبْدو عَلى ٱلسَّائِقِ أَنَّهُ يَكْتَرِثُ بِما يَراهُ ، وَلٰكِنَّ ٱلجِيادَ كانَتْ خائِفةً ، وَحينَما ٱزْدادَتِ ٱلذِّئابُ قُرْبًا صاحَ ٱلسَّائِقُ فيها ، كَما يَصيحُ ٱلـمَرْءُ في كِلابِهِ .

كانَتِ ٱلتَّجْرِبةُ بِٱلنِّسْبةِ لِجوناثان أَشْبَهَ بِحُلْـمٍ طَويلٍ مُزْعِجٍ وَلَـمْ يَنْتَهِ هٰذا الْحُلْـمُ إلَّا حينَما تَغَيَّرَ صَوْتُ عَجَلاتِ ٱلعَرَبةِ ، بِما دَلَّ عَلى أَنَّهُما قَدِ ٱجْتازا ساحةَ ٱلدَّارِ فـي قَلْعةِ دراكولا .

اَلفَصلُ آلثَّاني

غادَرَتِ آلعَرَبةُ آلـمَكانَ وَتَرَكَتْ جوناثانَ واقِفًا أَمامَ بابٍ قَديمٍ ضَخْمٍ ذي دَعائِمَ حَديدِيَّةٍ . وَلَـمْ يَكُنْ بِآلطَّابَقِ آلأَرْضِيِّ أَيَّةُ نافِذةٍ ، وإِنَّما كانَ هُناكَ ضَوْءٌ يَنْبَعِثُ مِنْ أَعْلَى آلـمَبْنَى مِمَّا يَدُلُّ عَلى أَنَّ آلقَلْعَةَ لَـمْ تَكُنْ خالِيَةً مِنَ آلسُّكَّانِ ، وَلَـمْ يَكُنْ هُناكَ جَرَسٌ ، وَلِذٰلِكَ لَـمْ يَكُنْ في وُسْعِهِ إِلَّا أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يَأْتِيَ أَحَدٌ لِيَقودَهُ إِلى آلدَّاخِلِ .

ظَلَّ جوناثان واقِفًا بِضْعَ دَقائِقَ لا تَطْرُقُ سَمْعَهُ إِلَّا أَصْواتُ الذِّئابِ ، إِلى أَنْ سَمِعَ جَلَبَةً عِنْدَ آلجانِبِ آلدَّاخِلِيِّ مِنَ آلبابِ ، ثُمَّ فُتِحَ آلبابُ ، وَظَهَرَ رَجُلٌ طَويلٌ أَسْوَدُ آلشَّعْرِ يَلْبَسُ رِداءً أَسْوَدَ ، وَيُمْسِكُ في يَدِهِ مِصْباحًا فِضِّيًّا . اِبْتَسَمَ آلرَّجُلُ قائِلًا :

« إِنَّني أُقَدِّمُ إِلَيْكَ مَنْزِلي ، فَأَهْلًا بِكَ وَسَهْلًا . تَدْخُلُهُ حُرًّا وَتَرْحَلُ مِنْهُ سالِـمًا ، وَآتْرُكْ لَدَيْنا بَعْدَ رَحيلِكَ بَعْضًا مِنَ آلسَّعادةِ آلَّتي جِئْتَ بِها إِلَيْنا . »

فَسَأَلَ جوناثان وَهُوَ يُصافِحُ آليَدَ آلَّتي آمْتَدَّتْ إِلَيْهِ : « اَلكونْت دراكولا ؟ »

فَأَجابَ آلرَّجُلُ : « أَنا دراكولا . وَيَسُرُّني ياسَيِّدُ هارْكَر، أَنْ أَسْتَقْبِلَكَ في مَنْزِلي . سَأَحْمِلُ عَنْكَ حَقائِبَكَ ، فَآلوَقْتُ مُتَأَخِّرٌ وَآلخَدَمُ نائِمُونَ . »

وَأَخَذَ جوناثان آلـمِصْباحَ مِنْهُ ، وَتَبِعَهُ وَهُوَ يَصْعَدُ آلسُّلَّـمَ ، ثُـمَّ وُهُوَ يَعْبُرُ مِنْ خِلالِ حُجْرةٍ فَسيحةٍ مُضاءَةٍ إِضاءَةً جَيِّدةً إِلى غُرْفةِ نَوْمِهِ . وَكانَ سُرورُ جوناثان بالِغًا إِذْ وَقَعَ بَصَرُهُ في آلحُجْرةِ آلَّتي آجْتازاها عَلى مِدْفَأَةِ حَطَبٍ مُشْتَعِلةٍ ، وَمائِدةٍ عامِرةٍ بِآلطَّعامِ .

لَـمْ يَجْلِسِ آلكونْت مَعَ جوناثان إِلى آلـمائِدةِ مُعْتَذِرًا بِأَنَّهُ سَبَقَ أَنْ تَناوَلَ طَعامَهُ ، وَلِذٰلِكَ ، فَبَيْنَما كانَ جوناثان يَأْكُلُ ، أَخَذَ آلكونْت يُطالِعُ آلرِّسالةَ آلَّتي أَحْضَرَها جوناثان مَعَهُ مِنَ آلسَّيِّدِ هَوْكينز آلـمُحامي آلـمُسِنِّ آلَّذي يَعْمَلُ في مَكْتَبِهِ . وَبَدا عَلى آلكونْت آلسُّرورُ بَعْدَ أَنْ قَرَأَ آلرِّسالةَ ، ثُمَّ أَعادَها إِلى جوناثان لِكَيْ يَطَّلِعَ عَلى آلأَشْياءِ آلطَّيِّبةِ آلَّتي

كَتَبَها هُوكينز عَنْـهُ .

وَبَعْدَ أَنْ تَناوَلَ جوناثان طَعامَهُ جَلَسَ ٱلضَّيْفُ وَٱلْمُضيفُ بِجوارِ ٱلْـمِدْفَأَةِ يَتَحَدَّثانِ . وَكانَ جوناثان مَسْرورًا لِأَنَّ ٱلكونْت كانَ يَتَحَدَّثُ بِلُغَةٍ إِنْجليزيَّةٍ سَليمةٍ ، كَما أَنَّ ٱلسُّرورَ كانَ بادِيًا عَلى ٱلكونْت لِأَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ بِٱلإِنْجليزيَّةِ ، وَكانَ هُوَ أَكْثَرَ الاثْنَيْنِ حَديثًا مِمَّا هَيَّأَ لِجوناثان فُرْصةَ ٱلتَّأَمُّلِ في وَجْهِهِ وَدِراسَتِهِ .

كانَ وَجْهُهُ غَيْرَ عادِيٍّ ، فَٱلأَنْفُ قَوِيٌّ حَسَنُ ٱلصُّورةِ ، وَٱلأُذُنانِ مُحَدَّدَتانِ نابِتَتانِ ، وَالشَّفَتانِ حَمْراوانِ ، وَٱلأَسْنانُ حادَّةٌ بَيْضاءُ . وَلٰكِنَّ ٱلشَّيْءَ الَّذي كانَ يَلْفِتُ فيهِ ٱلنَّظَرَ بِصيفةٍ خاصَّةٍ هُوَ ذٰلِكَ ٱلشُّحوبُ غَيْرُ الطَّبيعِيِّ . لابُدَّ أَنَّ ٱلرَّجُلَ كَبيرُ ٱلسِّنِّ ، وَلٰكِنَّهُ ، مَعَ ذٰلِكَ ، كانَ يَبْدو قَوِيًّا نَشيطًا . وَقَدْ لَحَظَ جوناثان أَيْضًا يَدَيْهِ ٱللَّتَيْنِ نَبَتَ ٱلشَّعْرُ في راحَتَيْهِما ، وَأَصابِعَهُ ٱلطَّويلةَ ٱلحادَّةَ ٱلأَطْرافِ . وَلَـمْ يَكُنْ جوناثان يَشْعُرُ بِٱلارْتِياحِ حينَما كانَ ٱلكونْت يَتَحَدَّثُ فَيَلْـمِسُ أَحْيانًا ذِراعَهُ بِأَصابِعِهِ ، كَما أَنَّ ٱلرّائِحةَ الـمُنْبَعِثةَ مِـنْ أَنْفاسِ ٱلكونْت كانَتْ تُثيرُ ٱلغَثَيانَ . لَقَدْ كانَتْ فيها رائِحةُ ٱلـمَوْتِ ، حَتَّى لَقَدْ تَساءَلَ في نَفْسِهِ : « تُرَى أَتَكونُ هِيَ ٱلسَّبَبَ في أَنَّ ٱلنّاسَ يَخافونَهُ ؟ »

وَأَخيرًا ، خَيَّمَ ٱلسُّكونُ عَلى ٱلقَلْعةِ فيما عَدا عُواءَ ٱلذِّئابِ في ٱلخارِجِ وَٱلَّذي كانَ لا يَزالُ مَسْموعًا . وَقالَ ٱلكونت وَهُوَ يَنْهَضُ : « أَوْلادي في هِياجِ ٱللَّيْلةَ . إِنَّ لَدَيْنا بَعْضَ ٱلزُّوّارِ . »

وَحينَما نَهَضَ ، كانَ ضَوْءُ ٱلفَجْرِ قَدْ بَدَأَ يَنْتَشِرُ ، وَهٰكَذا ٱنْقَضَتْ أَوَّلُ لَيْلةٍ لِجوناثان في قَلْعةِ دراكولا .

كانَ جوناثان مُرْهَقًا مَكْدودًا ، وَلِذٰلِكَ نامَ طَويلًا ، وَلَـمّا اسْتَيْقَظَ دَلَفَ إِلى ٱلحُجْرةِ ٱلَّتي تَناوَلَ فيها ٱلطَّعامَ في ٱللَّيْلةِ ٱلـماضِيةِ ، فَوَجَدَ طَعامَ ٱلإِفْطارِ مُعَدًّا ، وَإِبْريقَ ٱلقَهْوةِ قُرْبَ نارِ ٱلـمِدْفَأَةِ ، وَأَمْكَنَهُ في تِلْكَ ٱللَّحْظةِ أَنْ يَرَى قَلْعةَ دراكولا عَلى حَقيقَتِها : فَهِيَ قَلْعةٌ قَديمةٌ

مَليئةٌ بِالغُبارِ ، مَسَّها ٱلبِلَى ، مَعَ أَنَّ إِبْريقَ ٱلقَهْوةِ كانَ مِنَ ٱلذَّهَبِ .

وَحينَما فَرَغَ مِنْ تَناوُلِ طَعامِهِ نَظَرَ باحِثًا عَنْ جَرَسٍ يَدُقُّهُ لِكَيْ يَعْرِفَ ٱلخَدَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَطيعونَ أَنْ يَرْفَعوا ٱلصُّحونَ . وَلٰكِنْ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ جَرَسٌ ، بَلْ إِنَّهُ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ خَدَمٌ عَلى ٱلأَقَلِّ في هٰذا ٱلجُزْءِ مِنَ ٱلقَلْعةِ ٱلَّذي كانَ يُمْكِنُهُ ٱلتَّجَوُّلُ فيهِ ، وَكانَتِ ٱلأَبْوابُ كُلُّها موصَدةً فيما عَدا بابًا واحِدًا كانَ يُؤَدِّي إِلى حُجْرةِ جُلوسٍ تَشْتَمِلُ عَلى مَجْموعةِ كُتُبٍ ، وَقَدْ أَخَذَتْهُ ٱلدَّهْشةُ حينَما وَجَدَ بَيْنَها كُتُبًا وَصُحُفًا إِنْجليزيّةً ، فَجَلَسَ لِيُطالِعَ . وَكانَ لا يَزالُ جالِسًا لِلْقِراءةِ في ٱلـمَساءِ حينَما دَخَلَ ٱلكونْت ٱلَّذي بادَرَهُ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّني مَسْرورٌ لِأَنَّكَ عَرَفْتَ طَريقَكَ إِلى هُنا . إِنَّني ، مُنْذُ عَزَمْتُ عَلى شِراءِ مَنْزِلٍ في إِنْجِلْترا ، أُحاوِلُ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئًا عَنِ ٱلحَياةِ ٱلإِنْجِليزيّةِ . وَيُؤْسِفُني أَنَّ مَعْرِفَتي بِٱللُّغةِ ٱلإِنْجليزيّةِ كانَتْ عَنْ طَريقِ ٱلكُتُبِ فَحَسْبُ ، وَلٰكِنّي آمُلُ أَنْ أَزْدادَ بِها عِلْـمًا بِٱلتَّحَدُّثِ إِلَيْكَ ياسَيِّدُ هارْكَر . وَلِذٰلِكَ فَإِنّي أَرْجو أَنْ تَطولَ إِقامَتُكَ في قَلْعَتي ، وَأَلّا تَكونَ مُتَعَجِّلًا في ٱلعَوْدةِ . »

ثُمَّ اسْتَمَرَّ يَقولُ : « وَتَذَكَّرْ ياسَيِّدُ هارْكَر ، مادُمْتَ هُنا ، أَنّ الدّارَ دارُكَ . فَجُلْ فيها حَيْثُ تَشاءُ فيما عَدا ما وَراءَ ٱلأَبْوابِ ٱلـموصَدةِ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ ، بِٱلطَّبْعِ ، لَنْ تَرْغَبَ في دُخولِها . إِنَّ هُناكَ مِنَ ٱلأَسْبابِ ما يَدْعو إِلى هٰذِهِ ٱلإِجْراءاتِ ، فَنَحْنُ في تِرانْسيلْڤانْيا ، وَتِرانْسيلْڤانْيا لَيْسَتْ إِنْجِلْترا . »

وَبَيْنَما كانَ يَقولُ ذٰلِكَ تَكَشَّفَتْ أَسْنانُهُ عَنِ ٱبْتِسامةٍ أَشْبَهَ بِٱبْتِسامةِ ٱلذِّئْبِ ، وَٱسْتَمَرَّ يَقولُ : « وَٱلآنَ ، زَوِّدْني بِمَعْلوماتٍ عَنِ ٱلـمَنْزِلِ ٱلَّذي ٱشْتَراهُ لي صاحِبُكَ ٱلسَّيِّدُ هوكينْز ، وَأَحْسَبُ أَنَّ هُناكَ بَعْضَ أَوْراقٍ لِأُوَقِّعَ عَلَيْها بِٱسْمي ، وَطَبيعيٌّ أَنْ تَكونَ لَدَيَّ رَغْبةٌ في مَعْرِفةِ كُلِّ شَيْءٍ . »

فَرَدَّ جوناثان : « أَوَّلًا ، آمُلُ أَنْ تَجِدَ أَنَّ ٱلـمَنْزِلَ ٱلَّذي ٱشْتَرَيْناهُ لَكَ هُوَ ما كُنْتَ تَرْغَبُ فيهِ فِعْلًا ، وَأَصْدُقُكَ ٱلقَوْلَ : إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ ٱلنَّوْعِ ٱلَّذي يَرْغَبُ فيهِ أَغْلَبُ ٱلنّاسِ ، وَلٰكِنَّهُ

يُطابِقُ ما طَلَبْتَهُ . إنَّهُ يُسَمَّى كارْفاكْس ، وَمُلْحَقٌ بِهِ أَرْضٌ واسِعةٌ تُغَطِّي مُعْظَمَها ٱلأَشْجارُ بما يُضْفِي عَلَيْها بَعْضَ ٱلظُّلْـمةِ . أَمَّا ٱلـمَنْزِلُ ذاتُهُ فَواسِعٌ قَديمٌ قَليلُ ٱلنَّوافِذِ ، وَأَخْشَى أَنَّكَ لَنْ تَجِدَ صُحْبةً كَثيرةً في كارْفاكْس ، إذْ إنَّهُ لا توجَدُ مَنازِلُ كَثيرةٌ مُجاوِرةٌ . أَمَّا جارُكَ ٱلوَحيدُ في ٱلـمِنْطَقةِ فَهُوَ طَبيبٌ يَتَوَلَّى إدارةَ مُسْتَشْفى لِلْـمَجانينِ . »

فَرَدَّ ٱلكونْت : « إنَّني مَسْرورٌ لِأَنَّ ٱلـمَنْزِلَ قَديمٌ ، فَلَقَدْ نَشَأْتُ في أُسْرةٍ عَريقةٍ ، وَلا أُحِبُّ أَنْ أُقيمَ في مَنْزِلٍ لَيْسَ لَهُ تاريخٌ ، ثُمَّ إنَّني لا أُبالي ٱلظَّلامَ . فَرَجُلٌ مُسِنٌّ مِثْلي ، يَعيشُ وَحيدًا وَيُفَكِّرُ كَثيرًا في ٱلـمَوْتِ ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَخْشَى ٱلظَّلامَ . »

ثُمَّ وَقَّعَ ٱلكونْت بِٱسْمِهِ عَلى ٱلأَوْراقِ ، وسَارَ يَتْبَعُهُ جوناثان إلى حُجْرةِ ٱلـمائِدةِ حَيْثُ كانَ ٱلطَّعامُ في ٱنْتِظارِهِما . وَمَرَّةً ثانِيةً ٱعْتَذَرَ ٱلكونت عَنْ عَدَمِ تَناوُلِ ٱلطَّعامِ عَلى زَعْمِ أَنَّهُ تَناوَلَهُ خارِجَ ٱلـمَنْزِلِ .

اِنْقَضَتْ هٰذِهِ ٱلأُمْسِيَّةُ وَٱلأَماسِيُّ ٱلتَّالِيةُ بِنَفْسِ ٱلنَّمَطِ ، وَمَعَ أَنَّهُ كانَ يَبْدو غَريبًا ، في نَظَرِ جوناثان ، أَنْ يَقْضِيَ ٱلوَقْتَ بِٱلحَديثِ في ٱللَّيْلِ ، وَٱلنَّوْمِ في ٱلنَّهارِ ، فَقَدْ بَدا لَهُ أَنَّ هٰذا هُوَ ٱلأُسْلوبُ ٱلَّذي تَعَوَّدَهُ ٱلكونْت ، وَأَحَسَّ أَنَّ مِنَ ٱلواجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَهُ . أَمّا ٱلكونْت فَقَدْ كانَ مَسْلَكُهُ دَمِثًا لَطيفًا ، وَكانَ حَديثُهُ دائِمًا شائِقًا وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ جوناثان ، لِسَبَبٍ غامِضٍ لا يَعْلَـمُهُ ، مُتَوَجِّسًا خِيفةً مِنْهُ . وَلَـمْ يَكُنْ مَصْدَرُ ذٰلِكَ هُوَ ، فَقَطْ ، تِلْكَ ٱلنَّظْرةَ ٱلَّتي كانَ يَلْـمَحُها أَحْيانًا في عَيْنَيْه ٱلغَريبَتَيْنِ بِسَبَبِ حُمْرَتِهِما ، وَإِنَّما هُوَ ، كَذٰلِكَ ، إحْساسُهُ أَنَّ ٱلكونْت لَيْسَ رَجُلًا عادِيًّا ، وَأَنَّ فيهِ قُوًى غَيْرَ طَبيعِيَّةٍ . وَحانَتْ فُرْصةٌ وَجَدَ فيها جوناثان بُرْهانًا يُؤَيِّدُ هٰذا ٱلإِحْساسَ ، وَكانَ ذٰلِكَ عَقِبَ قُدومِهِ بِحَوالَى أُسْبوعٍ . كانَ جوناثان يَقِفُ بِجِوارِ ٱلنّافِذةِ يَحْلِقُ ذَقَنَهُ وَقَدْ وَضَعَ أَمامَهُ مِرْآةً صَغيرةً كانَتْ صَديقَتُهُ مِينا ، لِحُسْنِ ٱلحَظِّ ، قَدْ أَهْدَتْها إلَيْهِ . وَنَقولُ « لِحُسْنِ ٱلحَظِّ » لِأَنَّهُ لَـمْ تَكُنْ هُناكَ مِرْآةٌ في غُرْفَتِهِ ، وَلا في أَيٍّ مِنْ غُرَفِ ٱلقَلْعةِ ٱلأُخْرَى .

وَفَجْأةً أَحَسَّ بِمَلْمَسِ يَدٍ ، وَسَمِعَ صَوْتًا يُحَيِّيهِ تَحِيَّةَ ٱلصَّباحِ ، فَقَفَزَ مِنَ ٱلـمُفاجَأةِ ،

وَنَظَرَ فَإِذا ٱلكونْت واقِفٌ بِجانِبِهِ . كانَ ٱلكونْت مِمَّنْ يَمْشونَ بِهُدوءٍ ، وَمِنَ ٱلـمُمْكِنِ أَنْ يَكونَ قَدْ دَخَلَ ٱلحُجْرةَ فَلَـمْ يَسْمَعْ وَقْعَ أَقْدامِهِ ، أَمَّا غَيْرُ ٱلـمُمْكِنِ فَهُوَ أَنْ يَدْخُلَ ٱلحُجْرةَ وَلا يُرى ، وَقالَ جوناثان في نَفْسِهِ : « كَيْفَ لَـمْ أَرَهُ في ٱلـمِرْآةِ وَهُوَ يَدْخُلُ ٱلحُجْرةَ ، ثُمَّ إِنَّهُ يَقِفُ ٱلآنَ أَمامَ ٱلـمِرْآةِ ، وَمَعَ أَنَّني أَرى نَفْسي فيها فَإِنَّني لا أَراهُ . »

وَبَيْنَما كانَ جوناثان لا يَزالُ يُحَدِّقُ في ٱلـمِرْآةِ لَحَظَ أَنَّهُ جَرَحَ ذَقَنَهُ وأَنَّ ٱلدَّمَ أَخَذَ يَسيلُ عَلى عُنُقِهِ ، فَٱلتَفَتَ نَحْوَ ٱلكونْت مَرَّةً ثانِيةً لِيَتَأَكَّدَ ما إِذا كانَ في ٱلحُجْرةِ حَقيقةً ، فَأَصابَهُ



ٱلفَزَعُ وَتَجَمَّدَ في مَكانِهِ . كانَ دراكولا يُراقِبُهُ وَكَأَنَّه حَيَوانٌ جائِعٌ . وَبَدا وَكَأَنَّهُ يَتَأَهَّبُ لِـمُهاجَمَتِهِ .

كانَ ٱلدَّمُ في هٰذِهِ ٱللَّحْظَةِ قَدْ وَصَلَ حَتّى ٱلصَّليبِ ٱلَّذي قَدَّمَتْهُ لَهُ سَيِّدَةُ ٱلفُنْدُقِ ، وَبِدونِ تَفْكيرٍ مَسَحَ جوناثان ٱلدَّمَ بِظَهْرِ يَدِهِ . وَفي أَثْناءِ ذٰلِكَ رَفَعَتْ يَدُهُ ٱلصَّليبَ ، وَإِذا بِوَجْهِ ٱلكونْت يَتَغَيَّرُ وَيَبْدو كَٱلـمَجْنونِ ، وَوَقَفَ يَرْتَعِشُ فَتْرَةً مِنَ ٱلزَّمَنِ كَأَنَّما تُغالِبُهُ ٱلرَّغْبَةُ في ٱلهُجومِ عَلى جوناثان ، وَلٰكِنَّهُ ، لِأَمْرٍ مّا ، غَيْرُ قادِرٍ . وَفَجْأَةً تَناوَلَ ٱلـمِرْآةَ ٱلصَّغيرةَ وَأَلْقاها مِنَ ٱلنّافِذَةِ . وَمَضَتْ لَحْظَةُ سُكونٍ طَويلَةٌ ، وَجَدَ جوناثان نَفْسَهُ في أَثْنائِها يَحْسِبُ ٱلوَقْتَ ٱلَّذي انْقَضَى قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَ تَهَشُّمِ ٱلـمِرْآةِ عَلى ٱلصُّخورِ . أَمّا ٱلكونْت فَقَدِ ٱسْتَدارَ إِلَيْهِ قائِلًا : « إِنَّ ٱلشَّيْطانَ أَعْطَى ٱلنّاسَ ٱلـمَرايا لِكَيْ يَجْعَلَهُمْ مُتَعالينَ مُتَكَبِّرينَ . إِنَّني لا أَسْمَحُ بِها في مَنْزِلي . » ثُمَّ قالَ وَهُوَ يُغادِرُ ٱلحُجْرةَ : « حاوِلْ أَلّا تَجْرَحَ نَفْسَكَ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ في بَلَدِنا أَكْثَرُ خُطورةً مِمّا تَتَصَوَّرُ . »

وَفي ٱلبِدايَةِ ، لَـمْ يَكُنْ في وُسْعِ جوناثان إِلّا أَنْ يَظَلَّ واقِفًا وَرَغْوَةُ ٱلصّابونِ تَجِفُّ عَلى وَجْهِهِ . كانَ عاجِزًا عَنْ أَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ . وَتَدافَعَتِ ٱلتَّساؤُلاتُ في ذِهْنِهِ : لِـماذا اسْتُثيرَ ٱلرَّجُلُ هٰذِهِ ٱلاسْتِثارةَ بِمَنْظَرِ ٱلدِّماءِ ؟ وَأَيُّ نَوْعٍ مِنَ ٱلرِّجالِ هٰذا ٱلَّذي لا تُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ في ٱلـمِرْآةِ ؟

ثُمَّ نَظَرَ مِنَ ٱلنّافِذَةِ مُتَطَلِّعًا إِلى أَسْفَلَ . إِنَّ ٱلـمِرْآةَ لابُدَّ أَنْ تَكونَ قَدْ هَوَتْ مِئَةَ مِتْرٍ قَبْلَ أَنْ تَصْطَدِمَ بِٱلأَرْضِ . ما أَصْعَبَ ٱلهُروبَ مِنْ هٰذِهِ ٱلقَلْعَةِ ! وَمَرَّتْ بِخاطِرِهِ أَفْكارٌ عَنِ ٱلأَبْوابِ ٱلـمُوصَدَةِ ، وَأَخَذَ يَتَساءَلُ : تُرَى أَهُوَ زائِرٌ لِلْكونْت دراكولا ، أَمْ هُوَ سَجينٌ لَدَيْهِ ؟ أَهُوَ ضَيْفُهُ أَمْ أَسيرُهُ ؟

اَلْفَصْلُ ٱلثّالِثُ

كانَ جوناثان مُحاميًا دَرَسَ ٱلقانونَ ، وَقَدْ عَلَّمَتْهُ هٰذِهِ الدِّراسةُ كَيْفَ يُواجِهُ ٱلحَقائِقَ . وَمِنَ ٱلحَقائِقِ الَّتي كانَ عَلَيْهِ أَنْ يُواجِهَها آنذاك أَنَّهُ سَجينٌ مِنْ نَوْعٍ ما . وَلٰكِنَّ ٱلمُؤَكَّدَ أَنَّهُ سِجْنٌ مُؤَقَّتٌ لِبِضْعَةِ أَيّامٍ أُخْرَى ، وَأَنَّهُ إذا كانَ دراكولا قَدْ أَفْزَعَهُ فَهٰذا لا يَعْني بِالضَّرورَةِ أَنَّهُ في خَطَرٍ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُخْفِيَ ما يَجُولُ في ذِهْنِهِ مِنْ أَفْكارٍ ، وَيحاوِلَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلمَزيدَ مِنَ ٱلمَعْلوماتِ .

وَفي هٰذا ٱلمَساءِ سَمِعَ خُطُواتِ ٱلكونْتِ وَهُوَ يَدْخُلُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ خارِجِ ٱلمَنْزِلِ ، وَلاحَظَ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ مُباشَرَةً إلى حُجْرَةِ ٱلجُلُوسِ . فَمَشَى جوناثان بِخُطًى خَفيفَةٍ نَحْوَ بابِ حُجْرَةِ ٱلكونْتِ وَشاهَدَهُ يُرَتِّبُ فِراشَهُ . وَفيما بَعْدُ ، حِينَ رَآهُ وَهُوَ يُعِدُّ بِنَفْسِهِ ٱلمائِدَةَ في حُجْرَةِ ٱلطَّعامِ ، ٱتَّضَحَ لَهُ ــ عَلى ٱلأَقَلِّ ــ أَمْرٌ مِنَ ٱلأُمورِ : اِتَّضَحَ لَهُ أَنَّهُ لَيْسَ هُناكَ خَدَمٌ في ٱلقَلْعَةِ . لَقَدْ كانَ ٱلكونْتُ نَفْسُهُ هُوَ الَّذي يَقوُم بِكُلِّ أَعْمالِ ٱلمَنْزِلِ ، وَهُوَ الَّذي يَسوقُ ٱلعَرَبَةَ . إذًا ، فَإِنَّ جوناثان وَحْدَهُ في ٱلقَلْعَةِ مَعَ دراكولا . وَحْدَهُ ؟ لٰكِنْ لا ، لَيْسَ وَحْدَهُ تَمامًا كَما اكْتَشَفَ بَعْدَ أَيّامٍ قَليلَةٍ .

* * *

وَمَضَتِ ٱلأَيّامُ عَلى وَتيرَةٍ واحِدَةٍ . يَسْتَيْقِظُ جوناثان مِنْ نَوْمِهِ في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ فَيَتَناوَلُ إفْطارَهُ ، ثُمَّ يُطالِعُ في حُجْرَةِ ٱلجُلُوسِ ، وَفي اللَّيْلِ يَسْتَمِعُ إلى ٱلكونْتِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ تاريخِ أُسْرَتِهِ وَعَنْ بَلَدِهِ . وَكانَ حَديثُهُ عَنْ أُسْرَتِهِ أَوْ عَنْ بَلَدِهِ شَيْئًا واحِدًا تَقْرِيبًا ، ذٰلِكَ أَنَّ أَعْضاءَ أُسْرَةِ دراكولا كانُوا هُمُ ٱلمِحْوَرَ لِجَميعِ ٱلأَحْداثِ الَّتي تُمَثِّلُ تاريخَ تَرانْسيلْفانْيا وَهُنا كانَ حَديثُهُ شائِقًا . وَكانَ يَرْوي قِصَصَهُ بِأُسْلوبٍ يَفيضُ بِٱلعاطِفَةِ وَٱلمَشاعِرِ ، حَتّى لَقَدْ يُخَيَّلُ إلى السّامِعِ أَنَّهُ كانَ مُشْتَرِكًا بِنَفْسِهِ في ٱلمَعارِكِ الَّتي يَتَحَدَّثُ عَنْها .

وَفي بَعْضِ ٱلأَحْيانِ كانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَشْياءَ عادِيَّةٍ .. عَنْ إنْجِلْتِرا .. عَنِ ٱلقانونِ ..

ـنِ السُّفُنِ وَالقِطاراتِ . وَكانَ جوناثان يَأْخُذُهُ العَجَبُ مِنْ كَثْرَةِ المَعْلُوماتِ الَّتي يُلِمُّ
ها . وَكانَ مِنْ بَيْنِ الاهْتِماماتِ الَّتي أَبْداها رَغْبَتُهُ في تَصْديرِ بَضائِعَ إلى إنْجِلْترا ، وَلِذٰلِكَ
كانَ يُريدُ اخْتِيارَ مَدينةٍ ساحِلِيَّةٍ حَيْثُ يُمْكِنُهُ شَحْنُ البَضائِعِ إلَيْها مُباشَرَةً .

قالَ الكونْتُ : « لا أُريدُ مَدينةً كَبيرَةً . فَقَدْ يَكُونُ في ذٰلِكَ مَشَقَّةٌ وَمَضْيَعَةٌ لِلْوَقْتِ ،
ماذا تَرى ياسَيِّدُ هارْكَر ؟ »

فَقالَ جوناثان : « لِماذا لا تَكونُ هْويتْبي ؟ »

* * *

كانَ جوناثان يُفَكِّرُ في مِينا وَصَديقَتِها الجَميلَةِ لُوسي ، إذْ كانَتا تَعْتَزِمانِ الذَّهابَ
لِقَضاءِ العُطْلَةِ في تِلْكَ المَدينَةِ القَديمَةِ الرّائِعَةِ الَّتي تَقَعُ في الشَّمالِ الشَّرْقِيِّ ، وَالَّتي تَشْتَهِرُ
بِصَيْدِ الأَسْماكِ . حَدَّثَهُ جوناثان عَنِ المَدينةِ وَعَنْ صاحِبَتِهِ مِينا . وَبَدا عَلى الكونْتِ
الاهْتِمامُ وَالرِّضا ، فَقَدْ كانَتْ هْويتْبي مُلائِمةً لَهُ ، وَأَعْرَبَ كَذٰلِكَ عَنْ سَعادَتِهِ البالِغَةِ بِعَزْمِ
جوناثان عَلى الزَّواجِ . وَتَمَنّى لَهُ أَطْيَبَ الأُمْنِيّاتِ .

وَقَدْ سَرَّ جوناثان ما رَآهُ مِنِ اهْتِمامِهِ بِزَواجِهِ ، فَأَخْرَجَ صُوَرًا فوتوغْرافِيَّةً لِمِينا وَلُوسي ،
وَابْتَسَمَ الكونْت حينَ شاهَدَ الصُّوَرَ ، وَقالَ : « يالَهُما مِنْ فَتاتَيْنِ جَميلَتَيْنِ ! »

وَقَدْ نَطَقَ العِبارةَ بِطَريقَةٍ جَعَلَتْ جوناثان يَأْسَفُ لِتَسَرُّعِهِ في إطْلاعِهِ عَلى الصُّوَرِ ، ثُمَّ
قالَ الكونْتُ :

« صَديقَتُكَ الآنِسةُ مِينا ! مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّها تَرْغَبُ في مَعْرِفَةِ أَخْبارِكَ ، وَكَذٰلِكَ السَّيِّدُ
هَوْكِيْنز . هَلْ كَتَبْتَ إلَيْهِما مُنْذُ قُدومِكَ ؟ »

فَأَجابَ جوناثان : « لا .. لَمْ تُتِحْ لِيَ الفُرْصَةُ ، لِكَيْ أَبْعَثَ بِأَيَّةِ رَسائِلَ . »

قالَ الكونْتُ : « إذًا فَاكْتُبِ الآنَ ياصَديقِيَ العَزيزَ . اكْتُبْ إلى السَّيِّدِ هَوْكِينْز وَأَخْبِرْهُ أَنَّكَ

سَوْفَ تُقيمُ مَعي شَهْرًا آخَرَ . »

وَما إنْ سَمِعَ جوناثان كَلامَهُ حَتّى جَمَدَ الدَّمُ في عُروقِهِ ، وَقالَ : « أَتُريدُني أَنْ أُقيمَ هُنا هٰذِهِ ٱلفَتْرَةَ الطَّويلةَ ؟

فَأَجابَ ٱلكونْتُ : « آمُلُ ذٰلِكَ . لَقَدْ بُعِثْتَ لِتَرْعَى أَعْمالي ، وَأَعْمالي تَتَطَلَّبُ مِنْكَ أَنْ تَكونَ هُنا لِفَتْرةٍ طَويلَةٍ . »

وَهُنا ، أَحَسَّ جوناثان — أَكْثَرَ مِمّا كانَ يُحِسُّ مِنْ قَبْلُ — أَنَّهُ أَشْبَهُ بِالسَّجينِ . قالَ لِنَفْسِهِ : « كَيْفَ أَسْتَطيعُ أَنْ أُواصِلَ ٱلحَياةَ في هٰذِهِ ٱلقَلْعةِ لِمُدَّةِ شَهْرٍ آخَرَ ؟ وَمَعَ هٰذا فَماذا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَ ؟ إنَّني أَعْمَلُ لَدَى السَّيِّدِ هَوْكِينْز ، وَٱلكونْت دراكولا يَدْفَعُ أَجْرًا في مُقابِلِ خِدْماتي . »

وَٱسْتَمَرَّ ٱلكونْتُ يَقولُ : « إنَّني أَطْلُبُ إلَيْكَ أَلّا تَكْتُبَ في رَسائِلِكَ إلّا ما يَمَسُّ ٱلعَمَلَ . مَعَ ٱسْتِثْناءِ ما تَقولُهُ مِنْ إنَّـكَ بِخَيْرٍ . »

ثُمَّ ناوَلَ جوناثان أَوْراقًا وَظُروفًا لِكِتابَةِ الرَّسائِلِ . وَكانَتِ ٱلظُّروفُ مِنَ الرِّقَّةِ وَالشَّفافِيةِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَقْرَأَ ما هُوَ مَكْتوبٌ في الرِّسالَةِ مِنْ خِلالِ الظَّرْفِ .

* * *

وَهٰكَذا جَلَسَ جوناثان ، وَكَتَبَ بِضْعَ رَسائِلَ لا تَتَضَمَّنُ أَيَّ أَمْرٍ مِنَ ٱلأُمورِ الَّتي كانَ يَوَدُّ لَوِ ٱسْتَطاعَ أَنْ يَكْتُبَ عَنْها . وَأَخَذَ ٱلكونْت الرَّسائِلَ ، وَقَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ قالَ : « دَعْني أُحَذِّرْكَ ياصَديقيَ ٱلشّابُّ ، إذا غادَرْتَ هٰذِهِ ٱلحُجُراتِ وَذَهَبْتَ إلى أَيِّ جُزْءٍ آخَرَ مِنَ ٱلقَلْعةِ ، فَلا تَسْتَسْلِمْ لِلنَّوْمِ هُناكَ . إنَّ ٱلقَلْعةَ قَديمةٌ ، وَقَدْ وَقَعَتْ أَحْداثٌ غَريبةٌ هُنا ، وَمِنَ ٱلـمُحْتَمَلِ أَنْ تَرَى أَحْلامًا مُزْعِجةً ، أَمّا في حُجْرَتِكَ فَإنَّكَ في مَأْمَنٍ . »

فَقالَ جوناثان في نَفْسِهِ : « في مَأْمَنٍ ؟! كَيْفَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَكونَ آمِنًا وَأَنْتَ هُنا ؟ »

* * *

هَبَطَ جوناثان إلى حَيْثُ البابُ الكَبيرُ الَّذي يُؤَدّي إلى ساحةِ الدّارِ . كانَ البابُ موصدًا كَالعادةِ ، وَلابُدَّ أَنْ يَكونَ المِفْتاحُ في حُجْرةِ الكونْت . وَكانَتْ هُناكَ حُجْرةٌ صَغيرةٌ أَوِ اثْنَتانِ غَيْرَ مُوصَدَتَيْنِ ، وَلٰكِنَّ أَيًّا مِنْهُما لَمْ تَكُنْ تُؤَدّي إلى أَيِّ مَكانٍ . ثُمَّ لاحَظَ أَنَّ هُناكَ بابًا في نِهايَةِ دِهْليزٍ قَصيرٍ . وَقَدْ بَدا في بادِئِ الأَمْرِ أَنَّهُ موصَدٌ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ في الحَقيقَةِ ساقِطًا وَمُسْتَنِدًا إلى الأَرْضِ ، فَاسْتَطاعَ جوناثانُ أَنْ يَرْفَعَهُ ثُمَّ يَدْفَعَهُ لِيَنْفَتِحَ قَليلًا بِما يَكْفي لِكَيْ يَعْبُرَ مِنْ خِلالِ الفُتْحةِ . ثُمَّ أَخَذَ يَتَحَسَّسُ طَريقَهُ وَيَصْعَدُ سُلَّمًا مُظْلِمًا حَتّى وَجَدَ نَفْسَهُ في حُجْرةٍ بَهيجةٍ تُضيئُها أَشِعَّةُ القَمَرِ ، وَتَوَقَّعَ أَنْ تَكونَ مُجاوِرةً لِحُجْرةِ نَوْمِهِ . وَبَدا مِمّا فيها مِنْ أَثاثٍ أَنَّها رُبَّما كانَتْ تَسْتَخْدِمُها سَيِّداتُ القَلْعةِ مُنْذُ زَمانٍ طَويلٍ .

وَمَدَّ جُوناثانُ رأسَهُ مِنَ النّافِذةِ مُتَمَتِّعًا بِاسْتِنْشاقِ هَواءِ اللَّيْلِ . وَكانَ وُجودُهُ في جُزْءٍ آخَرَ مِنْ أَجْزاءِ القَلْعةِ يُشْعِرُهُ أَنَّهُ قَدِ انْتَصَرَ عَلى دراكولا بَعْضَ الانْتِصارِ . وَفي هٰذِهِ اللَّحْظةِ سَمِعَ صَوْتًا مِنْ أَسْفَلَ . وَأَدْرَكَ مِنْهُ أَنَّ هُناكَ شَخْصًا ما يُطِلُّ مِنْ نافِذَةٍ . وَتَطَلَّعَ صَوْبَهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرى الوَجْهَ ، وَلٰكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّهُ لابُدَّ أَنْ يَكونَ الكونْت دراكولا . وَسَرَّهُ أَنَّ دراكولا لَمْ يَكْتَشِفْ وُجودَهُ ، وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما تَحَوَّلَ السُّرورُ إلى خَوْفٍ ، فَبِحَرَكةٍ فُجائِيّةٍ كانَ جِسْمُ دراكولا كُلُّهُ يَبْرُزُ خارِجَ النّافِذةِ ، وَبَدَأَ يَهْبِط عَلى الجِدارِ وَرَأْسُهُ إلى أَسْفَلَ كَمَثَلِ ذُبابَةٍ تَدِبُّ هابِطةً عَلى جِدارٍ . وَكانَتْ أَصابِعُ يَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ تَتَشَبَّثُ بِكُلِّ فَراغٍ بَيْنَ الأَحْجارِ ، وَجَوانِبُ ثَوْبِهِ تَرْتَفِعُ حَوْلَ جَسَدِهِ إلى أَعْلى كَأَنَّها أَجْنِحةٌ . وَهٰكَذا أَخَذَ يَهْبِطُ حَتّى اخْتَفى خِلالَ الظِّلالِ عِنْدَ أَسْفَلِ جُدْرانِ القَلْعةِ .

كادَ جوناثانُ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الفَزَعِ ، وَلَمْ يَكُنْ في أَوَّلِ الأَمْرِ قادِرًا عَلى التَّفْكيرِ أَوِ التَّصَرُّفِ بِأَيَّةِ صورَةٍ . ما هٰذا الدَّراكولا ؟!

وَأَخيرًا تَنَبَّهَ إلى أَنَّ الصَّليبَ الَّذي كانَ يَلْبَسُهُ حَوْلَ عُنُقِهِ قَدِ اشْتَبَكَ بِقِطْعةٍ مِنْ حَديدِ النّافِذَةِ فَسَقَطَ خارِجَها . وَجالَ في خاطِرِهِ أَنَّ لِهٰذا الصَّليبِ قُوَّةً تَقْهَرُ دراكولا . أَمّا الآنَ وَقَدْ فَقَد الصَّليبَ ، فَقَدْ شَعَرَ بِالضَّعْفِ وَالوَهَنِ ، فَتَمَدَّدَ فَوْقَ سَريرٍ في مُواجَهةِ النّافِذةِ مُنْتَظِرًا أَنْ تَعودَ إلَيْهِ قُوَّتُهُ .

أمّا الّذي حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ مِنَ ٱلغَرابة بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ حُلْمًا مِنَ ٱلأَحْلامِ . ذٰلِكَ أَنَّهُ ـــ مَعَ أَنَّ عَيْنَيْهِ مُغْمَضَتانِ ـــ كانَ عَلى يَقينٍ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ وَحيدًا في ٱلحُجْرةِ . كانَتْ هُناكَ ثَلاثُ فَتَياتٍ يَرْقُبْنَهُ مِنْ خِلالِ ٱلظِّلالِ ، وَيَتَحَدَّثْنَ في هَمْسٍ ، وَحينَما تَحَرَّكْنَ خارِجَ الظِّلالِ إلى حَيْثُ ضَوْءُ ٱلقَمَرِ رَأى ، مِنْ خِلالِ عَيْنَيْهِ نِصْفِ ٱلمَفْتوحَتَيْنِ ، أَنَّ الثَّلاثَ جَميعَهُنَّ كُنَّ جَميلاتٍ فاتِناتٍ . وَعِنْدَما ضَحِكْنَ كَشَفَ ضَوْءُ ٱلقَمَرِ عَنْ أَسْنانٍ طَويلَةٍ بيضٍ .

وَعِنْدَما ٱزْدَدْنَ مِنْهُ قُرْبًا اسْتَطاعَ أَنْ يَرى ٱلانْبِهارَ في عُيونِهِنَّ ٱلحُمْرِ . وَأَنْ يَسْمَعَهُ في تَنَفُّسِهِنَّ ، وَفي الطَّريقَةِ الَّتي أَطْلَقْنَ بِها ضَحِكاتِهِنَّ . لَقَدْ كُنَّ شِرِّيراتٍ فَاعْتَراهُ الذُّعْرُ مِنْهُنَّ ، وَلٰكِنَّ شَيْئًا ما ـــ في نَفْسِ ٱلوَقْتِ ـــ جَعَلَهُ يُشارِكُهُنَّ في ٱلانْبِهارِ وَيَرْغَبُ في أَنْ يَتَقَدَّمنَ مِنْهُ .

وَإِذا بِٱثْنَتَيْنِ مِنْهُنَّ أَخيرًا تَدْفعانِ ٱلثّالثةَ ٱلشَّقْراءَ نَحْوَهُ ، فَتَقَدَّمَتْ وَٱنْحَنَتْ بِجِوارِ السَّريرِ وَوَضَعَتْ خَدَّها مُلاصِقًا لِخَدِّهِ . وَأَحَسَّ جوناثان أَنْفاسَها في عُنُقِهِ كَما أَحَسَّ أَنَّ سِنَّتَيْنِ حادَّتَيْنِ مِنْ أَسْنانِها تَلْمِسانِ بَشَرَتَهُ وَتَسْتَقِرّانِ بِلُطْفٍ فَوْقَها . فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَٱنْتَظَرَ ما يَحْدُثُ وَهُوَ غَيْرُ قادِرٍ عَلى ٱلحَرَكَةِ ، بَلْ غَيْرُ راغِبٍ فيها .

* * *

وَكانَ ما حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَشْبَهَ بِما يَحْدُثُ وَسطَ عاصِفةٍ هَوْجاءَ . فَقَدْ أَحَسَّ أَنَّ ٱلكونْت مَوْجودٌ في ٱلحُجْرةِ . أَحَسَّ بِهِ حَتّى قَبْلَ أَنْ يَرى يَدَهُ وَهِيَ تُطْبِقُ عَلى عُنُقِ ٱلفَتاةِ الَّتي بِجِوارِ سَريرِهِ وَيَقْذِفُ بِها عَبْرَ ٱلحُجْرَةِ . كانَ غَضْبانَ غَضَبًا لَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ . كانَ وَجْهُهُ في صُفْرةِ ٱلمَوْتِ . كانَتْ عَيْناهُ يَنْبَعِثُ مِنْهُما ٱلشَّرَرُ ، وَكانَ جَسَدُهُ كُلُّهُ يَرْتَجِفُ ٱرْتِجافًا .

صاحَ ٱلكونْت : « كَيْفَ تَجْرُؤْنَ عَلى لَمْسِهِ ؟ كَيْفَ تَجْرُؤْنَ عَلى عِصْيانِ أَوامِري ؟ »

فَقالَتْ : إِحْداهُنَّ : « إِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَفْهَمَ . إِنَّكَ لَسْتَ ٱمْرَأَةً . » ثُمَّ أَخَذْنَ جَميعًا يَضْحَكْنَ .

فَصاحَ آلكونْت : « أَلَـمْ أَقُلْ لَكُنَّ أَلَّا يَقْتَرِبَ أَحَدٌ مِنْهُ ؟ »

فَأَجابَتْ أُخرى : « سَيِّدي ، لَقَدْ كانَ يَرْقُدُ هُنا . ماذا كُنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ ؟ »

فَقالَ دراكولا : « هٰذا الرَّجُلُ لي وَحْدي ، وَإِلى أَنْ أُصْبِحَ في غَيْرِ حاجَةٍ إِلَيْهِ ، فَحينَئِذٍ وَحينَئِذٍ فَقَطْ .. » وَلَـمْ يُكْمِلْ دراكولا عِبارَتَهُ ، وَلٰكِنَّ مَعْناها كانَ واضِحًا لجوناثان. وَسَأَلَتْ إِحْدَى آلفَتَياتِ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلى آلكِيسِ الَّذي كانَ بِجوارِ قَدَمَيْ دراكولا : « إِذًا أَلَنْ نَحْصُلَ عَلَى شَيْءٍ اللَّيْلَةَ ؟ »

وَإِذا بِآلكيسِ يَتَحَرَّكُ فَوْقَ آلأَرْضِ وَتَخْرُجُ مِنْهُ صَيْحاتٌ كَصَيْحاتِ آلأَطْفالِ . فَدَفَعَ دراكولا آلكِيسَ بِقَدَمِهِ عَبْرَ آلحُجْرَةِ إِلَيْهِنَّ ، فَآنْكَفَأْنَ عَلَيْهِ مِثْلَ آلحَيَواناتِ آلجائِعَةِ ، عَلى حِينَ أَخَذَتِ آلصَّيْحاتُ مِنْ داخِلِ آلكِيسِ تَعْلو ثُمَّ تَعْلو . وَإِذا بِضَبابٍ يَغْشَى آلحُجْرَةَ ، وَغَلَبَ عَلى جوناثان نُعاسٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُقاوِمَهُ . وَلٰكِنَّ سِرَّ قَلْعَةِ دراكولا لَـمْ يَعُدْ بِالنِّسْبَةِ لَهُ سِرًّا .. لَقَدْ كانَتْ بَيْتَ مَصّاصي دِماءٍ .



اَلْفَصْلُ آلرّابِعُ

حينَما اسْتَيْقَظَ جُوناثان وَجَدَ نَفْسَهُ فَوْقَ سَريرِهِ في حُجْرَتِهِ ، فَهَلْ كانَ آلأَمْرُ مُجَرَّدَ حُلْمٍ ؟ وَإِذا كانَ آلأَمْرُ كَذٰلِكَ ، فَلِماذا إِذًا يَرى مَلابِسَهُ غَيْرَ مُرَتَّبةٍ طِبْقًا لِلنِّظامِ آلـمَأْلوفِ ؟ وَلِماذا يَرى ساعَتَهُ في غَيْرِ مَكانِها آلـمَعْهودِ ؟!

اِرْتَدى جوناثان ملابِسَهُ وَنَزَلَ إِلى آلباب آلـمُؤَدّي إِلى آلجُزْءِ آلآخَرِ مِنَ آلقَلْعةِ فَوَجَدَهُ مُوصَدًا ، لا بِطَريقةٍ عادِيَّةٍ ، وَإِنَّما قَدْ أُوصِدَ في غَضَبٍ وَعُنْفٍ حَتّى إِنَّ بَعْضَ قِطَعٍ مِنَ آلجِدارِ قَدْ تَساقَطَتْ . إِذًا ، فَإِنَّهُ لَـمْ يَكُنْ حُلْـمًا .

وَفي آلـمَساءِ لَـمْ يُشِرِ آلكونْت بِأَيِّ كَلِمةٍ إِلى اللَّيْلةِ آلـماضِيةِ ، وَلٰكِنَّهُ أَخْرَجَ وَرَقًا لِلْكِتابةِ ، وَطَلَبَ مِنْ جُوناثان أَنْ يَكْتُبَ ثَلاثَ رَسائِلَ إِلى مِينا ؛ يَقولُ في أَوَّلِها إِنَّ عَمَلَهُ كادَ يَنْتَهي ، وَإِنَّهُ سَوْفَ يَعودُ في خِلالِ أَيّامٍ قَليلَةٍ ؛ وَيَقُولُ في آلثّانِيةِ إِنَّهُ سَيَعودُ في صَباحِ آليَوْمِ التّالي ؛ وَيَقولُ في آلثّالِثةِ إِنّهُ غادَرَ آلقَلْعةَ وَوَصَلَ إِلى بِيسْتْرِيتْز .

قالَ آلكونْت : « إِنَّ آلبَريدَ بَطيءٌ ، وَلا أُريدُ لِأَصْدِقائِكَ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّ شَيْئًا قَدْ حَدَثَ لَكَ ، وَسَوْفَ أَبْعَثُ بِهٰذِهِ آلرَّسائِلِ في آلوَقْتِ آلـمُناسِبِ ، وَبِذٰلِكَ يَعْرِفونَ مَتى يَتَوَقَّعونَ مِيعادَ وُصولِكَ . »

قالَ جوناثان في نَفْسِهِ : « هَلْ أَمْلِكُ إِلّا الطّاعَةَ ؟ إِنَّني تَحْتَ رَحْمَتِهِ تمامًا . »

وَبَدَأَ آليَوْمُ آلتّالي بِدايةً طَيِّبةً ، فَقَدِ آسْتَيْقَظَ عَلى ضَجيجِ أَصْواتٍ .. أَصْواتِ رِجالٍ عادِيِّينَ ، فَجَرَى إِلى نافِذةِ حُجْرةِ آلـمائِدَةِ وَأَطَلَّ مِنْها ، فَشاهَدَ بَعْضَ آلغَجَرِ في رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ ساحةِ آلدّارِ وَهُمْ يُنْزِلونَ مِنْ عَرَبةِ نَقْلٍ صَناديقَ خَشَبِيَّةً طَويلةً . وَكانَ وُقوعُ بَصَرِهِ عَلى أُناسٍ عادِيِّينَ ـــ حَتّى وَلَوْ كانوا مِنْ أُولٰئِكَ آلغَجَرِ التِّرانْسيلْفانِيِّينَ آلجُفاةِ ـــ مِمّا يَبْعَثُ في آلنَّفْسِ آلأَمَلَ . فَهاهُنا ـــ في ساحَةِ آلدّارِ ـــ رِجالٌ طُلَقاءُ رُبَّما يَسْتَطيعونَ أَنْ يَحْمِلوا

رسالةً مِنْهُ إلى ٱلعالَمِ ٱلخارِجيِّ . وَجَرى إلى غُرْفَتِهِ لِيُحْضِرَ أَوْراقًا مِنْ حَقيبَتِهِ ، وَلٰكِنْ أَيْنَ حَقيبَتُه بِما فيها مِنْ بِطاقاتٍ وَنُقودٍ ؟ أَيْنَ حُلَّتُهُ الَّتي كانَ يَرْتَديها وَقْتَ السَّفَرِ ؟ أَيْنَ مِعْطَفُهُ ؟ كُلُّ ذٰلِكَ قَدِ ٱخْتَفى . تُرى أَيُّ شَرٍّ جَديدٍ كانَ دراكولا يُدَبِّرُهُ لَهُ ؟

وَعِنْدَما عادَ إلى النّافِذَةِ كانَ ٱلغَجَرُ قَدْ رَحَلوا ، وَلٰكِنَّهُ ظَلَّ طَوالَ ٱليَوْمِ يَسْمَعُ أَصْواتَ حَفْرٍ في ٱلقَلْعَةِ . وَتَأَكَّدَ لَهُ أَنَّ هُناكَ شَيْئًا يَحْدُثُ ، فَما هُوَ ؟ وَلِكَيْ يَهْتَدِيَ إلى هٰذا ٱلشَّيْءِ لَمْ يَكُنْ أَمامَهُ إلّا أَنْ يُراقِبَ ٱلكونْت . وفي ٱلمَساءِ جَلَسَ بِجِوارِ نافِذَةِ غُرْفَةِ نَوْمِهِ في ٱنْتِظارِ سَماعِ صَوْتِ أَصابِعِ ٱليَدَيْنِ وَأَصابِعِ ٱلقَدَمَيْنِ وَهِيَ تَتَشَبَّثُ بِٱلجِدارِ .

وَما كادَتِ الشَّمْسُ تَغيبُ حَتّى سَمِعَ هٰذا الصَّوْتَ ، وَكانَ دراكولا قَدْ خَرَجَ مِنَ النّافِذَةِ ، وَبَدَأَ يَتَحَرَّكُ إلى أَسْفَلِ ٱلجِدارِ كَما فَعَلَ في اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ ، مَعَ فارِقٍ واحِدٍ ، فَقَدْ كانَ في هٰذِهِ ٱلمَرَّةِ يَلْبَسُ مَلابِسَ جوناثان .

وَبَدا كُلُّ شَيْءٍ واضِحًا أَمامَ جوناثان ، فَٱلكونْت يَنْوي أَنْ يَدَعَ النّاسَ يَرَوْنَهُ في بيسْتريتْز فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ جوناثان ، وَيَقومَ بِإِرْسالِ الرَّسائِلِ مِنْها ، وَمِنْ ثَمَّ يَعْتَقِدُ الَّذينَ يَتَلَقَّوْنَها أَنَّ جوناثان في طَريقِهِ إلى بِلادِهِ . وَكانَ لابُدَّ لِجوناثان أَنْ يَهْرُبَ ، وَلابُدَّ أَنْ يَحْصُلَ عَلى مِفْتاحِ ٱلبابِ ، وَلِكَيْ يَفْعَلَ ذٰلِكَ فَلابُدَّ أَنْ يَجِدَ وَسيلةً لِدُخولِ حُجْرَةِ ٱلكونْت .

وَكانَتْ هٰذِهِ ٱلحُجْرةُ تَقَعُ تَحْتَ حُجْرَتِهِ تَمامًا ، وَهُوَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَدَلّى بِحَبْلٍ إِلَيْها ، وَلٰكِنْ أَيْنَ ٱلحَبْلُ ؟ لَمْ يَكُنِ ٱلكونْت لِيَتْرُكَ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلأَشْياءِ في مُتَناوَلِ زائِريهِ ، فَأَخَذَ يُجيلُ النَّظَرَ فيما حَوْلَه . وَكانَتِ ٱلحُجْرَةُ ذاتَ سَتائِرَ طَويلَةٍ ، فَفَكَّرَ أَنَّهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يَنْزِعَ ٱلقَضيبَ النُّحاسِيَّ ٱلمَتينَ الَّذي تَتَدَلّى مِنْهُ السَّتائِرُ ، ثُمَّ يُثَبِّتُ طَرَفَيْهِ في ٱلجِدارِ عَلى جانِبَيِ النّافِذةِ ، وَمِنْ ثَمَّ تُصْبِحُ السِّتارةُ مُدَلّاةً حَتّى نافِذَةِ ٱلكونْت . وَيَسْتَطيعُ ـــ بَعْدَ أَنْ يَتَسَلَّقَ النّافِذَةَ ـــ أَنْ يَتَشَبَّثَ بِأَطْرافِ أَصابِعِ رِجْلَيْهِ فيما بَيْنَ أَحْجارِ ٱلجدارِ مِنْ فَراغاتٍ واسِعَةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ يَهْبِطُ إلى حُجْرةِ ٱلكونْت . وَقَدْ يَكونُ في هٰذِهِ ٱلمُغامَرةِ شَيْءٌ مِنَ ٱلخَطَرِ ، وَلٰكِنَّهُ أَمْرٌ لابُدَّ مِنْهُ .

لَـمْ يَكُنْ لَدَيْهِ ما يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ في هٰذِهِ اللَّيْلةِ ، فَلِلَّيْلِ مَخاطِرُهُ في هٰذِهِ ٱلقَلْعةِ . وَفَوْقَ ذٰلِكَ ، فَمِنَ ٱلـمُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ ٱلكونْتُ قَدْ أَخذَ ٱلـمِفْتاحَ مَعَهُ ، وَلِذٰلِكَ قالَ في نَفْسِهِ : « لابُدَّ أَنْ أَنْتَظِرَ حَتَّى ٱلغَدِ . فَٱلكونْت دراكولا لا يَظْهَرُ كَثيرًا في الصَّباحِ ، وَيَبْدو أَنَّهُ يَنامُ هٰذِهِ ٱلفَتْرَةِ ، وَلِذٰلِكَ فَالصَّباحُ هُوَ ٱلوَقْتُ ٱلـمُناسِبُ . »

عِنْدَما جَلَسَ جوناثان عَلى حافَةِ النّافِذَةِ مُمْسِكًا بالسِّتارةِ كانَ يَتَمَنَّى لو أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في هٰذا ٱلـمَكانِ (وَلَـمْ تَكُنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلـمَرَّةَ ٱلأُولَى الَّتي تَمَنَّى فِيها هٰذِهِ ٱلأُمْنِيّةَ مُنْذُ وَفَدَ إلى قَلْعةِ دراكولا) وَلٰكِنَّ ٱلأُمورَ سارَتْ كَما يَشْتَهِي . وَلَـمْ يَمْضِ إلّا قَليلٌ حَتّى كانَ قَدِ ٱسْتَقَرَّ واقِفًا في حُجْرةِ ٱلكونْت .

وَتَساءَلَ جوناثان في نَفْسِهِ : « أَهٰذِهِ حُجْرَةُ ٱلكونْت حَقًّا ؟ إنَّها تَبْدو كَأَنْ لَـمْ تُسْتَخْدَمْ مُنْذُ سَنَواتٍ ، فَٱلغُبارُ ٱلكَثيفُ يُغَطِّي كُلَّ ما فيها حَتَّى مَجْموعـةً مِنَ ٱلنُّقودِ ٱلذَّهَبِيّةِ كانَتْ في أَحَدِ ٱلأَرْكانِ . وَمِنَ ٱلـمُؤَكَّدِ أَنَّ ٱلـمَفاتيحَ لَيْسَتْ هُنا . فيَا تُرَى هَلِ النُّزولُ عَلى هٰذِهِ السَّلالِمِ ٱلحَجَرِيّةِ يُؤَدِّي إلى غُرْفةِ ٱلكونْت ٱلحَقيقِيَّةِ ؟ »

وَشَرَعَ يَهْبِطُ السُّلَّمَ ، فَإذا بِهٰذِهِ ٱلرّائِحةِ ٱلتُّرابِيّةِ ٱلغريبَةِ الَّتي كانَتْ قَدِ انْبَعَثَتْ مِنْ أَنْفاسِ دراكولا تَزْكُمُ أَنْفَهُ ، وَكُلَّـما ٱزْدادَ تَقَدُّمًا ، ازْدادَتِ ٱلرّائِحةُ قُوَّةً وَخُبْثًا كَما لَوْ كانَتْ تَنْبَعِثُ مِنْ جُحْرِ ثَعْلَبٍ .

وَأَخيرًا انْتَهى إلى غُرْفةٍ ذاتِ أَرْضِيّةٍ تُرابِيّةٍ ، يَتَسَرَّبُ إلَيْها الضَّوْءُ مِنْ نافِذةٍ صَغيرةٍ عالِيةٍ . وَهُناكَ في أَقْصَى ٱلغُرْفةِ كانَتْ تُوجَدُ الصَّناديقُ الَّتي أَحْضَرَها ٱلغَجَرُ ، وَالَّتي تَبْلُغُ ٱلخَمْسينَ صُنْدوقًا . وَكانَتْ كُلُّها مَمْلوءَةً بِالتُّرابِ ، وَعَلى مَقْرَبةٍ مِنْها صُنْدوقٌ آخرُ أَقْدَمُ مِنْ بَقِيّةِ ٱلصَّناديقِ .

كانَتْ أَشِعّةُ شَمْسِ الصَّباحِ ، الَّتي بَدَأَتْ تَتَسَرَّبُ عِنْدَئِذٍ مِنَ النّافِذةِ ، تَقَعُ عَلى هٰذا الصُّنْدُوقِ . وَكَأَنَّما كانَتِ الشَّمْسُ تُرْشِدُ جوناثان إلى الصُّنْدوقِ فَاتَّجَهَ إلَيْهِ ، ونَظَرَ في داخِلِهِ . وَكانَتْ نَظْرةٌ واحِدةٌ فِيها ٱلكِفايَةُ ، لِكَيْ يَنْدَفِعَ إلى ٱلوَراءِ وَيُطْلِقَ صَيْحةً مُدَوِّيةً .



كانَ دراكولا يَنامُ مُمَدَّدًا عَلى سَريرٍ مِنْ تُرابٍ ، وَلَـمْ يَكُنْ وَجْهُهُ شاحِبًا باهِتًا كَما كانَ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنّما كانَ أَحْمَرَ داكِنًا ، وَلَـمْ يَكُنْ شَعْرُهُ أَسْوَدَ كَما عَهِدَهُ ، وَإِنَّما كانَ رَمادِيًّا غامِقًا . وَكانَ الدَّمُ يَسيلُ مِنْ جانِبَيْ فَمِهِ مُنْحَدِرًا إِلى عُنُقِهِ وَمِنْ ثَمَّ إِلى مَلابِسِهِ . كانَ جِسْمُهُ كُلُّهُ مُتَوَرِّمًا بِالدِّماءِ الَّتي تَنْبَعِثُ رائِحَتُها ، أَمّا وَجْهُهُ فَقَدْ كانَتْ تَبْدو عَلَيْهِ نَظْرَةُ ٱلحَيوانِ ٱلـمُتَوَحِّشِ الَّذي قَتَلَ فَريسَتَهُ ثُمَّ أَكَلَ مِنْها حَتّى بَشِمَ وَلَـمْ يَعُدْ يَسْتَطيعُ ٱلـمَزيدَ .

كانَ عَلى جوناثان أَنْ يُرْغِمَ نَفْسَهُ إِرْغامًا عَلى أَنْ يَلْـمِسَ هٰذِهِ ٱلحَقيبَةَ الدَّمَوِيَّةَ الَّتي هِيَ جِسْمُ دراكولا . وَإِذْ فَعَلَ ذٰلِكَ ، لَـمْ يَكُنْ في وُسْعِهِ أَنْ يُغادِرَ ٱلـمَكانَ إِلّا بَعْدَ أَنْ يُفَتِّشَ في جُيوبِهِ بَحْثًا عَنِ ٱلـمِفْتاحِ ، وَلٰكِنَّ جُيوبَهُ كانَتْ خالِيَةً . لَقَدْ كان دراكولا مِنَ الذَّكاءِ بَحَيْثُ لا يَدَعُ نَفْسَهُ تَقَعُ فِي مثلِ هٰذِهِ ٱلـمِصْيَدَةِ .

لَقَدْ أَرادَ جوناثان ــ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِهِ ــ أَنْ يَرْتَكِبَ جَريمَةَ قَتْلٍ لِكَيْ يَقْضِيَ عَلى هٰذا الشَّيْءِ ٱلبَغيضِ الَّذي يَرْقُدُ فِي صُنْدوقِهِ . وَنَظَرَ حَوْلَهُ فَرَأى حَجَرًا ثَقيلًا كانَ قَدْ سَقَطَ مِنَ ٱلجِدارِ ، فَأَخَذَهُ وَرَفَعَهُ إِلى مافَوْقَ رَأْسِهِ ، وَلٰكِنَّهُ تراجَعَ فَتَرَكَهُ يَسْقُطُ عَلى ٱلأَرْضِ . لَقَدْ رَأى أَنَّهُ لَيْسَتْ هُناكَ جَدْوَى مِنْ مُحاوَلَةِ قَتْلِ شَيْءٍ لا يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَلَ . لَقَدْ كانَ واثِقًا أَنَّ مَصّاصِي ٱلدِّماءِ لا يَموتُونَ كَما يَموتُ النّاسُ ٱلعادِيُّونَ .

عادَ جوناثان إِلى حُجْرَتِهِ ، وَٱرْتَمى فَوْقَ سَريرِهِ في حالَةٍ مِنَ ٱلْيَأْسِ ٱلـمَريرِ . ها هُوَذا ٱلآنَ فِي مَوْقِفٍ غَريبٍ . لَيْسَ مَوْقِفَ سَجينِ مَصّاصِ الدِّماءِ ــ حَيْثُ لا حَوْلَ لَهُ وَلا طَوْلَ ــ فَحَسْبُ ، وَلٰكِنْ هُناكَ ما هُوَ أَسْوَأُ مِنْ ذٰلِكَ . لَقَدْ كانَ يُقَدِّمُ مُساعدةً جَمَّةً ، لِـمَصّاصِ الدِّماءِ لِكَيْ يَجِدَ دَمًا جَديدًا في بَلَدٍ آخَرَ .

وَفِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ ظَهَرَ ٱلكونْت فِي ٱلوَقْتِ الَّذي تَعَوَّدَ أَنْ يَظْهَرَ فِيهِ . وَلَـمْ يَكُنْ أَحْمَرَ اللَّوْنِ أَوْ مُتَوَرِّمَ ٱلجِسْمِ كَما كانَ يَبْدُو فِي أَوَّلِ النَّهارِ . قالَ ٱلكونْتُ :

« اللَّيْلَةَ ياصَديقِي لابُدَّ أَنْ يُوَدِّعَ كُلٌّ مِنّا صاحِبَهُ ، فَسَوْفَ تَعودُ غَدًا إِلى بَلَدِكَ ، وَأَنا أَيْضًا سَأَقومُ بِرِحْلَةٍ . وَفِي الصَّباحِ سَوْفَ تَأْخُذُكَ عَرَبَتِي إِلى طَريقِ بِيسْتْرِيتْز حَيْثُ تَصِلُ إِلَيْها

في مَساءِ ٱلغَدِ . وَآمُلُ أَنْ أَراكَ مَرَّةً ثانِيةً في قَلْعةِ دراكولا . »

فَسَأَلَ جوناثان : « لِماذا لا أَذْهَبُ اللَّيْلةَ ؟ »

فَأَجاب ٱلكونْت : « لِأَنَّ عَرَبَتي مَشْغولةٌ اللَّيْلَةَ ياسَيِّدي ٱلعَزيزَ . »

قالَ جوناثان : « وَلٰكِنَّني أَسْتَطيعُ السَّيْرَ عَلى قَدَمَيَّ . إنَّني أَرْغَبُ في ٱلرَّحيلِ ٱلآنَ . »

قالَ ٱلكونْت : « وَحقائِبُكَ ؟ »

قالَ جوناثان : « لا يُهِمُّني أَمْرُ حَقائِبي ، وَأَسْتَطيعُ أَنْ أُرْسِلَ فِيما بَعْدُ مَنْ يَأْخُذُها . »

فَٱبْتَسَمَ ٱلكونْت قائِلًا : « تَعالَ مَعِي . إنَّكَ لَنْ تَبْقَى في مَنْزِلي ساعةً أَكْثَرَ مِمّا تُريدُ ، وَلَوْ أَنَّني حَزينٌ لِرَحيلِكَ وَحَزينٌ لِرَغْبَتِكَ في التَّعْجيلِ بِالرَّحيلِ . »

وَمَضَى ٱلكونْت وَجوناثانُ يَتْبَعُهُ إلى أَسْفَلِ السُّلَّمِ حَيْثُ ٱلبابُ ٱلكَبيرُ . قالَ لِجوناثان : « أَصْغِ . »

وَإذا بِاصْواتِ ذِئابٍ كَثيرَةٍ تَنْبَعِثُ مِنْ مَكانٍ قَريبٍ مِنْهُما . وَكَأَنَّما انْبَعَثَتْ هٰذِهِ ٱلأَصْواتُ بِمُجَرَّدِ أَنْ رَفَعَ دراكولا يَدَهُ ، ثُمَّ شَرَعَ يَفْتَحُ ٱلبابَ الَّذي لَمْ يَكُنْ مُوصدًا بِٱلقُفْلِ . وَلَمْ يَكَدْ يَنْفَتِحُ قَليلًا حَتّى عَلَتْ أَصْواتُ الذِّئابِ . وَٱسْتَطاعَ جوناثان أَنْ يَراها وَهِيَ تَثِبُ هُنا وَهُناكَ وَأَفْواهُها ٱلمُتَعَطِّشةُ ٱلحَمْراءُ مَفْغورَةٌ عَلى آخِرِها ، وَٱسْتَمَرَّ ٱلبابُ يَنْفَتِحُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَأَدْرَكَ جوناثانُ أَنَّه لا يَقِفُ فاصِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلذِّئابِ الشَّرِسةِ ٱلجائِعةِ إلّا ٱلكونْت . وَبَدَأَتِ ٱلهَواجِسُ في نَفْسِهِ : أَهٰذا هُوَ الَّذي كانَ ٱلكونْتُ يُدَبِّرُهُ ؟ أَنْ يُقَدِّمَهُ طَعامًا سائِغًا لِهٰذِهِ ٱلحَيَواناتِ الَّتي كانَتْ تَذْهَبُ وَتَجيءُ كَأَنَّها خَدَمٌ ، وَالَّتي يُسَمِّيها ٱلكونْت « أَوْلادَهُ » ؟

وَأَخيرًا صاحَ جوناثان : « أَغْلِقِ ٱلبابَ . سَأَنْتَظِرُ حَتّى الصَّباحِ . »

نَطَقَ بِٱلعِبارَةِ وَهُوَ يُديرُ رَأْسَهُ لِكَيْلا يَرَى دراكولا دُموعَهُ الَّتي لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَمْنَعَها .

أمّا دراكولا فَقَدْ صَفَقَ ٱلبابَ بِشِدَّةٍ ، وَأَخَذَتْ أَصْواتُ الذِّئابِ تَخْفُتُ بَعيدًا . وَحانَتِ ٱلْتِفاتَةٌ مِنْ جوناثان إلى ٱلوَراءِ وَهُوَ يَصْعَدُ السُّلَّمَ عائِدًا ، فَإذا ٱلكونْت يَضْحَكُ بِلا صَوْتٍ .

بَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ سَمِعَ جوناثان أَصْواتَ خُيُولٍ ، وَغِناءَ ٱلغَجَرِ في ساحَةِ الدّارِ . وَتَطَلَّعَ مِنْ نافِذَتِهِ فَرَأى عَرَبَةَ النَّقْلِ مُحَمّلَةً بِالصَّناديقِ ٱلخَشَبِيّةِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّ دراكولا كانَ في واحِدٍ مِنها .. في طَرِيقِهِ إلى إنْجِلْترا .

وَٱطْمَأَنَّ جوناثان إلى أَنَّهُ سَوْفَ يَكونُ في صَبيحَةِ ٱليَوْمِ التّالي حُرًّا في مُغادَرَتِهِ ٱلقَلْعة . وَكانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ تَكونَ هُناكَ عَرَبةٌ تُقِلُّهُ ، وَلٰكِنَّهُ يَسْتَطيعُ ٱلـمَشْيَ عَلى أَيَّةِ حالٍ . وَلَمْ يَكُنْ يَخْشَى الذِّئابَ ، لِأَنَّ ٱلوَقْتَ سَيَكونُ نَهارًا ، وَدراكولا غائِبٌ ، وَلٰكِنْ بَقِيَتْ هُناكَ مُشْكِلةٌ . صَحيحٌ أَنَّ دراكولا قَدْ ذَهَبَ ، وَهٰذا جَميلٌ ، وَلٰكِنَّ ٱلوَقْتَ لَيْلٌ ، وَمَخاطِرُ اللَّيْلِ لَمْ تَذْهَبْ مَعَ دراكولا . لَقَدْ كانَ وُجودُ ٱلكونْت في ٱلقَلْعةِ يَجْعَلُهُ بِمَأْمَنٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلـمَخاطِرِ . وَتساءَلَ في نَفْسِهِ : « وَٱلآنَ ، وَقَدْ ذَهَبَ ، فَمَنِ الَّذي يَحْميني مِنْها ؟ » وَقَفَزَتْ إلى خاطِرِهِ ٱلكَلِماتُ الَّتي قالَها دراكولا لِلْفَتَياتِ الثَّلاثِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلاءِ : « وَإلى أَنْ أُصْبِحَ في غَيْرِ حاجةٍ إلَيْهِ . » وَٱلآنَ .. لَقَدْ حانَتْ هٰذِهِ اللَّحْظةُ .

وَأَخَذَ يُصْغِي . في ٱلبِدايةِ كانَ كُلُّ شَيْءٍ هادِئًا كُلَّ ٱلهُدُوءِ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ بَدَأَ يَسْمَعُ ضَحِكاتٍ ، ثُمَّ حَفيفَ أَثْوابٍ حَريرِيَّةٍ في ٱلأَرْكانِ ، فَتَجَمَّدَ الدَّمُ في عُروقِهِ ، وَتَأَكَّدَ أَنَّهُ أَصْبَحَ تَحْتَ رَحْمةِ هٰؤُلاءِ النِّسْوَةِ ، وَفَكَّرَ في نَفْسِهِ : « تُرَى هَلْ يُقَدَّرُ لي أَنْ أَرَى إنْجِلْترا ، وَمِينا ، مَرَّةً أُخْرَى ؟ »

اَلْقِسْمُ ٱلثّانِي
هْوِيتْبِي

اَلْفَصْلُ ٱلخامِسُ

كانَتْ مِينا مُوراي تَجْلِسُ في مَقْعَدِها تَتَطَلَّعُ إلى ٱلبَحْرِ وَقَدْ أَمْسَكَتْ بِرِسالةٍ في يَدِها . وَكانَتْ صَديقَتُها لُوسي وِسْتِنْرا تَجْلِسُ بِجوارِها وَهِيَ تَقْرَأُ كِتابًا . وَلَمْ تَكُنْ تَلْحَظُ نَظْرةَ ٱلقَلَقِ الَّتي فِي عَيْنَي مِينا .

كانَتْ مِينا فَتاةً جَميلةً ، وَلٰكِنَّ لُوسي كانَتْ أَكْثَرَ جَمالًا . كانَتْ ذاتَ جَمالٍ فَتّانٍ ، رَشيقةَ ٱلقَوامِ ، ذاتَ شَعْرٍ طَويلٍ أَشْقَرَ ، وَبَشَرَةٍ صافِيةٍ مَلْساءَ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ غَريبًا أَنْ يَقَعَ كَثيرٌ مِنَ الشُّبّانِ في غَرامِها ، وَلَوْ أَنَّها لَمْ تَكُنْ تَميلُ حَقًّا إلّا إلى ٱثْنَيْنِ فَقَطْ ، أَحَدُهُما طَبيبٌ شابٌّ ماهِرٌ يُدْعَى جاك سِيوارْد ، كانَ يَتَوَلَّى ٱلإشْرافَ عَلى مُسْتَشْفى لِلْمَجانِينِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ ٱلمَنْزِلِ الَّذي تُقيمُ فِيهِ في مَشارِفِ لَنْدن . وَٱلآخَرُ يُدْعَى أَرْثَر هُولْمُود ، وَهُوَ ٱبْنُ أَحَدِ اللُّورداتِ . وَأَخيرًا اسْتَقَرَّ ٱخْتيارُ لُوسي عَلى آرثَر ، وَمَعَ أَنَّها كانَتْ تُحِبُّ جاك سِيوارْد كَثيرًا فَإِنَّها رَأَتْ أَنَّ ما يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ جِدِّيَّةٍ وَوَقارٍ لا يَتَّفِقُ مَعَ ما تَتَّصِفُ هِيَ بِهِ مِنْ حُبٍّ لِلْمَرَحِ وَالدُّعابَةِ . ثُمَّ إنَّها لَمْ تَشَأْ أَنْ تَقْضيَ بَقِيَّةَ حَياتِها فِي دارٍ لِلْمَجانِينِ . وَفَوْقَ هٰذا فَإِنَّ آرثَر هُوَ الَّذي كانَ يَسْتَأْثِرُ بِحُبِّها ٱلحَقيقِيِّ . وَكانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ يَشْعُرَ الدُّكْتور سِيوارد بِٱلحُزْنِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يُحِبُّ آرثَر هُولْمُود ، وَلِذٰلِكَ فَقَدِ ٱسْتَقَرَّ رَأْيُهُ في النِّهايةِ عَلى أَنَّهُ إذا لَمْ يَكُنْ قَدِ ٱسْتَطاعَ أَنْ يَظْفَرَ بِلُوسي زَوْجةً لَهُ فَإِنَّهُ — عَلى ٱلأَقَلِّ — يَسْتَطيعُ أَنْ يَظَلَّ صَديقًا لَها . وَقالَ في نَفْسِهِ : « مَنْ يَدْرِي ، رُبَّما تَحْتاجُ يَوْمًا ما إلى صَديقٍ يُحِبُّكِ . »

وَإذا كانَتْ لُوسي جَميلةً مُسَلِّيَةً تَفيضُ بِٱلحَيَوِيّةِ ، فَإِنَّ مِينا هِيَ الَّتي كانَتْ تُدَبِّرُ كُلَّ شَيْءٍ دائِمًا . فَهِيَ الَّتي تَوَلَّتْ حَجْزَ ٱلغُرَفِ الَّتي سَوْفَ تُقيمانِ فِيها فِي هْوِيتْبِي ، وَٱشْتَرَتِ التَّذاكِرَ لِلرِّحْلةِ ، وَٱتَّخَذَتْ كَذٰلِكَ التَّرْتيباتِ لِأُمِّ لُوسي لِكَيْ تَلْحَقَ بِهِما فيما بَعْدُ ، فَقَدْ كانَتِ السَّيِّدةُ وِسْتِنْرا — والِدةُ لُوسي — مَريضَةً بِٱلقَلْبِ ، وَرَأَتْ مِينا أَنَّ قَضاءَ أَيّامٍ عَلى

شاطِئ ٱلبَحْرِ قَدْ يَعودُ عَلى صِحَّتِها بِٱلخَيْرِ .

كانَتْ هُويِتْبي مَدِينةً مَأْهولَةً ، فَهُناكَ دائِمًا زَوارِقُ لِلصَّيد تَغْدو مِنْها وَتَروحُ . وَطُيورُ ٱلبَحْرِ الصّاخِبةُ تُحَلِّقُ ثُمَّ تَنْقضُّ مِنَ السَّماءِ لِتَلْتَقِطَ ٱلأَسْماكَ الَّتي يُلْقي بِها الصَّيّادونَ . وَفي النّاحِيةِ ٱلجَنوبِيّةِ لِلنَّهْرِ الَّذي يَجْري في وادٍ عَميقٍ مُخْتَرِقًا ٱلـمَدينةَ ، كانَ ٱلـمَرْءُ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَسَلَّقَ إلى ٱلكَنيسَةِ القَديمَةِ حَيْثُ يَلْتَمِسُ الْهُدُوءَ وَالسَّكينةَ ، وَحَيْثُ كانَتْ عِظامُ ٱلكَثيرينَ مِنَ ٱلبَحّارةِ الَّذينَ غَرِقوا في ٱلبَحْرِ مُلْقاةً في ساحَةِ ٱلكَنيسَةِ . وَكانَ أَهْلُ ٱلـمَدينةِ يُحِبُّونَ أَنْ يَجْلِسُوا عَلى ٱلـمَقاعِدِ الَّتي وُضِعَتْ عَلى طُولِ ٱلـمَمارِّ بَيْنَ ٱلقُبُورِ حَيْثُ يَسْتَطيعُ ٱلـمَرْءُ مِنْ ساحةِ ٱلكَنيسةِ أَنْ يُشاهِدَ ٱلـمَدينةَ كُلَّها ، وَأَنْ يَمْتَدَّ بَصَرُهُ إلى مَسافةٍ بَعيدةٍ فَوْقَ ٱلبَحْرِ .

وَكَثِيرًا ما كانَتْ مِينا وَلُوسِي تَجْلِسانِ هُناكَ تَسْتَمِعانِ إلى قُدامى الصَّيّادينَ الَّذينَ ٱعْتَزَلوا ٱلعَمَلَ ، وَكانوا يَقْضُونَ وَقْتَهُمْ بَيْنَ رِوايةِ ٱلقِصَصِ ، وَبَيْنَ ٱلاسْتِمْتاعِ بِالتَّحَدُّثِ إلى ٱلفَتَياتِ ٱلحَسْناواتِ .

قالَتْ مِينا وَهِيَ تُقَلِّبُ بَيْنَ أَصابِعِها ٱلوَرَقَةَ الرَّقيقةَ الَّتي كُتِبَتْ فِيها الرِّسالَةُ : « إنَّها رِسالَةٌ غَريبةٌ .. تَمامًا كَالرِّسالَتَيْنِ ٱلأُخْرَيَيْنِ . كُلُّ ما يَقولُهُ فِيها إنَّهُ بِخَيْرٍ ، وَإنَّهُ في طَرِيقِهِ إلى ٱلوَطَنِ . قَطْعًا كانَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَكْتُبَ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا . إنَّهُ لَـمْ يَخُطَّ كَلِـمةً واحِدةً عَنْ رِحْلَتِهِ ، أَوْ عَنِ السَّيِّدِ الَّذي يُقيمُ مَعَهُ . ٱلواقِعُ أَنَّها لَيْسَتْ رِسالةً وُدِّيَّةً . »

فَضَحِكَتْ لُوسِي وَقالَتْ : « أَعْتَقِدُ أَنَّ الرِّجالَ لَيْسُوا كَالنِّساءِ في كِتابَةِ الرَّسائِلِ ، فَهُمْ يَجِدونَ مَشَقَّةً في تَسْجِيلِ مَشاعِرِهِمْ بِٱلكِتابةِ . »

فَرَدَّتْ مِينا : « لَعَلَّكِ عَلى حَقٍّ ياعَزيزَتي لُوسِي ، وَلٰكِنَّني سَأَكونُ مَسْرُورةً أَنْ أَراه ثانِيةً ، وَأَنْ أَتَأَكَّدَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى ما يُرامُ . لَقَدْ كانَ ٱلـمَفْروضُ أَنْ يَعودَ إلى لَنْدن مُنْذُ أُسْبوعَيْنِ . »

لَـمْ تَكُنْ مِينا سَعيدةً ، وَٱلعُطْلَةُ الَّتي بَدَأَتْ بِدايةً سارَّةً بِالنِّسْبَةِ لَها ٱنْقَلَبَتْ إلى تَعاسةٍ بِسَبَبِ قَلَقِها عَلى جوناثان . لَقَدْ كانَ لَدَيْها إحْساسٌ ـــ لَـمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْهُ بِٱلكَلِماتِ ـــ أَنَّ هُناكَ أُمورًا لا تَسيرُ في مَسارِها الصَّحيحِ ، وَهِيَ تَشْعُرُ أَنَّ ٱلأُمورَ لَنْ تَعودَ إلى نِصابِها إلّا إذا رَجَعَ جوناثان إلى ٱلوَطَنِ . كَذٰلِكَ لَـمْ تَكُنْ لُوسِي عَلى عادَتِها ، وَحِينَما رَأَتْها مِينا كَذٰلِكَ

قالَتْ لِنَفْسِها : « أَتُراها ٱلهُمومُ الَّتي أُعاني مِنْها هِيَ الَّتي جَعَلَتْ لُوسي قَلِقَةً ؟ أَم أَنَّ هُناكَ سَبَبًا آخَرَ ؟ » وَٱلحَقيقةُ أَنَّ لُوسي كانَتْ قَدْ بَدَأَتْ تُمارِسُ أَمْرًا لَمْ تُمارِسْهُ مُنْذُ كانَتْ طِفْلَةً صَغيرةً ؛ بَدَأَتْ تَمْشي في أَثْناءِ نَوْمِها . وَفي أَثْناءِ اللَّيْلَتَيْنِ الماضِيَتَيْنِ كانَتْ مِينا تَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِها فَتَجِدُ صَديقَتَها تَمْشي حَوْلَ ٱلحُجْرَةِ عَلى غَيْرِ هُدًى ، كَأَنَّها تُريدُ شَيْئًا وَلٰكِنَّها لا تَدْري ما هُوَ . أَوْ رُبَّما كانَ الطَّقْسُ هُوَ السَّبَبَ ، فَطَوالَ ٱليَوْمِ كانَ ٱلجَوُّ يَبْدو وَكَأَنَّما يُنْذِرُ بِعاصِفَةٍ شَديدةٍ ، وَكانَ ٱلهَواءُ ساخِنًا مُثْقَلًا بِالسُّحُبِ ، وَالضَّبابُ يَكادُ يَحْجُبُ الشَّمْسَ .

وَقَضَتِ ٱلفَتاتانِ فَتْرَةَ ما بَعْدَ الظُّهْرِ في هُدُوءٍ ، ثُمَّ خَرَجَتا تَتَمَشَّيانِ نَحْوَ ساحَةِ ٱلكَنيسةِ ثانِيَةً . وَحِينَما ٱجْتازَتا ٱلجِسْرَ الَّذي يَقَعُ في وَسَطِ ٱلمَدينَةِ كانَتا تَرَيانِ زَوارِقَ الصَّيْدِ وَهِيَ آتِيَةٌ . وَمَع أَنَّ الرِّيحَ لَمْ تَكُنْ شَديدةً ، وَٱلبَحْرَ لَمْ يَكُنْ هائِجًا فَإِنَّ الصَّيّادِينَ كانُوا يَتَوَقَّعونَ طَقْسًا سَيِّئًا ، وَلَمْ يَشاءُوا أَنْ يُبْحِرُوا خَشْيَةَ أَنْ تَدْهَمَهُمُ ٱلعاصِفَةُ .

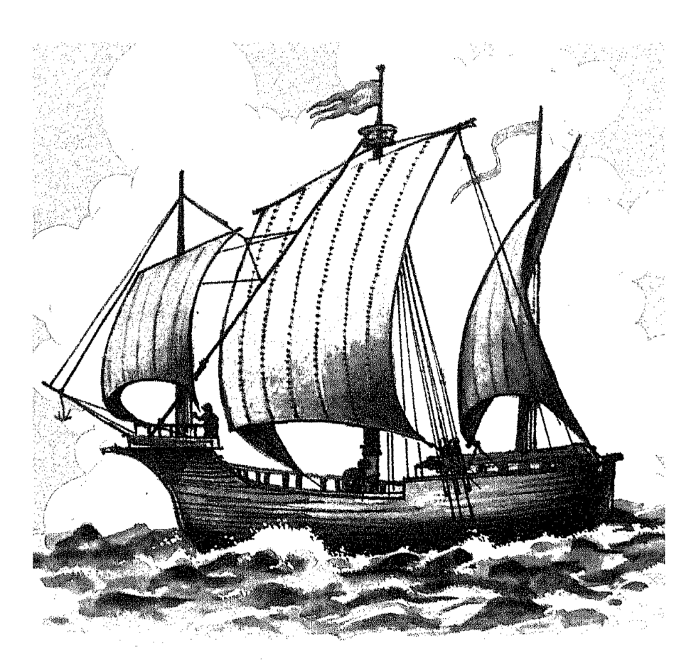
عِنْدَما وَصَلَتِ ٱلفتاتانِ إِلى ٱلكَنيسةِ وَجَدَتا أَنَّ أَحَدَ أَصْدِقائِهِما الصَّيّادِينَ ٱلمُسِنِّينَ يَجْلِسُ عَلَى مَقْعَدِهِما ٱلمُفَضَّلِ يَتَطَلَّعُ إِلى ٱلبَحْرِ . كانَ هٰذا الصَّيّادُ هُوَ السَّيِّدَ سْوِيلْز ، ٱلشَّيْخَ الَّذي كانَ يَزْعَمُ أَنَّ عُمْرَهُ قارَبَ ٱلمِئَةَ عامٍ ، وَلَوْ أَنَّهُ كانَ مِنَ الصَّعْبِ تَصْديقُ مِثْلِ هٰذا الزَّعْمِ . وَسَأَلَتْهُ لُوسي وَهِيَ تَجْلِسُ بِجانِبِهِ : « أَتَظُنُّ أَنَّ عاصِفَةً سَتَهُبُّ ياسَيِّدُ سْوِيلْز ؟ »

فَأَجابَ ٱلبَحّارُ الشَّيْخُ : « نَعَمْ ياعَزيزَتي ، وَهُوَ أَمْرٌ غَريبٌ ، لِأَنَّ هٰذا ٱلوَقْتَ مِنَ السَّنَةِ لَيْسَ وَقْتَ عَواصِفَ ، أَنا ما رَأَيْتُ طَقْسًا كَهٰذا قَطُّ . وَمَعَ هٰذا فَإِنَّ الطَّقْسَ لَيْسَ هُوَ الشَّيْءَ ٱلغَريبَ ٱلوَحيدَ في هٰذِهِ ٱلأَيّامِ . »

قالَ هٰذا وَهُوَ يُشيرُ إِلى ٱلبَحْرِ ، ثُمَّ أَضافَ : « أُنْظُرا إِلى السَّفينَةِ . »

وَتَطَلَّعَتِ ٱلفَتاتانِ فَشاهَدَتا سَفينةً شِراعِيَّةً لَيْسَتْ كَبيرَةَ ٱلحَجْمِ عَلى بُعْدِ حَوالَى كِيلُو مِتْرٍ مِنَ الشّاطِئِ .

وَقالَتْ لُوسي : « عَفْوًا ياسَيِّدُ سْوِيلْز إِنَّنا كَما تَرَى ــ لَسْنا مِنَ ٱلبَحّارَةِ ، وَالسَّفينَةُ تَبْدو لَنا عادِيَّةً جِدًّا ، تُرَى هَلِ ٱلعَلَمُ الَّذي تَرْفَعُهُ هُوَ ٱلعَلَمُ الرُّوسِيُّ ؟ »



فَأَجابَ ٱلبَحّارُ ٱلشَّيْخُ : « نَعَمْ ، إِنَّها سَفينَةٌ روسِيَّةٌ .. هٰذا صَحيحٌ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ هٰذا هُوَ ٱلـمُهِمّ ؛ إِنّها سَفينَةٌ عادِيَّةٌ ما في ذٰلِكَ شَكٌّ ، وَلٰكِنَّ ٱلأَمْرَ الشّاذَّ هُوَ أَنَّها مُسَيَّرَةٌ بِطَريقَةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ . فَهُناكَ رَجُلٌ عِنْدَ عَجَلَةِ ٱلقِيادَةِ ، وَلٰكِنَّ السَّفينةَ تَتَحَرَّكُ عَلى غَيْرِ هُدًى ، كَأَنَّما الرَّجُلُ لا يَدْري أَيْنَ يُوَجِّهُها . أُنْظُرا ! إِنَّها تَمْضي ثانِيَةً . إِنَّها تَتَحَرَّكُ حَيْثُما تَدْفَعُها ٱلرِّيحُ . إِنَّ الرَّجُلَ الَّذي يَقِفُ عَلى عَجَلَةِ ٱلقِيادَةِ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَحْزِمَ أَمْرَهُ ، أَيَأْتي إِلى هُوَيْتْبي أَمْ يَسْتَديرُ إِلى ٱلبَحْرِ وَيُواجِهُ ٱلعاصِفَةَ . وَلٰكِنْ إِذا لَمْ يَحْزِمْ أَمْرَهُ عَلى عَجَلٍ فَسَوْفَ تَرْتَطِمُ السَّفينةُ بِالصُّخورِ . »

اَلْفَصْلُ ٱلسّادِسُ

عِنْدَما ثارَتِ ٱلعاصِفةُ كانَتْ هَوْجاءَ عَلى غَيْرِ ٱلعادَةِ ؛ فَقَبْلَ ٱلسّاعةِ الثّامِنةِ مَساءً بِقَليلٍ هَبَّتِ الرِّيحُ . وَما إنْ حَلَّتِ السّاعةُ ٱلعاشِرةُ حَتّى أَخَذَتِ ٱلأَشْجارُ تَتمايَلُ بِعُنْفٍ ، وَسُطوحُ ٱلـمَنازِلِ تَتَطايَرُ ، وَٱلأَمْواجُ ٱلعاتِيةُ تَتَكَسَّرُ فَوْقَ السُّورِ ٱلبَحْرِيِّ الَّذي يَحْمِي مَرْسَى زَوارِقِ الصَّيْدِ . لَقَدْ كانَتْ عاصِفةً مِنْ ذٰلِكَ النَّوْعِ الَّذي لا يَتَكَرَّرُ حُدوثُهُ إلّا مَرَّةً واحِدةً كُلَّ خَمْسينَ عامًا ، وَالَّذي يَرْوي عَنْهُ ٱلأَجْدادُ لِلأَحْفادِ .

وَمِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ أَنَّ مُعْظَمَ الزَّوارِقِ كانَتْ قَدْ عادَتْ إلى هْويتْبِي بَعْدَ الظُّهْرِ ، أَمّا ٱلقِلَّةُ الَّتي تَأَخَّرَتْ في ٱلعَوْدةِ فَقَدْ لَقِيَتْ بَعْضَ ٱلـمَشَقَّةِ في الدُّخولِ . وَعِنْدما وَصَلَ آخِرُ زَوْرَقٍ مِنْ زَوارِقِ هْويتْبِي كانَتِ ٱلجَماهيرُ الَّتي تَجَمَّعَتْ لِلْـمُراقَبَةِ قَدْ عادَتْ إلى بُيوتِها ، فِيما عَدا ٱلقَليلينَ الَّذينَ ٱسْتَثارَهُمُ ٱلـمَوْقِفُ فَفَضَّلوا ٱلبَقاءَ عَلى النَّوْمِ ، لَعَلَّ بَعْضَ ٱلقَوارِبِ تَأْتي بَعْدَ ذٰلِكَ . وَلٰكِنَّ الَّذي أَتى كانَ شَيْئًا آخَرَ .

لَـمْ يَرَهُ أَحَدٌ في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ ، إذْ لَـمْ يَكُنْ يَنْبَعِثُ مِنْهُ أَيُّ ضَوْءٍ ، وَمِنْ ثَمَّ كانَ ظُهورُهُ مفاجَأَةً مُفْزِعةً تَمامًا . فَبَيْنَما لَـمْ يَكُنْ هُناكَ في دَقيقةٍ مِنَ الدَّقائِقِ شَيْءٌ عَلى ٱلإِطْلاقِ ، فَإذا هُناكَ في الدَّقيقةِ التّالِيةِ سَفينةٌ رَفَعَتْ جَميعَ أَشْرِعَتِها ، وَالرِّيحُ تَدْفَعُها مِنَ ٱلخَلْفِ . وَعِنْدَما مَرَّتْ مِنْ خِلالِ ٱلفُتْحةِ الَّتي في السُّورِ ٱلبَحْرِيِّ تَبَيَّنَ أَنَّها السَّفينةُ الرُّوسِيَّةُ الَّتي جَذَبَتِ ٱهْتِمامَ السَّيِّدِ سْويلْز .

لِـماذا قَضَى الرُّبّانُ هٰذا ٱلوَقْتَ الطَّويلَ لِكَيْ يَتَّخِذَ قَرارَهُ بِالرُّسُوِّ فِي هْويتْبِي ؟ وَأَيُّ نَوْعٍ مِنَ الرَّبابِنةِ هٰذا الذي يُبْحِرُ بِغَيْرِ ضَوْءٍ ، وَفِي لَيْلةٍ عاصِفةٍ مِثْلِ هٰذِهِ اللَّيْلةِ ؟

وَعِنْدَما أَصْبَحَتِ السَّفينةُ أَقْرَبَ شاهَدَ ٱلـمُحْتَشِدونَ عَلى الشّاطِئِ ، رَجُلًا بِجِوارِ عَجَلةِ ٱلقِيادةِ فَتَصايَحُوا وَأَخَذوا يُلَوِّحونَ بِالتَّحيّةِ ، وَلٰكِنْ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ جَوابٌ . وَحِينَما صارَتْ أَكْثَرَ قُرْبًا بَدَأَ واحِدٌ مِنْهُم يَتَوَقَّفُ عَنِ الصِّياحِ ، ثُمَّ تلاهُ آخَرُ .. وَخَيَّمَ سُكُونٌ . كانَ الرَّجُلُ مُقَيَّدًا إلى ٱلعَجَلةِ ، وَكانَ يُحَدِّقُ نَحْوَهُمْ بِعَيْنَيْنِ لا تُبْصِرانِ . وَتَكَشَّفَ ٱلأَمْرُ ، فَالسَّفينةُ قَدْ شَقَّتْ أَعْتَى ٱلأَمْواجِ وَدَخَلَتِ ٱلـمَرْفَأَ بِقِيادةِ رَجُلٍ مَيِّتٍ .

وَتَحَرَّكَتِ السَّفينةُ نَحْوَ ٱلجِسْرِ ، وَأَخَذَ الرُّكّابُ ٱلقليلُونَ الَّذين كانُوا يَقِفون فَوْقَ ظَهْرِها يَجْرونَ طَلَبًا لِلنَّجاةِ . وَلَوْ أَنَّ السَّفينَةَ ٱستَمَرَّتْ في سَيْرِها لَحَطَّمَتِ ٱلجِسْرَ وَحَمَلَتْهُ بَعيدًا . وَلٰكِنَّها لَمْ تَسْتَمِرَّ ، فَقَدْ حَدَثَ في آخرِ لَحْظَةٍ أَنْ تَغَيَّرَ مَجْرَى الرِّيحِ فَدَفَعَتِ السَّفينَةَ نَحْوَ الشّاطِئِ الرَّمْليِّ ٱلجَنوبِيِّ لِلنَّهْرِ . وَكانَتِ الدَّفْعَةُ قَوِيَّةً حَتّى إنَّ ٱلأَشْرِعَةَ وَٱلحِبالَ وَقِطَعَ ٱلخَشَبِ هَوَتْ بشِدّةٍ مُحْدِثةً دَوِيًّا عالِيًا . وَحِينَئِذٍ ، وَبَيْنَما كانَ ٱلحَشْدُ الَّذي عَلى الشّاطِئِ ٱلمُقابِلِ يُراقِبُ ما يَحْدُثُ ، إذا بِكَلْبٍ ضَخْمٍ أَسْوَدَ يَنْدَفِعُ فَجْأَةً مِنْ وَسَطِ السّفينَةِ ، كَما لَوْ كانَتْ قُوَّةُ الصَّدْمةِ الَّتي جَعَلَتِ السَّفينة تَرْتَطِمُ بِٱلأَرْضِ هِيَ الَّتي دَفَعَتْهُ . وَقَفَزَ ٱلكَلْبُ عالِيًا فَوْقَ الرِّجالِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَعْدُو مُتَّجِهًا إلى الشَّوارِعِ الضَّيِّقَةِ الَّتي تَعْلُوها ٱلكَنيسةُ .

وَفي الصَّباحِ التّالي كانَتِ ٱلعاصِفةُ قَدْ هَدَأَتْ ، وَبَكَّرَتْ مِينا بِٱلخُروجِ إلى ٱلمَدينةِ حَتّى قَبْلَ أَنْ تَتَناوَلَ ٱلإفْطارَ . وَقَدْ شَجَّعَها عَلى هٰذا ٱلبُكورِ أَنَّ الشَّمْسَ مُشْرِقَةٌ ، وَالسَّماءَ زَرْقاءُ صافِيَةٌ ، ثُمَّ أَخْبارُ هٰذا ٱلوُصُولِ ٱلغَريبِ للسَّفينَةِ الرُّوسِيَّةِ في اللَّيْلةِ ٱلماضِيَةِ . وَلَمْ تَكُنْ لُوسي قَدْ نامَتْ في اللَّيْلِ نَوْمًا هادِئًا ، وَلِذٰلِكَ رَأَتْ مِينا أَنَّهُ خَيْرٌ لَها أَنْ تَتْرُكَها في فِراشِها .

كانَتِ ٱلمدينَةُ كُلُّها تَتَحَدَّثُ عَنِ السَّفينةِ الرُّوسِيَّةِ ، وَسُرْعانَ ما عَرَفَتْ مِينا كُلَّ شَيْءٍ مِنَ السَّيِّدِ سْوِيلز . عَرَفَتْ أَنَّ الطَّبيبَ الَّذي فَحَصَ جُثَّةَ رُبّانِ السَّفينةِ يَرى أَنَّ ٱلوَفاةَ حَدَثَتْ مُنْذُ أَيّامٍ ، وَأَنَّ الرُّبّانَ هُوَ الَّذي قَيَّدَ نَفْسَهُ إلى ٱلعَجَلةِ ، وَأَنَّ ٱلحَبْلَ الَّذي قَيَّدَ نَفْسَهُ بِهِ قَدْ شَقَّ جِلْدَهُ وَتَغَلْغَلَ حَتّى ٱلعَظْمِ . وَيَبْدو أَنَّ السَّفينةَ دِيمِيتِر لَمْ تَتَّخِذْ طَرِيقَها إلى هْوِيتْبي مُصادَفَةً ، فَقَدْ كانَ أَحَدُ تُجّارِ ٱلمَدينةِ يَتَوَقَّعُ وُصولَها ؛ إذْ كانَ قَدْ تَلَقّى تَفْويضًا بِتَسَلُّمِ صَناديقَ خَشَبِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ تَحْمِلُها السَّفينةُ ، عَلى أَنْ يَشْحَنَها بَعْدَ ذٰلِكَ إلى لَنْدَن بِٱلقِطارِ .

أَمّا ٱلكَلْبُ ٱلأَسْوَدُ فَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَكانَ مِنَ ٱلغَريبِ أَنَّ حيَوانًا ضَخْمًا مِثْلَ هٰذا يُمْكِنُ أَنْ يَخْتَفِيَ نِهائِيًّا . وَلٰكِنَّ مَدينةَ هْوِيتْبي كانَتْ أَكْثَرَ أَمْنًا بِدُونِهِ . وَقَدْ عَثَرَ ٱلأَهالي عَلى كَلْبٍ قَوِيٍّ ضَخْمٍ مِنْ كِلابِ ٱلمَدينةِ مَيِّتًا وَقَدْ مُزِّقَ نِصْفُ عُنُقِهِ تَمْزيقًا . وَسادَ ٱلاعْتِقادُ أَنَّ كَلْبَ السَّفينةِ دِيمِيتِر هُوَ الَّذي فَعَلَ بِهِ هٰذا .

عادَتْ مِينا إلى آلـمَنْزِلِ ، وَأَنْبَأَتْ لُوسي فِي أَثْناءِ تَناوُلِ ٱلإِفْطارِ ما عَرَفَتْهُ مِنْ أَخْبارٍ . وَمَعَ أَنَّ لُوسِي أَبْدَتِ آهْتِمامًا بِما سَمِعَتْ فَإِنَّ مِينا لَـمْ يُرُقْها حالُها ، فَقَدْ كانَتْ تَبْدُو في وَجْهِها نَظْرَةٌ ناعِسَةٌ حالِمَةٌ . وَرَأَتْ مِينا أَنَّها في حاجَةٍ إلى آسْتِنْشاقِ الهَواءِ النَّقِيِّ ، فَأَخَذَتْها لِتَقْضِيَ آليَوْمَ مَعَها خارِجَ آلـمَنْزِلِ . وَحِينَما رَجَعَتا في آلـمَساءِ عَرَفَتا مَزِيدًا مِنَ ٱلأَخْبارِ عَنِ السَّفِينَةِ دِيمِيتِر مِمّا نَشَرَتْهُ صُحُفُ آلـمَساءِ . فَقَدْ عَثَروا عَلى السِّجِلِّ الَّذي يُدَوِّنُ فيهِ رُبّانُ السَّفِينَةِ مُلاحَظاتِهِ آليَوْمِيَّةَ عَنِ الرِّحْلَةِ وَآسْتَطاعَ أَحَدُ رَبابِنَةِ هُوِيتْبِي ٱلقُدامى مِمَّنْ يَعْرِفُونَ اللغَةَ الرُّوسِيَّةَ أَنْ يُتَرْجِمَ ما فِيهِ إلى ٱلإِنْجِلِيزِيَّةِ . وَهٰذا ما قَرَأَتْهُ مِينا وَلُوسِي في صَحِيفَةِ هُوِيتْبِي بوسْت آلـمَسائِيَّةِ :

« أَبْحَرَتِ السَّفِينَةُ دِيمِيتِر مِنْ قارَّتِنا الَّتي تَقَعُ عَلى آلبَحْرِ ٱلأَسْوَدِ وَعَلى ظَهْرِها رُبّانٌ وَضابِطانِ وَخَمْسَةٌ مِنَ آلبَحّارَةِ وَطاهٍ . وَفِي آلبِدايَةِ كانَ كُلُّ شَيْءٍ يَسِيرُ سَيْرًا حَسَنًا ، وَلٰكِنْ بَعْدَ آنْقِضاءِ نَحْوَ أُسْبوعٍ لاحَظَ الرُّبّانُ أَنَّ رِجالَهُ يَبْدو عَلَيْهِمُ آلقَلَقُ وَٱلانْزِعاجُ . وَحاوَلَ الضّابِطُ ٱلأَوَّلُ أَنْ يَهْتَدِيَ إلى السَّبَبِ ، فَلَـمّا آسْتَمَعَ إِلَيْهِمُ آعْتَقَدَ أَنَّ ما يَتَحَدَّثونَ بِهِ هُراءٌ ، بَلْ إِنَّهُ قابَلَهُ بِغَضَبٍ . وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ عَلى هٰذا آخْتَفَى أَحَدُ الرِّجالِ ، وَكانَ قَدِ آنْتَهى مِنْ نَوْبَةِ آلـمُراقَبَةِ الَّتي يَقومُ بِها . وَشُوهِدَ يُغادِرُ مَكانَهُ لِيَهْبِطَ مِنْ سَطْحِ السَّفِينَةِ إلى مَخْدَعِهِ . وَلٰكِنَّهُ في آلحَقِيقَةِ لَـمْ يَذْهَبْ إلى سَرِيرِهِ قَطُّ . وَشاعَ بَيْنَ الرِّجالِ جَمِيعًا أَنَّ هُناكَ أَمْرًا غَيْرَ طَبِيعِيٍّ في السَّفِينَةِ . وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ رَوى أَحَدُ الرِّجالِ لِلرُّبّانِ أَنَّهُ بَيْنَما كانَ في نَوْبَتِهِ لِلْـمُراقَبَةِ في اللَّيْلَةِ آلـماضِيَةِ شاهَدَ رَجُلًا غَرِيبًا يَصْعَدُ إلى ظَهْرِ السَّفِينَةِ وَيَمْشِي مُتَّجِهًا إلى آلجُزْءِ آلخَلْفِيِّ مِنْها ، وَهُناكَ آخْتَفَى تَمامًا .

« وَحِينَئِذٍ أَمَرَ الرُّبّانُ بِتَفْتِيشِ السَّفِينَةِ كُلِّها ، وَكانَتْ جَمِيعُ الصَّنادِيقِ الَّتي في ٱلقاعِ مُحْكَمَةَ ٱلإِغْلاقِ بِحَيْثُ لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ ــ إِنْ كانَ مُخْتَبِئًا فيها ــ أَنْ يَخْرُجَ مِنْها عَلى ٱلإِطْلاقِ . وَكانَتِ ٱلأَرْبِطَةُ بَيْنَها مُحْكَمَةً بِحَيْثُ لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَخْتَبِئَ فِيما بَيْنَها . وَلَـمْ يُسْفِرِ آلبَحْثُ عَنْ وُجُودِ أَحَدٍ ، وَلِذٰلِكَ عادَتْ إلى رِجالِ السَّفِينَةِ الطُّمَأْنِينَةُ ، وَلَـمْ يَحْدُثْ ما يُعَكِّرُ صَفْوَهُمْ ، إلى أَنْ واجَهوا جَوًّا عاصِفًا في خَلِيجِ بِسْكاي . هُناكَ فُقِدَ رَجُلٌ

آخَرُ مِنَ ٱلبَحّارةِ ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ فُقِدَ ٱثْنانِ آخَرانِ ، وَكانَ ٱخْتِفاؤُهُمْ جَميعًا يَتِمُّ بِنَفْسِ الطَّريقةِ الَّتي حَدَثَتْ مَعَ ٱلأَوَّلِ . وَكانَتْ نَتيجةُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَرْضَ أَحَدٌ بَعْدَ ذٰلِكَ بِٱلـمُراقَبةِ وَحْدَهُ .

وَعِنْدَما بَلَغوا ٱلقَنالَ ٱلإِنْكِليزيَّ ٱسْتَمر ٱلجَوُّ ٱلعاصِفُ ، وَٱسْتَمر ٱخْتِفاءُ الرِّجالِ حَتّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ ٱلعَدَدُ ٱلكافي لِرَفْعِ أَشْرِعَةِ السَّفينَةِ وَإِنْزالِها . وَفي النِّهايَةِ لَمْ يَكُنْ باقِيًا عَلى ظَهْرِ السَّفينةِ إِلّا الرُّبّانُ ، وَالضّابِطُ ٱلأَوَّلُ .

« وَإِلى هُنا كانَ مِنَ الصَّعْبِ قِراءَةُ ٱلـمُلاحَظاتِ ٱلـمُدَوَّنةِ بِالسِّجِلِّ ، وَلٰكِن يَبْدو أَنَّ الضّابِطَ ٱلأَوَّلَ جُنَّ جُنونُهُ فَراحَ يَفْتَحُ الصَّنادِيقَ الَّتي في قاعِ السَّفينةِ . وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتّى صاحَ صَيْحةً ثُمَّ جَرَى إِلى ظَهْرِ السَّفينةِ وَقَفَزَ إِلى أَعْماقِ ٱلبَحْرِ . وَبَعْدَ هٰذا أَصْبَحَتْ كَلِماتُ السِّجِلِّ مُسْتَعْصِيةً عَلى ٱلقِراءَةِ . »

وَفي ٱليَوْمِ التّالي شُيِّعَتْ جِنازةُ رُبّانِ السَّفينَةِ الَّذي ٱعْتَقَدَ صَيّادُو هْويتْبي أَنَّهُ كانَ بَحّارًا شُجاعًا ، وَأَنَّه أَدَّى واجِبَهُ خَيْرَ ما يَكونُ ٱلأَداءُ . وَقَدْ سارَ في جِنازَتِهِ جَمْعٌ غَفيرٌ مِنَ النّاسِ ، وَسارَتْ مَعَهُمْ مِينا وَلُوسِي ، وَلٰكِنَّ مِينا ــ بَعْدَ ذٰلِكَ ــ تَمَنَّتْ لَوْ أَنَّها لَمْ تَكُنْ صَحِبَتْ مَعَها لُوسِي ، وَذٰلِكَ لِأَنَّهما سَمِعَتا في ٱلجِنازةِ أَخْبارًا سَيِّئةً .

كانَتا تَتَوَقَّعانِ أَنْ تَرَيا صَديقَهُما ٱلـمُسِنَّ السَّيِّدَ سْويلْز . لَمْ يَكُنْ هُناكَ وَجاءَ إِلَيْهِما أَحَدُ رِفاقِهِ الصَّيّادينَ ٱلـمُسِنِّينَ وَأَخْبَرَهُما أَنَّ السَّيِّدَ سْويلْز قَدْ وُجِدَ مَيِّتًا وَهُوَ جالِسٌ عَلى مَقْعَدِهِ ٱلـمُعْتادِ في ساحَةِ ٱلكَنيسةِ ، وَالسَّبَبُ أَزْمةٌ قَلْبِيّةٌ . صَحيحٌ أَنَّ الرَّجُلَ كانَ شَيْخًا كَبيرًا ، وَلٰكِنَّ مِينا كانَتْ تَرى أَنَّهُ في غايَةِ ٱلقُوَّةِ . وَقَدْ قررَ الطَّبيبُ الَّذي فَحَصَهُ أَنَّهُ يَبْدو مِنَ النَّظْرةِ الَّتي كانَتْ في عَيْنَيْهِ أَنَّ شَيْئًا مّا قَدْ أَفْزَعَهُ . وَلٰكِنْ ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ في ساحَةِ ٱلكَنيسةِ ٱلهادِئةِ هٰذِهِ لِكَيْ يُفْزِعَ رَجُلًا مُسِنًّا فَيَقْضيَ عَلَيْهِ ؟!

الفصل السابع

في هٰذِهِ اللَّيْلةِ اسْتَيْقَظَتْ مِينا مِنْ نَوْمِها وَقَدِ انْتابَها شُعورٌ غَريبٌ . كانَ هُناكَ فَراغٌ في الحُجْرةِ ، وَحَتّى قَبْلَ أَنْ تَنْهَضَ مِنْ فِراشِها وَتَنْظُرَ ، كانَتْ تُحِسُّ أَنَّ لُوسي لَيْسَتْ بِالحُجْرةِ . اتَّجَهَتْ إلى البابِ فَوَجَدَتْهُ مُغْلَقًا وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُوصدًا بِالمِزْلاجِ كَما تَرَكَتْهُ . ارْتَدَتْ مِعْطفًا وَحِذاءً ، وَسارَعَتْ بِالنُّزولِ إلى القاعةِ السُّفْلى ، فَإذا بِها تَجِدُ البابَ الأَمامِيَّ لِلْمَنْزِلِ نِصْفَ مَفْتوحٍ ، فَتأَكَّدَتْ أَنَّ لُوسي لابُدَّ قَدْ خَرَجَتْ . وَلَمْ تَكُنْ لَدَى مِينا فِكْرةٌ واضِحةٌ عَنِ المَكانِ الَّذي قَصَدَتْهُ . وَلٰكِنَّها ما كادَتْ تَخْطو خارِجَ المَنْزِلِ حَتّى سَمِعَتِ السّاعةَ تَدُقُّ الواحِدةَ . لَقَدْ كانَتْ ساعةَ الكَنيسةِ مِمّا جَعَلَ فِكْرَها يَنْساقُ إلى هُناكَ . لَقَدْ كانَتا تَذْهَبانِ إلى ساحَتِها كُلَّ يَوْمٍ تَقْريبًا ، فَلَعَلَّ لُوسي قادَتْها قَدَماها إلى هُناكَ وَهِيَ نائِمةٌ .

كانَتِ اللَّيْلةُ حالِكةَ الظَّلامِ ، وَلٰكِنْ كانَ هُناكَ ضَوْءٌ فُجائِيٌّ يَنْبَعِثُ بَيْنَ الحينِ وَالحينِ كُلَّما دَفَعَتِ الرِّيحُ تَجَمُّعاتِ السُّحُبِ المُتَكَسِّرةِ لِتَجْتازَ وَجْهَ القَمَرِ . وَحينَما وَصَلَتْ مِينا إلى طَرَفِ ساحةِ الكَنيسةِ كانَ هُناكَ مِنَ الظَّلامِ أَكْثَرَ مِمّا كانَ مِنَ الضَّوْءِ . وَلٰكِنْ ، في هٰذِهِ اللَّحظةِ ذاتِها انْبَعَثَ ضَوْءُ القَمَرِ السّاطِعُ ، وَتَمَلَّكَتْها الفَرْحَةُ حِينَ رَأَتْ صَديقَتَها مُضطَجِعةً فَوْقَ مَقْعَدِها المُعْتادِ ، المَقْعدِ نَفْسِهِ الَّذي ماتَ فَوْقَهُ السَّيِّدُ سْويلز المِسْكينُ . وَفي نَفْسِ اللحْظةِ تَقْريبًا جاءَتِ السَّحابةُ التّاليةُ لِتُغَطِّيَ القَمَرَ ثانِيةً ، وَلٰكِنَّ مِينا اعْتَراها إحْساسٌ — في خِلالِ اللحْظةِ الَّتي انْبَعَثَ فِيها ضَوْءُ القَمَرِ — أَنَّ لُوسي لَمْ تَكُنْ وَحْدَها ، فَلَقَدْ شاهَدَتْ في ظِلِّ المَقْبَرةِ الكائِنةِ خَلْفَ المَقْعَدِ شَكْلًا مّا ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُحَدِّدَ ما إذا كانَ شَكْلَ إنْسانٍ أَوْ حَيَوانٍ . وَلٰكِنْ هُناكَ شَيْءٌ طَويلٌ يَجْثُمُ فَوْقَ جِسْمِ لُوسي .

وَصاحَتْ مِينا : « لُوسي ! لُوسي ! »

ثُمَّ جَرَتْ نَحْوَها ، وَلٰكِنْ عِنْدَما وَصَلَتْ إلى المَقْعَدِ كانَتْ لُوسي وَحْدَها . كانَتْ لا تَزالُ نِصْفَ مُضْطَجِعةٍ ، وَرَأْسُها فَوْقَ ظَهْرِ المَقْعَدِ ، أَمّا عُنُقُها فَكانَ مَكْشُوفًا . وَتَوَقَّفَتْ

مِينا وَهِيَ تَسْأَلُ نَفْسَها : « تُرَى ، أَلُوسِي الَّتي تَحْلُمُ ، أَمْ إِنَّني أَنا ٱلحالِمةُ ؟ إِنَّ ضَوْءَ ٱلقَمَرِ ــ عادَةً ــ يَجْعَلُ ٱلمَرْءَ يَتَصَوَّرُ أَشْياءَ غَيْرَ مَوْجودةٍ ، وَمَعَ هٰذا فَإِنَّني أُحِسُّ إِحْساسًا أَكيدًا أَنَّهُ كانَ مَعَها شَيْءٌ مّا ، أَوْ شَخْصٌ مّا . »

كانَتْ لُوسِي مُسْتَغْرِقَة في نَوْمٍ عَميقٍ ، وَلٰكِنَّها كانَتْ تَتَنَفَّسُ بِطَريقةٍ غَيْرِ طَبيعِيّةٍ تَنَفُّسًا سَريعًا مُضْطَرِبًا . وَجَلَسَتْ مِينا عَلى ٱلمَقْعَدِ بِجوارِها لَحَظاتٍ وَهِيَ حَيْرى ؛ ماذا تَفْعَلُ بَعْدَ هٰذا ؟ قَدْ يَكونُ مِنَ ٱلخَطَرِ أَنْ تُوقِظَها دَفْعَةً واحِدةً ، وَلٰكِنْ ــ في نَفْسِ ٱلوَقْتِ ــ قَدْ تُصابُ بِٱلبَرْدِ إِذا تُرِكَتْ عَلى حالِها هٰذِهِ فَتْرَةً طَويلةً . خَلَعَتْ مِينا مِعْطَفَها وَطَوَّقَتْها بِهِ ، وَفي أَثْناءِ ذٰلِكَ سَقَطَ الزِّرُّ ٱلعُلْويُّ مِنَ ٱلمِعْطَفِ ، فَأَخَذَتِ ٱلمِشْبَكَ ٱلمُرَصَّعَ الَّذي كانَتْ تَلْبَسُهُ ثُمَّ شَبَكَتْ بِهِ ٱلفُتْحةَ مِنْ ناحيةِ عُنُقِها . وَيَبْدو أَنَّ ٱلمِشْبَكَ ٱنْغَرَزَ في جِلْدِها ، إِذْ إِنَّ لُوسِي صَرَخَتْ صَرْخةَ أَلَمٍ وَوَضَعَتْ يَدَها عَلى عُنُقِها . ثُمَّ خَلَعَتْ مِينا حِذاءَها وَوَضَعَتْهُ في قَدَمَي لُوسِي ، وَساعَدَتْها عَلى ٱلمَشْيِ بِبُطْءٍ . وَشَيْئًا فَشَيْئًا عادَتْ إِلَيْها ٱلحَياةُ مِنْ جَديدٍ ، وَعادَتا إِلى ٱلمَنْزِلِ حَيْثُ كانَتِ الشَّوارِعُ خالِيةً .

وَفي صَبيحةِ ٱليَوْمِ التّالي تَرَكَتْ مِينا صَديقَتَها تَنامُ حَتّى وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ ، وَحِينَما ٱسْتَيْقَظَتْ ، كانَ يَبْدو عَلى وَجْهِها الشُّحوبُ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تُصَبْ بِٱلبَرْدِ . أَمّا ٱلعاقِبةُ السَّيِّئةُ الَّتي خَرَجَتْ بِها مِنْ تَجْرِبةِ اللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ فَهِيَ بُقْعَتانِ صَغيرَتانِ حَمْراوانِ في عُنُقِها . وَأَخَذَتْ مِينا تَلومُ نَفْسَها إِذْ لَمْ تَكُنْ حَريصةً حِينَما ٱسْتَخْدَمَتِ ٱلمِشْبَكَ ، وَلٰكِنَّ لُوسِي طَمْأَنَتْها وَقالَتْ إِنَّها لا تُحِسُّ بِأَلَمٍ فِيهِما ، وَكانَ يَبْدو عَلَيْها أَنَّها لا تَرْغَبُ في ٱلخَوْضِ في هٰذا ٱلمَوْضوعِ .

في تِلْكَ اللَّيْلةِ كانَتْ مِينا تَأْمُلُ أَنْ تَنامَ لُوسِي نَوْمًا أَهْدَأَ مِمّا كانَ في اللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ ، وَلٰكِنَّ ٱلأَمْرَ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ . فَحِينَما حانَ وَقْتُ النَّوْمِ ، لَمْ تَكْتَفِ مِينا بِإِيصادِ ٱلبابِ بِٱلمِفْتاحِ فَحَسْبُ ، بَلْ إِنَّها أَخَذَتِ ٱلمِفْتاحَ مَعَها في فِراشِها أَيْضًا ، وَكانَ هٰذا مِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ . لِأَنَّها سَمِعَتْ لُوسِي وَهِيَ تَنْهَضُ مِنْ فِراشِها وَتُحاوِلُ فَتْحَ ٱلبابِ مَرَّةً أُولَى وثانِيةً . وَفي ٱلمَرّةِ الثّالِثةِ ٱسْتَيْقَظَتْ مِينا لِتَجِدَ لُوسِي تَسْحَبُ السَّتائِرَ إِلى الخَلْفِ ، وَخَشِيَتْ أَنْ

تَسْقُطَ مِنَ النّافِذةِ فَأَخذَتْها إلى فِراشِها ، ثُمّ أَعادَتِ السَّتائِرَ إلى حَيْثُ كانَتْ .

كانَ القَمَرُ لا يَزالُ بَدْرًا كامِلًا . وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ في الخارِجِ يَبْدو جَميلًا أَخّاذًا . وَكانَ الهُدُوءُ مُخَيِّمًا فِيما عَدا خُفاشًا ضَخْمًا كانَ يَحُومُ في دَوائِرَ واسِعةٍ ، وَيَقْتَرِبُ حَتّى يَكادَ يَلْتَصِقُ بالنّافِذةِ . وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّ ظُهورَ مِينا قَدْ أَفْزَعَهُ ، فَأَخَذَ يَطيرُ عَبْرَ الوادِي في اتِّجاهِ الكَنيسةِ .

كانَتْ صِحّةُ لُوسي تَزْدادُ سُوءًا ، وَكانَ ذٰلِكَ مَبْعَثَ قَلَقٍ لِـمينا . وَكانَتْ تَصَرُّفاتُ لُوسي في مُعْظَمِ الأَوْقاتِ هِيَ تَصَرُّفاتِ الصَّديقةِ الوَدودِ الَّتي عَرَفَتْ مِينا مُنْذُ زَمانٍ طَويلٍ وَأَحَبَّتْها . وَلٰكِنْ — في أَوْقاتٍ أُخْرَى — كانَتْ تَبْدو وَكَأَنَّها شَخْصٌ غَريبٌ ، وَكانَتْ لُوسي دائِمةَ الشُّحوبِ وَالإِرْهاقِ فِي الأَيّامِ الأَخيرةِ . وَلِذٰلِكَ كَتَبَتْ مِينا إلى والِدةِ لُوسي تَطْلُبُ مِنْها أَنْ تُعَجِّلَ بِالحضورِ إلى هْوِيتْبي . صَحيحٌ أَنَّهُ كانَتْ هُناكَ خُطُورةٌ في تَحْميلِ السَّيِّدةِ وِسْتِنْرا مَشَقّاتِ السَّفَرِ بِسَبَبِ قَلْبِها الضَّعيفِ . وَلٰكِنْ إذا كانَتْ لُوسي مَريضةً فَإِنَّ مِنْ حَقِّ أُمِّها أَنْ تَعْرِفَ . كَذٰلِكَ طَلَبَتْ مِينا مِنْ لُوسي أَنْ تَعْرِضَ نَفْسَها عَلى طَبيبٍ ، فَاسْتَجابَتْ لَها وَهِيَ غَيْرُ راضِيةٍ كُلَّ الرِّضا . وَقَدْ قَرَّرَ الطَّبيبُ أَنَّها لا تُعاني مِنْ أَيِّ مَرَضٍ ، وَإِنَّما هِيَ في حاجةٍ إلى الرّاحةِ وَالهُدوءِ .

وَلَـمْ تَشَأْ مِينا أَنْ تَسْأَلَ لُوسي عَنْ مَوْضُوعِ مَشْيِها في أَثْناءِ النَّوْمِ ، إِذْ وَجَدَتْ أَنَّهُ مِنَ الخَيْرِ أَلّا تُقْلِقَها بِالحَديثِ الـمُباشِرِ فِيهِ عَقِبَ وقُوعِهِ . وَلٰكِنْ ، بَعْدَ ظُهْرِ أَحَدِ الأَيّامِ ، وَحينَما كانَتا تَجْتازانِ ساحةَ الكَنيسةِ وَجَدَتْ مِينا أَنَّ الوَقْتَ مُناسِبٌ لِكَيْ تَطْرُقَ الـمَوْضوعَ . وَفَكَّرَتْ أَنّه إذا كانَ هُناكَ ما يُقْلِقُ لُوسي فَإِنَّ التَّحَدُّثَ فِيهِ رُبَّما يُساعِدُها وَيَكونُ خَيْرًا لَها ، وَلِذٰلِكَ سَأَلَتْها : « بِمَ كُنْتِ تَحْلُمينَ في تِلْكَ اللَّيْلةِ حِينَما جِئْتِ إلى هُنا وَحْدَكِ ؟ »

فَأَجابَتْ لُوسي مُتَسائِلةً : « هَلْ كُنْتُ أَحْلُمُ ؟ نَعَمْ ، لابُدَّ أَنَّهُ كانَ حُلْمًا ، وَلٰكِنَّهُ يَبْدو كَالحَقيقةِ تَمامًا . لَقَدْ أَحْسَسْتُ بِرَغْبةٍ شَديدةٍ في أَنْ أَكونَ في ساحةِ الكَنيسةِ . وَمَعَ هٰذا ، فَلَسْتُ أَدْري لِـماذا ؟ ذٰلِكَ لِأَنَّني أَذْكُرُ أَنَّني كُنْتُ خائِفةً مِنْ شَيْءٍ مّا أَيْضًا . وَمَعَ

أنّي لابُدَّ كُنْتُ نائِمةً ، فإنّني أتذَكَّرُ سَيْري في الشّوارِع ، وَخُيِّلَ إليّ أنَّ آلـمَدينَةَ مُمْتَلِئةٌ بٱلكِلابِ . كانتِ الضَّوْضاءُ عَلى أشُدِّها ، وَعِنْدَما كُنْتُ أعْبُرُ آلجسْرَ إذا بِسَمَكةٍ تَقْفِزُ ، فَتَوَقَّفْتُ كَيْ أُجيلَ بَصَري في آلماءِ . ثُمَّ صَعِدْتُ إلى آلكَنيسةِ وبَدا لي كَأنّني لا أزالُ أُحَدِّقُ في آلماءِ ، وَأنّني أغوصُ فِيه ، في ماءٍ عَميقٍ أخْضَرَ ، وَكانَ هُناكَ شَيْءٌ طَويلٌ قاتِمٌ ذو عَيْنَيْنِ حَمْراوَيْنِ ، وَٱنتابَتْني مَشاعِرٌ مِنَ اللّذةِ وَٱلخَوْفِ وَٱلألَمِ جميعًا ، ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أذْكُرُ أنَّكِ كُنْتِ بِجانِبي عَلى آلمَقْعَدِ . هَلْ كُنْتِ أنْتِ ؟ أمْرٌ عَجيبٌ حَقًّا . »

قالَتْ هٰذا ، ثُمَّ ٱنطَلَقَتْ في الضَّحِكِ .

لَمْ يَرُقْ مِينا أنْ تَرى لُوسي تَضْحَكُ بِهٰذِهِ الطَّريقةِ ، فَلَقَدْ كانَتْ ضَحِكاتُها غَيْرَ طَبيعيَّةٍ . كَما أحَسَّتْ أنَّ لُوسي لَمْ تُخْبِرْها بِكُلِّ ما كانَتْ تَذْكُرُهُ عَنْ هٰذِهِ اللَّيْلةِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تُحاوِلْ أنْ تُلِحَّ عَلَيْها لِكَيْ تُخْبِرَها بٱلمَزيدِ . ذٰلِكَ لأنَّ لُوسي قالَتْ إنَّها تَشْكو مِنْ صُداعٍ ، وَقَدْ أوَتْ إلى فِراشِها عَقِبَ عَوْدَتِها إلى آلمَنْزِلِ مُباشَرةً . أمّا مِينا فَقَدْ جَلَسَتْ تَكْتُبُ بَعْضَ الرَّسائِلِ حَتّى ٱلعاشِرَةِ . وَأحَسَّتْ أنَّها في حاجةٍ إلى آلهَواءِ الطَّلْقِ فَخَرَجَتْ تَمْشي حَتّى مَكْتَبِ آلبَريدِ في آلمَدينةِ . وَفي طَريقِ ٱلعَوْدةِ مَرَّتْ بِبُقْعةٍ تَسْتَطيعُ أنْ تَرى مِنْها ظَهْرَ آلمَنْزِلِ الّذي تُقيمانِ فيهِ ، وَلَمْ يَكُنِ ٱلقَمَرُ بَدْرًا كَما كانَ في اللَّيْلةِ السّابِقةِ ، وَلٰكِنَّه كانَ لا يَزالُ ساطِعًا . وَحينَما رَفَعَتْ بَصَرَها إلى نافِذةِ حُجْرةِ نَوْمِها أخَذَتْها الدَّهْشةُ إذْ شاهَدَتْ لُوسي فَلَوَّحَتْ لَها بِيَدِها ، وَلٰكِنَّ لُوسي لَمْ تُبادِلْها التَّحِيّةَ ، وَإنَّما كانَتْ تَسْتَنِدُ عَلى حافَةِ النّافِذةِ كَما لَوْ كانَتْ نائِمةً . وَفي التَّوِّ خَطَرَ عَلى بالِ مِينا ما حَدَثَ في لَيْلةِ ساحةِ آلكَنيسةِ ، وَالشَّكْلُ ٱلغَريبُ الّذي خُيِّلَ إلَيْها وَقْتَئِذٍ أنَّهُ جاثِمٌ فَوْقَ صَديقَتِها . وَهٰكَذا لِلْمَرّةِ الثّانِيةِ ، بَدا كَما لَوْ أنَّ شَيْئًا ما مُتَمَدِّدٌ أمامَ وَجْهِها عَلى حافَةِ النّافِذةِ ، وبَدا أشْبَهُ بِجَناحِ طائِرٍ أوْ خُفاشٍ . هَرْوَلَتْ مِينا إلى آلمَنْزِلِ ، وَسارَعَتْ إلى ٱرْتِقاءِ السُّلَّمِ وَثْبًا . وَحِينَما دَخَلَتِ ٱلحُجْرَةَ ، كانَتْ لُوسي في فِراشِها مُسْتَغْرِقةً في نَوْمٍ عَميقٍ . كانَتْ تَتَنَفَّسُ تَنَفُّسًا سَريعًا مُضْطَرِبًا كَما فَعَلَتْ في ساحةِ آلكَنيسةِ ، وكانَتْ تَشُدُّ مِفْرَشَ السَّريرِ بِقُوّةٍ حَوْلَ عُنُقِها . اِتَّجَهَتْ مِينا إلى النّافِذةِ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أيُّ شَيْءٍ .



لَمْ تَكُنِ ٱلأَيّامُ ٱلقليلةُ التّاليةُ سَعيدةً بِالنِّسْبةِ لِمِينا . كانَتْ لُوسي تأْكُلُ وتَنامُ ، وكانَتْ تَسْتَنْشِقُ ٱلهَواءَ الطَّلْقَ كَثيرًا ، وَمَعَ ذٰلِكَ كانَتْ تَزْدادُ شُحُوبًا وَضَعْفًا . وأَيًّا كانَ رَأْيُ الطَّبيبِ فَلَيْسَ هُناكَ شَكٌّ في أَنَّها كانَتْ مَريضةً . أَمّا ٱلجُرْحانِ الصَّغيرانِ في عُنُقِها فَإِنَّهما لَمْ يَتَحَسَّنا . كانا لا يَزالانِ مَفْتوحَيْنِ ، بَلْ لَقَدْ زادا اتِّساعًا ، وَكانَتْ مِينا تَرْجو أَلّا يَكونَ عدَمُ حِرْصِها هُوَ السَّبَبَ في مَرَضِ لُوسي .

وَأَخيرًا قالَتْ مِينا : « لابُدَّ أَنْ تَسْتَشيري طَبيبًا آخَرَ يالُوسي ، سَوْفَ أَكْتُبُ إلى دُكْتُور سيوارْد . »

اَلْفَصْلُ ٱلثَّامِنْ

حِينما نَزَلَتْ مِينا لِتَتَناوَلَ طَعامَ ٱلإِفْطارِ فِي صَباحِ ٱلْيَوْمِ التّالي وَجَدَتْ خِطابًا لَها قُرْبَ مَكانِ جُلُوسِها إلى ٱلمائِدةِ . وَإِذْ وَقَعَ بَصَرُها عَلى خاتِمِ بُودابِسْت عَلى طابَعِ ٱلبريدِ صاحَتْ : « أَخيرًا ! لابُدَّ أَنْ يَكونَ مِنْ جوناثان . »

وَلٰكِنْ حِينَما رَأَتْ أَنَّ ٱلكِتابَةَ عَلى الظَّرْفِ لَيْسَتْ بِخَطِّ جوناثان عادَتْ إِلَيْها أَسْوَأُ مَخاوِفِها .

« السَّيِّدةُ ٱلعَزيزةُ

أَكْتُبُ إِلَيْكِ بِناءً عَلى رَغْبةِ السَّيِّدِ جوناثان هارْكَر الَّذي لا يَمْلِكُ ٱلقُوَّةَ ٱلكافِيَةَ لِكَيْ يَكْتُبَ بِنَفْسِهِ ، وَلَوْ أَنَّهُ يَتَحَسَّنُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَشُكْرًا لله وَلِسانت جُوزيف . لَقَدْ كانَ تَحْتَ رِعايَتِنا طَوالَ ٱلأَسابيعِ ٱلأَرْبعةِ ٱلماضِيةِ ، وَقَدْ طَلَبَ مِنّي أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْكِ بِحُبِّهِ ، كَما طَلَبَ أَنْ أَكْتُبَ إلى السَّيِّدِ بِيتَر هَوْكِينْز فِي إِكْستر بِإِنْجِلْترا لِأُخْبِرَهُ أَنَّ عَمَلَهُ قَدْ أُنْجِزَ ، وَأَنَّهُ يَأْسَفُ لِتَأَخُّرِه في ٱلعَوْدةِ . إِنَّهُ في حاجَةٍ إلى بِضْعةِ أَسابيعَ أُخْرَى مِنَ الرّاحةِ في دارِنا الَّتي تَقَعُ فَوْقَ التِّلالِ ، ثُمَّ يَعودُ بَعْدَها إلى إِنْجِلْترا . كَما طَلَبَ أَنْ أُخبِرَكِ أَنَّهُ في حاجَةٍ إلى نُقودٍ ، إِذْ يَرْغَبُ في سَدادِ نَفقاتِ إِقامَتِهِ هُنا ، وَذٰلِكَ لِكَيْ تَتَمَكَّنَ دارُنا مِنْ تَقْديمِ ٱلعَوْنِ لِأُولٰئِكَ الَّذينَ يَحْتاجونَ إِلَيْهِ .

ٱلْمُخْلِصَة

ٱلْأُخْتُ أُغاثا

مُسْتَشْفى سانْت جُوزيف »

وَقَدْ ذُيِّلَتِ بِعِباراتٍ أُخْرَى كَتَبَتْها ٱلأُخْتُ أُغاثا :

« السَّيِّدُ هارْكَر نائِمٌ ٱلآنَ ، وَقَدْ وَجَدْتُ مِنَ ٱلأَفْضَلِ أَنْ أَفْتَحَ الرِّسالةَ لِأُضيفَ ٱلمَزيدَ . حِينَما جاءَ إِلَيْنا كانَ يَتَحَدَّثُ فِي هِياجٍ عَنِ الذِّئابِ وَالدِّماءِ وَمَصّاصي الدِّماءِ ، وَيَبْدو أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ لَهُ شَيْءٌ غَريبٌ مُفْزِعٌ — وَرُبَّما شِرِّيرٌ — حَتّى لَقَدْ صارَتِ ٱلأُمورُ كُلُّها مُخْتَلِطةً فِي عَقْلِهِ . وَلَقَدْ وَجَدْنا مِنَ ٱلأَفْضَلِ أَلّا نُوَجِّهَ إِلَيْهِ أَيَّ سُؤالٍ . لَقَدْ وَصَلَ إلى بُودابِسْت

بِٱلقِطارِ قادِمًا مِنْ بِيسْترِيتْز دُونَ تَذْكرةِ سَفَرٍ ، وَفي حالَةٍ شَديدَةٍ مِنَ ٱلاضْطِرابِ . وَكُنّا نَوَدُّ أَنْ نَكْتُبَ إِلَيْكِ مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّ حالَهُ لَمْ تَكُنْ تَسْمَحُ بِذٰلِكَ . أَمّا ٱلآنَ فَقَدْ أَصْبَحَ قادِرًا عَلى أَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْنا ، وَأَنْ يَكونَ لِكَلامِهِ مَعْنًى . »

وَحِينَما ظَهَرَتْ لُوسِي صاحَتْ مِينا : « أَوِ يالُوسي ! إِنَّهُ بِخَيْرٍ . لَقَدْ جاءَتْني ٱلأَخْبارُ أَخِيرًا . لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ قَطُّ أَنَّ السَّعادَةَ سَوْفَ تَغْمُرُني حِينَ أَعْلَمُ أَنَّهُ يَرْقُدُ في مُسْتَشْفًى ، وَلٰكِنَّهُ ـــ عَلى ٱلأَقَلِّ ـــ لَمْ يَخْتَفِ . إِنَّهُ ـــ عَلى ٱلأَقَلِّ ـــ لَمْ يَمُتْ . لابُدَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِ بِقَدْرِ ما أَسْتَطِيعُ مِنْ سُرْعَةٍ . »

وَهٰكَذا ، اتَّخَذَتْ مِينا ٱلإِجْراءاتِ اللّازِمَةَ : أَرْسَلَتِ ٱلخِطاباتِ وَٱلبَرْقِيّاتِ إِلى السَّيِّدِ هَوْكِينْز ، وَإِلى ٱلأُخْتِ أَغاثا ، وَٱشْتَرَتْ تَذاكِرَ السَّفَرِ بِالسَّفينَةِ وَٱلقِطارِ . وَقَدْ رَدَّ عَلَيْها السَّيِّدُ هَوْكِينْز بِرِسالَةٍ رَقيقَةٍ ، وَكانَ مِنْ رَأْيِهِ أَنَّها سَوْفَ تَكونُ فِكْرَةً طَيِّبَةً بِالنِّسْبَةِ لِمِينا وَجوناثان أَنْ يَعْقِدا قِرانَهُما في بُودابِسْت ، وَتَعَهَّدَ أَنْ يَتَوَلّى هُوَ ٱتِّخاذَ ٱلإِجراءاتِ اللّازِمَةِ .

أَمّا لُوسِي ـــ وَقَدِ ٱسْتَشْعَرَتْ ما غَمَرَ مِينا مِنْ سَعادَةٍ ـــ فَقَدْ بَدَأَتْ حالُها تَتَحَسَّنُ قَلِيلًا . وَلٰكِنَّها كانَتْ لا تَزالُ بَعيدَةً عَنِ الشِّفاءِ ، وَكانَتْ مِينا تَضَعُ أَمَلَها في وُصولِ السَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا ، وَما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ أَثَرٍ طَيِّبٍ .

وَقالَتْ مِينا ، لِلْمَرَّةِ ٱلعِشْرِينَ مُنْذُ وُصُولِ رِسالَةِ ٱلأُخْتِ أَغاثا : « أَوِ يالُوسي ! إِنَّني لا أَسْتَطِيعُ ٱلانْتِظارَ لِكَيْ أَراهُ ثانِيَةً ! »

كانَتِ ٱلفَتاتانِ في مَحَطَّةِ هُوِيتْبي تَنْتَظِرانِ ٱلقِطارَ الَّذي يُقِلُّ السَّيِّدَةَ وِسْتِنْرا . وَقالَتْ لُوسِي ، لِلْمَرَّةِ ٱلحادِيَةِ وَٱلعِشْرِينَ عَلى ٱلأَقَلِّ خِلالَ هٰذا ٱلأُسْبُوعِ :

« كَمْ أَتَمَنَّى لَوِ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ بِسُرْعَةٍ مِثْلَكِ . إِنَّكِ لَفَتاةٌ سَعِيدَةٌ حَقًّا يامِينا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ اللُّورْدُ غُودا لْمِينْغ والِدُ آرْثَر مَرِيضًا لَاسْتَطَعْنا ـــ أَرْثَر وأَنا ـــ أَنْ نَتَزَوَّجَ أَيْضًا في هٰذا الصَّيْفِ . عَزِيزي ٱلمِسْكِينُ ، إِنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنِ ٱلمَنْزِلِ . »

وَلَمْ تَكُنْ لُوسِي تَتَحَدَّثُ كَثيرًا عَنْ آرْثَر في أَثْناءِ ٱلأَسابيعِ ٱلقَليلَةِ ٱلماضِيَةِ ، وَلِذٰلِكَ

سُرَّتْ مِينا حِينَما سَمِعَتْها تَتَحَدَّثُ ثانِيةً ، وَتَمَنَّتْ هِيَ كَذٰلِكَ لَوْ أَنَّ آرْثَر كانَ يَمْلِكُ الْحُرِّيَّةَ لِكَيْ يَأْتِيَ إِلى هُويِتْبِي . إِنَّ لُوسِي في حاجةٍ إِلى عَوْنٍ مِنْ رَجُلٍ يَقِفُ بِجانِبِها .

وَفي هٰذِهِ اللَّحْظَةِ لاحَظَتْ مِينا أَنَّ هُناكَ قِطارَ بَضائِعَ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ لِيُغادِرَ الْمَحَطَّةَ ، وَكانَتْ مُعْظَمُ أَحْمالِ الْقِطارِ مِنَ السَّمَكِ الَّذي يَنْقُلُهُ إِلى لَنْدَن ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَحْمِلُ شَيْئًا آخَرَ كَذٰلِكَ .

صاحَتْ مِينا : « ما هٰذِهِ الصَّنادِيقُ الْمَحْمولةُ في عَرَباتِ الْقِطارِ الْمَكْشُوفةِ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُها مِنْ قَبْلُ . عَجَبًا ! مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّها الصَّنادِيقُ الَّتي كانَتْ في السَّفِينةِ دِيمِيتِر . »

وَعادَتْ بِها الْخَواطِرُ إِلى العاصِفةِ ، وَإِلى السَّفِينةِ ، وَإِلى الرُّبّانِ الْمَيِّتِ . كَمْ هُوَ مُؤْسِفٌ أَنْ يَموتَ رِجالٌ كَثِيرُونَ في سَبِيلِ إِحْضارِ قَلِيلٍ مِنَ الصَّنادِيقِ إِلى إِنْجِلْترا . قالَتْ لُوسِي حِينَما مَرَّتْ بِها الْعَرَباتُ الْمَكْشوفةُ : « إِنَّني أَشْعُرُ بِالْبُرُودةِ . »

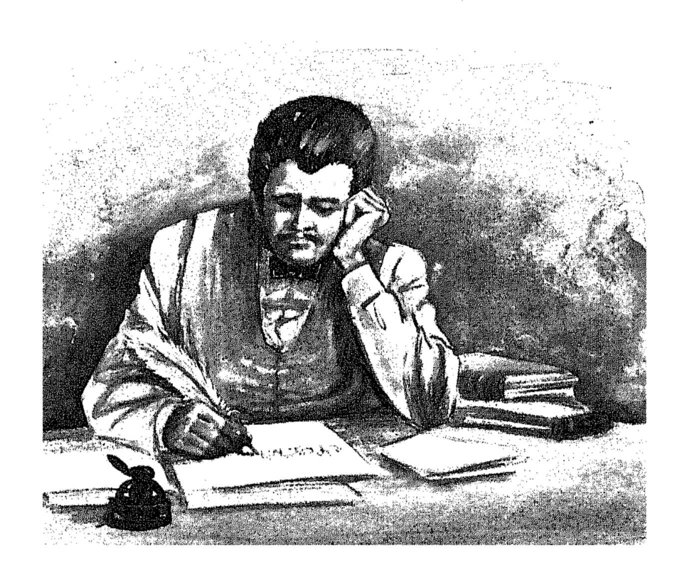
وَالْواقِعُ أَنَّها بَدَتْ فَجْأَةً وَقَدْ كَساها الشُّحوبُ الشَّدِيدُ ، وَانْتابَها الْمَرَضُ . وَكانَ قِطارُ الْبَضائِعِ قَدْ خَرَجَ مِنَ الْمَحَطَّةِ في نَفْسِ اللَّحْظةِ الَّتي ظَهَرَ فيها الْقِطارُ الَّذي يُقِلُّ السَّيِّدةَ وِسْتِنْرا قادِمًا ، فَقالَتْ مِينا وَقَدْ طَوَّقَتْ صَدِيقَتَها بِذِراعَيْها : « كُلُّ شَيْءٍ سَوْفَ يَكونُ أَحْسَنَ الْآنَ . »

تَنَفَّسَتْ لُوسِي نَفَسًا عَمِيقًا وَقالَتْ : « آهٍ يامِينا ! عَزِيزَتِي مِينا ! إِنَّني آمُلُ أَنْ يَكونَ الْأَمْرُ كَذٰلِكَ . إِنَّني لا أَشْعُرُ بِالسَّعادةِ الَّتي كُنْتُ أَشْعُرُ بِها مِنْ قَبْلُ . »

اَلْقِسْمُ ٱلثّالِثُ
دُكْتور سِيوارْد

اَلْفَصْلُ ٱلتّاسِعُ

جَلَسَ الدُّكْتور سِيوارْد يَكْتُبُ تَقاريرَهُ ٱلأُسْبوعيَّةَ عَنْ دارِ ٱلـمَجانينِ الَّتي يَتَوَلّى ٱلإِشْرافَ عَلَيْها . وَكانَ مِنْ بَيْنِ ٱلحالاتِ الَّتي يُعالِجُها حالَةَ رِينْفيلْد الَّتي كانَتْ مَحَطَّ ٱهْتِمامِهِ ، فَهاهُنا رَجُلٌ مَوْفُورُ ٱلقُوَّةِ ، في أَواسِطِ ٱلعُمْرِ ، يَقْضي كُلَّ وَقْتِهِ في ٱلقَبْضِ عَلى الذُّبابِ وَٱلإِبْقاءِ عَلَيْهِ حَيًّا في وِعاءٍ زُجاجِيٍّ . مِثْلُ هٰذا الصَّنيعِ ـ عَلى ٱلأَقَلِّ ـ لَـمْ يَكُنْ يُسَبِّبُ أَيَّ ضَرَرٍ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ ـ كَذٰلِكَ ـ يُمْسِكُ ٱلعَناكِبَ وَيُقَدِّمُ لَها الذُّبابَ طَعامًا . وَتَطَوَّرَ



ٱلأَمْرُ فَأَصْبَحَ يُمْسِكُ زَوْجًا مِنَ الطُّيورِ الصَّغيرةِ وَيُقَدِّمُ لَها ٱلعَناكِبَ غِذاءً . وَسَأَلَ الرَّجُلُ عَمَّا إذا كانَ مِنَ ٱلـمُمْكِنِ أَنْ يَقْتَنِيَ قِطًّا صَغيرًا ، فَرَفَضَ ٱلدُّكْتور سيوارْد طَلَبَهُ . وفي ٱليَوْمِ التّالي أَبْلَغَ مُمَرِّضُ رِينْفِيلْد أَنَّ الطّائِرَيْنِ ٱخْتَفَيا ، وَأَنَّ هُناكَ دَمًا وَريشًا في أَحَدِ أَرْكانِ ٱلحُجْرةِ وَلِذٰلِكَ حَمَدَ الدُّكْتور سيوارْد اللهَ لِأَنَّهُ لَـمْ يُعْطِ رِينْفِيلْد قِطًّا .

وَكانَ مِنَ ٱلواضِحِ أَنَّ رِينْفِيلَد يَتْبَعُ خُطَّةً ، وَأَنَّ هٰذِهِ ٱلخُطَّةَ كانَتْ ـــ بِمَنْطِقِها ٱلجُنونيِّ مَعْقولةً . فَقَدْ كانَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ ـــ إِذْ يَلْتَهِمُ الطّائِرَيْنِ ـــ فَهُوَ لا يَقْضي عَلى حَياتِهِما فَحَسْبُ ، وَإِنَّما يَقْضي في نَفْسِ ٱلوَقْتِ عَلى حَياةِ ٱلعَناكِبِ وَالذُّبابِ ، وَكُلُّ ذٰلِكَ يَبْعَثُ فِيهِ شُعورًا بالسَّطْوَةِ وَٱلقُوَّةِ . وَلٰكِنَّ ٱلـمَسْأَلَةَ هِيَ : ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهِ كُلُّ هٰذا ؟

إنَّ قَتْلَ ٱلعَناكِبِ وَالذُّبابِ لَيْسَ أَمْرًا ذا شَأْنٍ ، وَلٰكِنْ لِنَفْرِضْ أَنَّهُ بَدَأَ يُفَكِّرُ في ٱلقَضاءِ عَلى حَياةِ كائِناتٍ أَعْلى مِنْ هٰذِهِ ؟ إنَّ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلفِكْرةِ ـــ إذا تَسَلَّطَتْ عَلَيْه ـــ قَدْ تَجْعَلُ مِنْهُ قاتِلًا . وَلَـمْ تَكُنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلـمُشْكِلةَ ٱلوحِيدةَ في حالَةِ رِينْفِيلْد . فَمُنْذُ بِضْعةِ أَيّامٍ بَدَأَتْ تَنْتابُهُ حالةُ هِياجٍ بِدُونِ سَبَبٍ مَلْحوظٍ ، وَظَلَّ يُرَدِّدُ قَوْلَهُ : « إنَّ السَّيِّدَ قَريبٌ » ، فَهَلْ كانَ هٰذا نَوْعًا مِنَ ٱلهَوَسِ الدِّينيِّ ياتُرى ؟ وإذا صَحَّ ذٰلِكَ ، وَٱقْتَرَنَ ٱلأَمْرُ بِرَغْبَتِهِ في ٱلقَتْلِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يُشيرُ إلى حالَةٍ خَطيرةٍ .

أَزاحَ الدُّكْتور سيوارْد السِّجِلَّ الَّذي يُدَوِّنُ فِيهِ مُلاحَظاتِهِ بَعيدًا ، وَأَراحَ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَكانَ اللَّيْلُ قَدِ ٱنْتَصَفَ ، وَغَلَبَهُ التَّعَبُ وَالإِعْياءُ . كانَ يَعْلَـمُ أَنَّهُ يَكِدُّ فِي عَمَلِهِ كَثيرًا ، وَلٰكِنَّ هٰذا كانَ يُساعِدُهُ عَلى التَّفْكيرِ في لُوسي .

وَعِنْدما ذَهَبَ إلى فِراشِهِ أَخيرًا أَصابَهُ أَرَقٌ . وَكانَ لا يَزالُ مُسْتَيْقِظًا حِينَما دَخَلَ ٱلحارِسُ اللَّيْليُّ حُجْرَتَهُ في السّاعةِ الثّانِيةِ صَباحًا ، وَقالَ : « لَقَدْ أَرْسَلَني إِلَيْكَ ٱلـمُمَرِّضُ ٱلـمَنوطُ بِهِ ٱلعَمَلُ اللَّيْلةَ لِأُبْلِغَكَ أَنَّ رِينْفِيلْد قَدْ هَرَبَ . » فَٱرْتَدى سيوارْد ثِيابَهُ عَلى عَجَلٍ ، وَنَزَلَ عَلى السُّلَّـمِ وَثْبًا إلى حُجْرةِ رِينْفِيلْد ، وَكانَ ٱلـمُمَرِّضُ قَدْ أَيْقَظَ ٱثْنَيْنِ مِنْ زُمَلائِهِ ، وَوَقَفَ الثَّلاثَةُ يَنْتَظِرونَ تَوْجيهاتِ الطَّبيبِ .

وَقالَ ٱلـمُمَرِّضُ شارِحًا : « لَقَدْ حَدَثَ ٱلأَمْرُ عَلى هٰذِهِ الصُّورةِ ياسَيِّدي : كُنْتُ قَدْ نَظَرْتُ مِنْ خِلالِ النّافِذةِ الَّتي في بابِهِ مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقةً ، وَبدا لي أَنَّهُ نائِمٌ ، ثُمَّ نَظَرْتُ ثانِيةً مُنْذُ لَحَظاتٍ فَرَأَيْتُهُ يَتَسَلَّقُ إلى خارِجِ النّافِذةِ . إنّهُ قَوِيٌّ جِدًّا ياسَيِّدي ، فَلَقَدْ ثَنَى قُضْبانَ النّافِذةِ بِيَدَيْهِ وَفَرَّ هارِبًا ، وَأَظُنُّ أَنَّهُ ٱتَّجَهَ نَحْوَ كارْفاكْس . »

قالَ الدُّكْتور سيوارْد : « اتْبَعوني ، فَسَوْفَ نَسْلُكُ نَفْسَ الطَّريقِ الَّذي سَلَكَهُ مِنْ خِلالِ النّافِذةِ . »

وَبَيْنَما كانَ الطَّبيبُ يَتَسَلَّقُ النّافِذةَ كانَ يَعْجَبُ مِنْ قُوّةِ الرَّجُلِ الـمَجْنونِ الَّذي اسْتَطاعَ أَنْ يَثْنِيَ ٱلقُضْبانَ ٱلحَديدِيّةَ ٱلغليظةَ كَأَنَّما هِيَ أَسْلاكٌ . ما الَّذي جَعَلَهُ يَفْعَلُ ذٰلِكَ ياتُرَى ؟ إنَّهُ لَمْ يُحاوِلِ ٱلهُروبَ قَطُّ مِنْ قَبْلُ !

وَحِينَما أَصْبَحَ الرِّجالُ ٱلخَمْسةُ في ٱلخارِجِ جَرَوْا نَحْوَ السُّورِ ٱلـمُرْتَفِعِ الَّذي يَقِفُ حاجِزًا بَيْنَ ٱلـمُسْتَشْفى وَأَراضي كارْفاكْس ٱلـمُشْجِرةِ الَّتي يَغْشيها الظَّلامُ ، وَتَساءَلَ الطَّبيبُ : « إذا كانَ رِينْفِيلْد يُريدُ مُجَرَّدَ ٱلهُروبِ ، فَلِـماذا لَـمْ يَنْطَلِقْ نَحْوَ الطَّريقِ ؟ »

وَكانَ في ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ مِنَ السُّورِ مَمَرٌّ تَكْسُوهُ ٱلأَعْشابُ الطَّويلةُ . سَلَكُوا ذٰلِكَ ٱلـمَمَرَّ حَتّى لاحَ أَمامَهم في عَتْمةِ اللَّيْلِ هَيْكَلُ ٱلـمَنْزِلِ وَٱلكَنيسةُ . وَلَـمْ يَصْعُبْ عَلَيْهِمُ ٱلعُثورُ عَلى رِينْفِيلْد الَّذي يَلْبَسُ جِلْبابَ النَّوْمِ ٱلأَبْيضَ ، وَالَّذي لَـمْ يَكُنْ يُحاوِلُ أَنْ يُخْفِيَ نَفْسَهُ ، وَإِنَّما كانَ مُتَشَبِّثًا بِجِسْمِهِ بِبابِ ٱلكَنيسةِ ، وَذِراعاهُ مَمْدودَتانِ إلى أَعْلى . وَكانَ يَقولُ : « سَيِّدي ! إنَّ خادِمَكَ هُنا ، فَمُرْهُ بِما تَرَى . »

فَقالَ الطَّبيبُ : « تَمامًا كَما قَدَّرْنا . إنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلهَوَسِ الدِّينيِّ ، وَلَقَدْ جاءَ إلى هُنا لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّها أَقْرَبُ كَنيسةٍ . »

وَلابُدَّ أَنَّ رِينْفِيلْد سَمِعَ صَوْتَهُ ، فَقَدِ ٱلْتَفَتَ فَجْأَةً وَواجَهَهُمْ وَهُوَ يُزَمْجِرُ كَما تُزَمْجِرُ ٱلحَيواناتُ الضّارِيةُ . أَمّا الطَّبيبُ وَرِجالُهُ فَقَدْ أَحْكَموا ٱلحَلْقةَ حَوْلَهُ حَتى أَصْبَحوا عَلى مَقْرَبةٍ مِنْهُ بِحَيْثُ يَسْتَطيعُونَ ٱلإمْساكَ بِهِ ، وَلٰكِنَّهُ أَخَذَ يُقاتِلُ قِتالَ ٱلـمُسْتَميتِ . وَكانَ الرِّجالُ

ٱلخَمْسةُ أَشَدَّ قُوَّةً فَحَمَلوهُ وَعادُوا بِهِ وَهُوَ يَرْفُسُ وَيُقاوِمُ . وَكانَ هُناكَ خُفّاشٌ يَطيرُ حائِمًا بَيْنَ ٱلأَشْجارِ وَخارِجَها ، وَبَدا كَأَنَّما تَحَرُّكاتُ ٱلخُفّاشِ تُزيدُهُ ٱسْتِثارةً وَصِياحًا ، حَتّى إِنَّ كُلَّ مَنْ في ٱلـمُسْتَشْفى اسْتَيْقَظوا عَلى صَيْحاتِهِ وَصَرَخاتِهِ .

وَفي صَباحِ ٱليَوْمِ التّالي جاءَ زائِرٌ إِلى الدُّكْتور سيوارْد ، وَلَـمْ يَكُنِ الطَّبيبُ راغِبًا في ٱسْتِقْبالِ أَيِّ زائِرٍ بَعْدَ ما حَدَثَ في اللَّيْلةِ ٱلـماضِيةِ . وَلٰكِنَّهُ كانَ آرْثر هُولْـموود وَهُوَ صَديقٌ لابُدَّ أَنْ يراهُ . وَلَـمْ يَكُنِ الشّابُّ ٱلفارِعُ ــ ٱلقَوامِ ، ٱلأَنيقُ الثِّيابِ ، ٱلبَهِيُّ ٱلـمَنْظَرِ ـــ سَعيدًا كَما كانَ يَبْدو عادةً ، وَإِنَّما كانَ قَلِقًا بِسَبَبِ تَدَهْوُرِ صِحّةِ لُوسي .

قالَ آرْثر : « لَقَدْ كانَتْ تَبْدو في أَحْسَنِ حالٍ حِينَما عادَتْ مِنْ هُويتْبي يا جاك ، مَعَ أَنَّ مِينا مُوراي قالَتْ إِنَّها كانَتْ مَريضةً جِدًّا . »

قالَ الطَّبيبُ : « لَقَدْ كَتَبَتْ مِينا إِلَيَّ بِذٰلِكَ ، وَكانَ يَبْدو مِنْ رِسالَتِها أَنَّها شَديدةُ ٱلقَلَقِ عَلَيْها . »

قالَ آرْثر : « حَسَنًا ، لَقَدْ ظَنَنْتُ في ٱلبِدايةِ أَنَّ مِينا ٱخْتَرَعَتْ قِصّةَ مَرَضِها . وَلٰكِنْ ما إِنِ ٱنْقَضَتْ أَيّامٌ قَليلةٌ بَعْدَ عَوْدَتِها حَتى تَغَيَّرَتْ ، وَأَدْرَكْتُ تَمامًا ماذا كانَتْ مِينا تَقْصِدُ . إِنَّها ٱلآنَ في غايَةِ الضَّعْفِ حَتّى إِنَّها لا تَكادُ تَتَحَرَّكُ هُنا وهُناكَ إِلّا بِصُعُوبةٍ ، ثُمَّ إِنَّها تَزْدادُ سُوءًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ . إِنَّني لابُدَّ أَنْ أَعودَ إِلى لَنْدن ٱليَوْمَ ، وَلٰكِنِّي أُريدُكَ أَنْ تَذْهَبَ لِتَناوُلِ ٱلغَداءِ مَعَ آلِ وِسْتِنْرا . وَلاحِظْ أَنَّ لُوسي لَنْ تَتَحَدَّثَ عَنْ مَرَضِها عَلى مَسْمَعٍ مِنْ أُمِّها ، وَلٰكِنْ يُمْكِنُكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ تَجِدَ فُرْصةً لِرُؤْيَتِها عَلى ٱنْفِرادٍ . »

وَفي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ نَفْسِ الصَّباحِ ٱسْتَقَلَّ الدُّكْتور سيوارْد عَرَبَتَهُ إِلى هِيلِينْغدون حَيْثُ تُقيمُ أُسْرةُ وِسْتِنْرا . وَلَـمْ يَكُنْ قَدْ رَأَى لُوسي مُنْذُ أَسابيعَ ، وَلَـمْ يَكُنْ مُرْتاحًا إِلى رُؤْيَتِها ٱلآنَ ، وَلٰكِنَّه لَـمْ يَنْسَ وَعْدَهُ أَنْ يَكونَ لَها صَديقًا .

وَحِينَما قابَلَها لاحَظَ أَنَّها شاحِبةٌ وَلٰكِنْ مُبْتَسِمةٌ ، عَلى ٱلأَقَلِّ ، في أَثْناءِ ٱلغَداءِ حِينَما كانَتْ أُمُّها مَعَهُما . وَلٰكِنْ بَعْدَما ذَهَبَتِ السَّيِّدةُ وِسْتِنْرا لِتَسْتَريحَ تَخَلَّت لُوسي عَنِ

التَّظاهُرِ ، وَقالَتْ : « آهٍ ياجاك ! أنا لَسْتُ عَلى ما يُرامُ ، وَكَمْ أَوَدُّ أَنْ أَكونَ عَلى ما يُرامُ . »

فَقالَ الطَّبيبُ : « تَوَدِّينَ أَنْ تَكوني عَلى ما يُرامُ مِنْ أَجْلِ آرْثَر ؟ »

فَتَبَسَّمَتْ لُوسي في رِقَّةٍ وقالَتْ : « نَعَمْ ياجاك مِنْ أَجْلِ آرْثَر . »

فَتَكَلَّفَ سِيوارْد ابْتِسامَةً وَسَأَلَها : « لُوسي ، مِمَّ تَشْكِينَ ؟ »

فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّها تَشْكو مِنْ نَوْمٍ ثَقيلٍ أَشْبَهَ بِالْمَوْتِ .. مِنْ أَحْلامٍ مُزْعِجَةٍ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَذَكَّرَها حِينَما تَسْتَيْقِظُ .. مِنْ إِرْهاقٍ وَشُحُوبٍ .. مِنْ ضيقٍ فِي التَّنَفُّسِ ، وَإِحْساسٍ مُسْتَمِرٍّ بِالْبُرُودَةِ .

وَلَمّا فَحَصَها سِيوارْد لَمْ يَجِدْ سَبَبًا لِهٰذِهِ الأَعْراضِ ، فِيما عَدَا عَضَّتَيْ حَشَرَةٍ في عُنُقِها تَبْدُوانِ كَرِيهَتَي الْمَنْظَرِ ، كَما أَنَّ ضَغْطَ الدَّمِ كانَ مُنْخَفِضًا .

وَسَأَلَ الطَّبيبُ نَفْسَهُ : « أَتَكُونُ قَدْ فَقَدَتْ كَمِّيَّةً مِنَ الدَّمِ ؟ »

إِنَّهُ أَمْرٌ بَعيدُ الاحْتِمالِ . كُلُّ ما يُمْكِنُ عَمَلُهُ هُوَ أَنْ يَأْخُذَ بَعْضًا مِنْ دَمِها وَيُرْسِلَهُ إلى لَنْدَن لِفَحْصِهِ . وَجاءَ التَّقْريرُ في الْيَوْمِ التّالي مُتَضَمِّنًا أَنَّهُ لَيْسَ في دَمِها شَيْءٌ غَيْرُ طَبيعِيٍّ . وَتَعَجَّبَ سِيوارْد : أَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ السَّبَبُ نَفْسِيًّا ؟ أَيُمْكِنُ أَنْ تَمْرَضَ بِسَبَبِ أَنَّها تَتَوَهَّمُ أَنَّها مَريضَةٌ ؟

وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ يَشُكُّ في هٰذا الاحْتِمالِ . كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ هُناكَ أَمْرًا غَيْرَ عادِيٍّ في هٰذِهِ الحالَةِ ، وَلَيْسَ هُناكَ إِلّا رَجُلٌ واحِدٌ يَسْتَطيعُ مُعالَجَةَ الحالاتِ غَيْرِ العادِيَةِ . إِنَّهُ أُسْتاذُهُ الْقَديمُ وَصَديقُهُ ڤان هِيلْسِينْغ في أَمِسْتَرْدام . عَلى أَيِّ حالٍ ، فَإِنَّ الأَمْرَ يَبْدو خَطِيرًا ، وَمِنْ أَجْلِ لُوسي لابُدَّ أَنْ يَبْذُلَ كُلَّ مُحاوَلَةٍ مُمْكِنَةٍ . نَعَمْ سَوْفَ يَسْتَدْعي ڤان هِيلْسِينْغ .

اَلْفَصْلُ ٱلعاشِرُ

وَصَلَ ٱلْبُروفِيسور أَبْراهام ڤـان هِيلْسِينْغ إلى هِيلينْغدون بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ، وَأَقامَ فيها فَتْرَةً كافِيَةً لِفَحْصِ لُوسي الَّتي كانَ يَراها بِمُفْرَدِها ، ثُمَّ عادَ بَعْدَ ذٰلِكَ مُباشَرةً إلى أَمِسْتَرْدام . وَلَـمْ يَقُلِ ٱلْبُروفِيسور كَثِيرًا بَعْدَ فَحْصِها ، وَلٰكِنَّ سِيوارْد أَحَسَّ أَنَّهُ لَـمْ يُضَيِّعْ وَقْتَ الرَّجُلِ ٱلعَظِيمَ هَباءً ، فَقَدْ أَثارَتِ ٱلحالَةُ ٱهْتِمامَهُ ، وَطَلَبَ أَنْ يُوافَى بِتَقارِيرَ يَوْمِيَّةٍ عَنْ حالَةِ لُوسي .

وَفي ٱليَوْمِ التّالي بَدَا أَنَّ لُوسي في تَحَسُّنٍ . لَقَدْ كانَ ڤـان هِيلْسِينْغ رَقِيقًا مَعَها ، وَقَدْ وَضَعَتْ فِيهِ ثِقَتَها . وَٱلواقِعُ أَنَّ الرَّجُلَ كانَ مُحَبَّبًا إلى الشّابّاتِ الصَّغِيراتِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ بِيَوْمٍ اسْتَطاعَ الدُّكْتور سِيوارْد أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِتَقْرِيرٍ يَتَضَمَّنُ مَزِيدًا مِنَ التَّحَسُّنِ في حالَتِها ، كَما لَوْ كانَتِ السَّحابَةُ ٱلقاتِمةُ ٱلـمُخَيِّمةُ عَلَيْها قَدْ بَدَأَتْ تَنْقَشِعُ وَتَزولُ .

وَلٰكِنْ إذا كانَتْ لُوسي قَدْ بَدَأَتْ تَتَحَسَّنُ ، فَإِنَّ رِينْفِيلْد لَـمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ ، فَمُنْذُ حادِثِ هُرُوبِهِ ٱنْخَفَضَتْ مَعْنَوِيّاتُهُ إلى حَدٍّ كَبِيرٍ ، فَقَدْ كانَ يَنْزَوِي في رُكْنٍ كَتِمْثالٍ بِلا حَياةٍ ، وَلَـمْ يَكُنْ يَتَحَدَّثُ إلّا قَلِيلًا . وَلَقَدْ حاوَلَ الدُّكْتور سِيوارْد أَنْ يَحْفِزَهُ أَحْيانًا لِكَيْ يَتَكَلَّـمَ ، وَلٰكِنْ كانَ كُلُّ ما يَقُولُهُ هُوَ : « لَقَدْ تَرَكَني ! لَيْسَ هُناكَ أَمَلٌ لي ! لَقَدْ تَرَكَني . »

وَفي ٱليَوْمِ الثّالِثِ لِزِيارَةِ هِيلْسِينْغ عاوَدَ ٱلـمَرَضُ لُوسي وَاشْتَدَّ بِها حَتّى إنَّ سِيوارْد بَعَثَ بِبَرْقِيَّةٍ إِلَيْهِ يَطْلُبُ فِيها أَنْ يَأْتِيَ عَلى ٱلفَوْرِ . وَٱسْتَجابَ ٱلبُروفِيسور وَوَصَلَ في ٱلـمَساءِ التّالي حَيْثُ قادَهُ سِيوارْد إلى حُجْرَةِ لُوسي بِالطّابَقِ ٱلعُلْوِيِّ . وَكانَتْ تَبْدو في حالَةٍ سَيِّئَةٍ لَـمْ تُعْهَدْ مِنْ قَبْلُ . كانَتْ شَدِيدَةَ الشُّحوبِ ، حَتّى إنَّ شَفَتَيْها وَحَلْقَها لَـمْ يَعُدْ لَها لَوْنٌ . كانَتْ تَتَنَفَّسُ بِطَرِيقَةٍ تُثِيرُ ٱلأَسى وَٱلأَلَـمَ فِيمَنْ يَراها أَوْ يَسْمَعُها ، بَلْ إنَّها بَدَتْ وَكَأَنَّها تَكادُ تَفْقِدُ ٱلقُدْرةَ عَلى ٱلكَلامِ . وَقَدْ فَحَصَها ڤـان هِيلْسِينْغ وَهُوَ صامِتٌ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ ٱلحُجْرةِ يَتْبَعُهُ سِيوارْد . وَكانَ يُوشِكُ أَنْ يَبْدَأَ حَدِيثَهُ حِينَما طَرَقَ أَسْماعَهُما صَوْتٌ مُضْطَرِبٌ . وَإذا بِآرْثَر هُولْـمُوُد يَصْعَدُ السُّلَّـمَ وَثْبًا ، وَبادَرَ يَقولُ : « لَقَدْ عَجِلْتُ بِٱلحُضُورِ قَدْرَ ما اسْتَطَعْتُ ، وَمَبْلَغُ عِلْـمي أَنَّها أَسْوَأُ حالًا ! »

فَأَجابَ ڤـان هِيلْسِينْغ : « إِنَّها تُواجِهُ أَعْظَمَ خَطَرٍ أَيُّها الشّابُّ . »

فَصاحَ آرْثَر : « خَطَرٌ ؟ وَلٰكِنْ ماذا بِوُسْعِنا أَنْ نَفْعَلَهُ ؟ إِنَّني عَلى ٱسْتِعْدادٍ لِتَقْديمِ آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمي لِإِنْقاذِها . »

فَقالَ ٱلبُروفِيسور : « أَيُّها السَّيِّدُ ٱلعَزيزُ ، أَنا لا أَسْأَلُكَ أَنْ تُقَدِّمَ مِثْلَ هٰذا ٱلقَدْرِ . لَيْسَ آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِكَ ، وَلٰكِنْ ثِقْ أَنَّ الدَّمَ هُوَ الشَّيْءُ الَّذي تَحْتاجُ إِلَيْهِ فِعْلًا . إِنَّ ما في جَسَدِها مِنْ دَمٍ لا يَكادُ يَكْفي لِكَيْ يَظَلَّ قَلْبُها نابِضًا . إِنَّ دَمَ شابٌّ مُعافًى مِثْلِكَ هُوَ الَّذي تَحْتاجُ إِلَيْهِ . أَرْجوكَ ياسَيِّدُ هُولْـموُد ـــ وَأَظُنُّ أَنَّكَ السَّيِّدُ هُولْـموُد ـــ أَنْ تَخْلَعَ سُتْرَتَكَ فَوْرًا . لابُدَّ أَنْ تَقُومَ مُباشَرَةً بِعَمَلِيَةِ نَقْلِ دَمٍ يادُكْتور سيوارْد . »

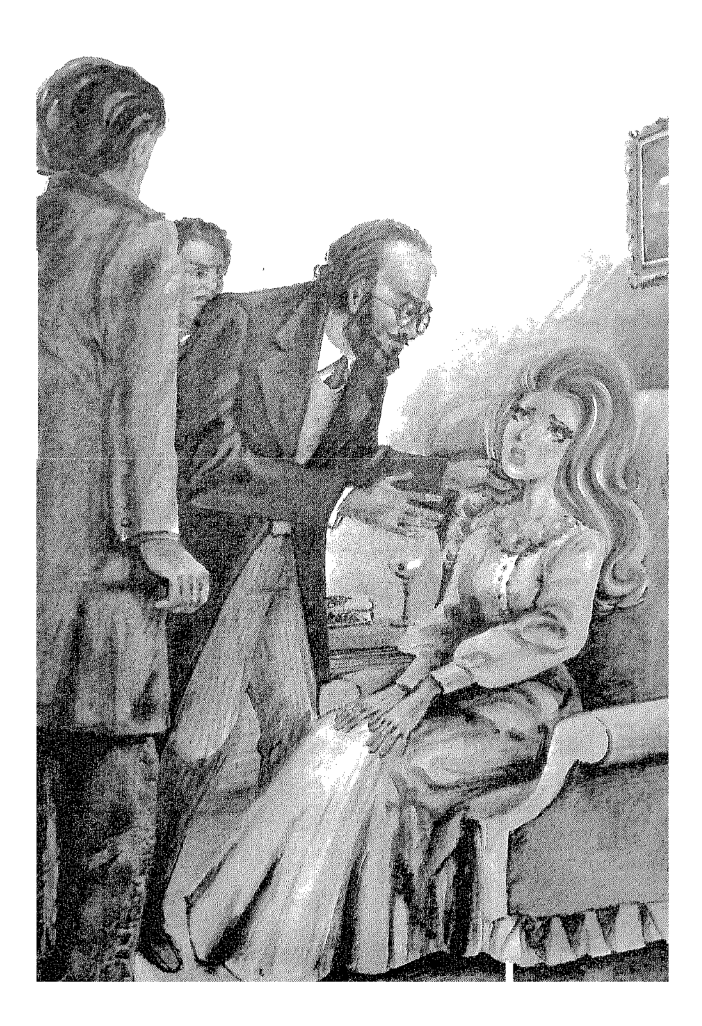
خَلَعَ آرْثَر سُتْرَتَهُ دُونَ أَنْ يَفُوهَ بِكَلِـمَةٍ ، وَبَدَأَ يَثْني كُمَّ قَميصِهِ ، وَكانَت لُوسي ٱلـمِسْكينةُ قَدْ بَلَغ مِنْها ٱلـمَرَضُ حدًّا لَـمْ تَعُدْ تَشْعُرُ مَعَهُ بِٱلفُتْحةِ الَّتي أَحْدَثَها الطَّبيبانِ في ذِراعِها لِنَقْلِ الدَّمِ إِلَيْها . وَلٰكِنْ بَعْدَ مُضِيِّ عَشْرِ دَقائِقَ بَدَأَ الدَّمُ يَتَدَفَّقُ مِنْ ذِراعِ آرْثَر إِلَيْها فَيُعيدُ اللَّوْنَ إِلى وَجْهِها الشّاحِبِ ، وَبَدَأَ تَنَفُّسُها يَنْتَظِمُ ، وَقالَ ٱلبُروفِيسور : « وَٱلآنَ ، سَنَتْرُكُ ٱلآنِسةَ لُوسي لِتَنامَ ، وَسَوْفَ أَعودُ غَدًا لِأَراها . وَلٰكِنَّ أَمامَنا شَيْئًا آخَرَ لابُدَّ أَنْ نَفْعَلَهُ قَبْلَ أَنْ نَنْصَرِفَ . »

وَنَزَلَ ٱلبُروفِيسور إِلى الطّابَقِ السُّفْليِّ ثُمَّ عادَ وَمَعَهُ صُنْدُوقٌ ، فَوَضَعَهُ فَوْقَ سَريرِ لُوسي وَقالَ لَها مُبْتَسِمًا : « هَيّا ٱفْتَحِيهِ . »

فَتَحَتْ لُوسي الصُّنْدوقَ ، وَقالَتْ وَهِيَ تَمُدُّ يَدَها لِتُخْرِجَ مِنْهُ بَعْضَ ٱلأَزْهارِ الصَّغيرَةِ ٱلبَيْضاءِ : « أَهٰذِهِ لي ؟ آهٍ يادُكْتُور ڤـان هِيلْسِينْغ ! يالَكَ مِنْ عَطُوفٍ ! »

فَرَدَّ الطَّبيبُ : « نَعَمْ ياعَزيزَتي ، إِنَّها لَكِ . وَلٰكِنَّها مِنْ أَجْلِ مَرَضِكِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَجْلِ ٱلاسْتِمْتاعِ بِها . شُمِّيها . »

فَرَفَعَتْ لُوسي ٱلأَزْهارَ إِلى أَنْفِها ، وَلَـمْ تَكَدْ تَشُمُّها حَتّى صاحَتْ : « أُفٍّ ! إِنَّها أَزْهارُ الثُّومِ . إِنَّها مِنَ الثُّومِ ٱلعادِيِّ . أَهِيَ دُعابةٌ يابُروفِيسور ؟ »



وَأَخذَتْ سِيوارْد الدَّهْشةُ حِينَ رَأى أَنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ يَضْحَكْ ، بَلْ عَلى ٱلعَكْسِ بَدا وَجْهُهُ جادًّا رَزِينًا بِصُورةٍ لَمْ يَعْهَدْها مِنْ قَبْلُ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلى يَدِ لُوسِي وَقالَ : « إِنَّها لَيْسَتْ دُعابةً . هُناكَ سَبَبٌ وَراءَ كُلِّ ما أَفْعَلُهُ ، وَأَنا أُحَذِّرُكِ : لا تَعْصِي لِي أَمْرًا أَطْلُبُهُ مِنْكِ وَإِلّا فَإِنَّكِ سَوْفَ تُعَرِّضِينَ نَفْسَكِ لِخَطَرِ ٱلـمَوْتِ . نَعَمْ ! بَلْ لِما هُوَ أَسْوَأُ . »

وَلَـمّا لاحَظَ أَنَّهُ قَدْ أَفْزَعَها بِكَلامِهِ ٱسْتَمَرَّ يقولُ بِصَوْتٍ أَرَقَّ : « لا تَخافِي ! إِنَّما أُحاوِلُ أَنْ أُساعِدَكِ . إِنَّ لِهٰذِهِ ٱلأَزْهارِ ٱلعادِيَّةِ قُوَّةً كُبْرى . » وَكانَ الَّذي فَعَلَهُ ٱلبُروفِيسور بَعْدَ ذٰلِكَ مِمّا لا يُوجَدُ في أَيِّ كِتابٍ مِنْ كُتُبِ الطِّبِّ الَّتي قَرَأَها سِيوارْد . فَقَدْ بَدَأَ بِإِغْلاقِ جَميعِ النَّوافِذِ ثُمَّ أَخَذَ بَعْدَ ذٰلِكَ حُفْنةً مِنَ ٱلأَزْهارِ وَمَسَحَ بِها النَّوافِذَ وَٱلبابَ وَٱلـمِدْفَأَةَ مَسْحًا شامِلًا .

قالَ سِيوارْد : « وَٱلآنَ يابُروفِيسور ، أَنا أَعْلَـمُ أَنَّكَ لا تَفْعَلُ شَيْئًا عَلى ٱلإِطْلاقِ إِلّا لِسَبَبٍ مُعَيَّنٍ ، وَلَعَلَّ مِنْ دَواعي سُرُورِي أَنَّهُ لَيْسَ مَعَنا ٱلآنَ طَبيبٌ آخَرُ لِيَرَى ما تَفْعَلُهُ . وَلَوْ أَنَّ مَعَنا طَبِيبًا آخَرَ لَقالَ إِنَّكَ ٱعْتَزَلْتَ مِهْنَةَ الطِّبِّ وَأَصْبَحْتَ ساحِرًا . إِنَّكَ تَبْدو كَما لَوْ كُنْتَ تُحاوِلُ أَنْ تَطْرُدَ رُوحًا شِرِّيرةً . »

فَأَجابَ ڤان هِيلْسِينْغ في هُدُوءٍ : « لَعَلِّي أَفْعَلُ ذٰلِكَ . »

قالَ ذٰلِكَ وَهُوَ يُشَكِّلُ مِنْ بَقِيَّةِ ٱلأَزْهارِ عِقْدًا ، ثُمَّ طَوَّقَ بِهِ عُنُقَ لُوسِي قائِلًا : « مَهْما يَكُنْ ما تَفْعَلِينَهُ اللَّيْلَةَ فَلا تَفْتَحِي النَّوافِذَ أَوِ ٱلبابَ وَلا تَنْزِعِي عِقْدَ ٱلأَزْهارِ مِنْ حَوْلِ عُنُقِكِ . إِنَّها مَسْأَلَةُ حَياةٍ أَوْ مَوْتٍ ! »

وَفي ٱليَوْمِ التّالي وَصَلَ ڤان هِيلْسِينْغ إِلى ٱلـمُسْتَشْفَى في السّاعةِ الثّانِيةِ لِكَيْ يَصْحَبَ دُكْتور سِيوارْد إِلى مَنْزِلِ وِسْتِنْرا ، حَيْثُ ٱسْتَقْبَلَتْهُما السَّيِّدةُ وِسْتِنْرا . قالَتِ السَّيِّدةُ : « آمُلُ أَنْ تَجِدَ لُوسِي أَحْسَنَ حالًا . لَقَدْ تَطَلَّعْتُ ٱلآنَ إِلى حُجْرَتِها فَوَجَدْتُ أَنَّها نائِمةٌ نَوْمًا هادِئًا ، وَلِذٰلِكَ لَمْ أَشَأْ أَنْ أُوقِظَها . »

فَقالَ ٱلبُروفِيسور وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ السُّرورُ : « إِذًا فَعِلاجي يَسيرُ سَيْرًا مُرْضِيًا . »

فَرَدَّتِ السَّيِّدةُ وِسْتِنْرا وَهِيَ تَبْتَسِمُ : « لَعَلَّهُ عِلاجي أَنا . لَقَدْ ذَهَبْتُ إِلى حُجْرَتِها في اللَّيْلَةِ آلـماضِيَةِ قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ لِلنَّوْمِ فَوَجَدْتُها تَنامُ في هُدُوءٍ . وَلٰكِنْ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ هَواءٌ نَقِيٌّ في آلحُجْرَةِ ، وَكانَتْ تَنْتَشِرُ فيها رائِحَةٌ نَفّاذَةٌ مُنْبَعِثَةٌ مِنْ بَعْضِ أَزْهارٍ حَوْلَ عُنُقِها ، فَفَكَّرْتُ أَنَّ ذٰلِكَ سَوْفَ يَضُرُّ بِالطِّفْلَةِ آلـمِسْكينةِ وَهِيَ في هٰذِهِ آلحالِ مِنَ الضَّعْفِ ، لِذٰلِكَ آسْتَبْعَدْتُ آلأَزْهارَ وَفَتَحْتُ النّافِذَةَ قَليلًا . أَعْتَقِدُ أَنَّكَ سَوْفَ تُسَرُّ حِينَ تَراها . أَنا واثِقَةٌ . »

وَما إِنْ سَمِعَ فـان هِيلْسِينْغ قَوْلَها حَتّى آكْتَسَى وَجْهُهُ بِشُحوبٍ كَشُحوبِ آلـمَوْتَى ، وَلَـمْ يَقُلْ شَيْئًا ، وَلٰكِنَّ سِيوارْد لاحَظَ أَنَّ الرَّجُلَ يُحاوِلُ أَنْ يُخْفِيَ مَشاعِرَهُ . كانَ آلبُروفِيسور عَلى عِلْمٍ بِآلحالِ الصِّحِّيَّةِ لِلسَّيِّدةِ وِسْتِنْرا ، وَيَعْلَـمُ آلخَطَرَ الَّذي يَتَهَدَّدُها إِذا فُوجِئَتْ بِما يَصْدِمُها . وَلٰكِنْ ما إِنْ غادَرَتِ آلحُجْرَةَ حَتّى صَعِدا السُّلَّمَ وَثْبًا إِلى حُجْرَةِ لُوسِي . وَبَيْنَما كانَ دُكْتور سِيوارْد يُزيحُ السَّتائِرَ كانَ فـان هِيلْسِينْغ يَنْحَني فَوْقَ لُوسِي الَّتي كانَتْ لا تَزالُ نائِمَةً . قالَ آلبُروفِيسور وَهُوَ يَنْظُرُ إِلى وَجْهِها الشّاحِبِ :

« هٰذا ما كُنْتُ أَخْشاهُ . وَلٰكِنَّها ، عَلى آلأَقَلِّ ، لَـمْ تَفْقِدِ آلكَثيرَ في هٰذِهِ آلـمَرَّةِ . جاك ، إِنَّني مُضْطَرٌّ إِلى آلعَوْدَةِ إِلى أَمِسْتَرْدام آليَوْمَ . وَعَلَيْكَ أَنْ تَنام في هٰذا آلـمَنْزِلِ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَسَوْفَ أَبْعَثُ بِصَنادِيقَ مِنْ أَزْهارِ الثُّومِ الطّازَجَةِ كُلَّ يَوْمٍ ، فَآفْعَلْ كَما فَعَلْتُ أَنا في اللَّيْلَةِ آلـماضِيَةِ تَمامًا . سَوْفَ أَعودُ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيّامٍ أَوْ قَبْلَ ذٰلِكَ إِذا دَعَتِ آلحالُ ، فَقُمْ عَلى حِراسَتِها بِعِنايَةٍ . »

فَسَأَلَ سِيوارْد : « عَلى حِراسَتِها ؟ أَحْرُسُها مِنْ ماذا ؟ أَوْ مِمَّنْ ؟ »

قالَ ذٰلِكَ وَهُوَ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ آلخَوْفِ وَعَدَمِ آلاطْمِئْنانِ ، فَقالَ آلبُروفِيسور : « آلأَحْسَنُ ياجاك أَنْ تَقولَ مِمَّنْ . لَقَدْ كُنْتَ دائِمًا طالِبًا حاضِرَ آلبَديهَةِ وَلٰكِنَّ أَمامَكَ آلكَثيرَ مِمّا تَتَعَلَّمُهُ . »

قالَ هٰذا ثُمَّ ذَهَبَ .

اَلْفَصْلُ ٱلحادي عَشَرَ

كانَتِ ٱلأَيّامُ ٱلقَليلةُ التّالِيةُ قاسِيةً بِالنِّسْبةِ لِلدُّكْتور جاك سيوارْد . كانَ يَقْضي وَقْتَهُ بَيْنَ ٱلـمُسْتَشْفى نَهارًا وهِيلِينْغدون لَيْلًا ، وَلَقَدْ كانَ مِنَ ٱلـمُمْكِنِ أَنْ تَكونَ ٱلـمُهِمّةُ أَيْسَرَ لَوْ أَنّه كانَ يَعْلَمُ مِمَّ يَحْرُسُ لُوسِي ، وَلٰكِنَّ فـان هِيلْسِينْغ لَـمْ يَذْكُرْ لَهُ ما يُوَضِّحُ ٱلأَمْرَ .

وَفي صَبيحَةِ كُلِّ يَوْمٍ كانَ صُنْدوقٌ مِنْ زُهورِ الثُّومِ الطّازَجةِ يَصِلُ مِنْ هولَنْده في بَريدٍ خاصٍّ ، وَكانَ سيوارْد يَفْعَلُ بِها مِثْلَـما فَعَلَ ٱلبْروفِيسور في أَوَّلِ لَيْلةٍ تَمامًا . وَلَـمْ يَكُنْ مَيّالًا إلى هٰذِهِ ٱلعَمَلِيّةِ ؛ إذْ كانَتْ تَبْدو غَيْرَ قائِمةٍ عَلى أُساسٍ عِلْميٍّ . وَكانَ الدُّكْتور سيوارْد مِنَ ٱلأَطِبّاءِ الَّذين يَلْتَزِمونَ بِٱلعِلْـمِ ، وَلٰكِنَّ الظَّواهِرَ كانَتْ تَدُلُّ عَلى أَنَّ ٱلعَمَلِيّةَ مُجْدِيةٌ ، فَقَدْ أَخَذَ وَجْهُ لُوسِي يَسْتَرِدُّ لَوْنَه الطَّبيعيَّ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، بَلْ إنَّ ٱلجُرْحَيْنِ الصَّغيرَيْنِ اللَّذَينِ في عُنُقِها أَخَذا يَلْتَئِمانِ . وَلٰكِنَّ اللَّيالِي كانَتْ مُرْهِقةً لَهُ ، فَقَدِ ٱسْتَيْقَظَ عِدّةَ مَرّاتٍ عَلى أَصْواتٍ غَريبَةٍ كانَ يَبْدو أَنَّها آتِيةٌ مِنْ خارِجِ نافِذةِ لُوسِي ، وَفي أَوَّلِ ٱلأَمْرِ كانَ يَظُنُّ أَنَّهُ غُصْنُ شَجَرَةٍ يَحْتَكُّ بِالنّافِذةِ بِسَبَبِ الرِّيحِ ، وَلٰكِنَّهُ في اللَّيْلةِ التّالِيةِ تَأَكَّدَ أَنّه لا تُوجَدُ شَجرةٌ ، وَكانَ الصَّوْتُ يَبْدو في بَعْضِ اللَّيالي أَشْبَهَ بِرَفْرفةِ أَجْنِحةٍ .

وَكَذٰلِكَ كانَ رِينْفِيلْد سَبَبًا فِي بَعْضِ ٱلـمَتاعِبِ ، فَفي أَحَدِ ٱلأَيّامِ جاءَ في تَقْريرِ دُكْتُور هِينِسي مُساعِدِ الدُّكْتور سيوارْد أَنَّ رِينْفِيلْد قَدْ هاجَمَ رَجُلَيْنِ عَلى حِينِ غَفْلةٍ . كانَ يَسيرُ في ٱلحَديقَةِ مَعَ ٱلـمُمَرِّضِ ٱلـمُكَلَّفِ بِرِعايَتِهِ حِينَما لَـمَحَ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَسُوقانِ عَرَبةً في الطَّريقِ ٱلقادِمِ مِنْ كارْفاكْس فَٱنْقَضَّ عَلَيْهِما ، وَتَدَخَّلَ ٱلـمُمَرِّضُ بِسُرْعةٍ وَجَذَبَ رِينْفِيلْد بَعِيدًا عَنِ الرَّجُلَيْنِ . وَرَأَى الدُّكْتور هِينِسي أَنَّهُ قَدْ يَكونُ مِنَ ٱلحِكْمةِ أَنْ يَمْنَحَ الرَّجُلَيْنِ بَعْضَ النُّقودِ ، وَأَنْ يَحْتَفِظَ بِٱسْمَيْهِما مِنْ قَبيلِ ٱلاحْتِياطِ فِيما لَوْ حَدَثَتْ فيما بَعْدُ أَيَّةُ مُشْكِلةٍ .

وَفي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ مِنْ إحْدَى اللَّيالي كانَ سيوارْد يَجْلِسُ في مَكْتَبِهِ يُلْقي نَظْرةً عَلى صَحيفَةِ ٱلـمَساءِ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ إلى هِيلِينْغدون كَعادَتِهِ . كانَ يَقْرأُ في الصَّحيفةِ قِصّةَ ذِئْبٍ كانَ قَدْ هَرَبَ تَوًّا مِنْ حَديقةِ ٱلحَيوانِ بِلَنْدَن ، وَكانَ النُّعاسُ يَكادُ يَغْلِبُهُ بِسَبَبِ ٱلإرْهاقِ الَّذي حَلَّ بِهِ مِنْ كِتابةِ التَّقاريرِ ، وَلِذٰلِكَ بَدا كَأَنَّما يَرى في ٱلـمَنامِ الذِّئْبَ يَقْتَحِمُ ٱلحُجْرةَ . وَفَجْأَةً

فُتِحَ ٱلبابُ ، وَحَدَثَ اقْتِحامٌ فِعْلًا — في ٱلحَقيقةِ لا في ٱلـمَنامِ — لَـمْ يَكُنِ ٱلـمُقْتَحِمُ ذِئْبًا ، وَإنمَّا كانَ رِينْفِيلْد وَهُوَ يَبْدو في ضَراوةِ الذِّئْبِ ، وَفي يَدِهِ شَيْءٌ يَلْـمَعُ . وَصاحَ سِيوارْد : « آهِ يا إلٰهي ! »

لَقَدْ كانَ رِينْفِيلْد يُمْسِكُ في يَدِهِ بِسِكِّينِ مَطْبَخٍ . وَحاوَلَ سِيوارْد أَنْ يَجْعَلَ ٱلـمِنْضَدَةَ حائِلًا بَيْنَهُما ، وَلٰكِنَّ رِينْفِيلْد كانَ أَسْرَعَ فَوَجَّه ضَرْبَةً إلى ذِراعِهِ ٱليُسْرَى ، فَبادَرَ سِيوارْد وَٱلْتَقَطَ بِيُمناهُ ٱلحَجَرَ الثَّقيلَ ، الَّذي يُثَبِّتُ بِهِ ٱلأَوْراقَ ، مِنْ فَوْقِ ٱلـمَكْتَبِ وَبادَرَهُ بِضَرْبَةٍ بِهِ طَرَحَتْهُ أَرْضًا ، فَتَمَدَّدَ الرَّجُلُ وَوَجْهُهُ إلى ٱلأَرْضِ بَعْدَ أَنْ طارَ السِّكِّينُ مِنْ يَدِهِ ، وَهٰكَذا ذَهَبَتْ لَحْظةُ ٱلخَطَرِ . وَبَيْنَما كانَ سِيوارْد واقِفًا في ذُهُولٍ مِمّا حَدَثَ ، قابِضًا ذِراعَهُ ٱلـمَجْروحةَ ، سَمِعَ وَقْعَ أَقْدامِ رِجالِهِ وَهُمْ يَجْرُونَ في الدِّهْليزِ . كانَ يَشْعُرُ بِٱلأَلَـمِ ، وَالدِّماءُ تَنْزِفُ مِنْ جُرْحِهِ عَلى ٱلأَرْضِ حَيْثُ يَرْقُدُ رِينْفِيلْد .

وَحِينَما دَخَلَ ٱلحُرّاسُ ٱلحُجْرةَ رَفَعَ رِينْفِيلْد رَأْسَهَ فَكَشَفَ فَمَهُ ٱلـمُلَطَّخَ بالدَّمِ ، إذْ كانَ يَشْرَبُ — وَهُوَ مُلْقًى عَلى ٱلأَرْضِ — مِنْ دِماءِ الطَّبيبِ الَّتي كانَتْ تَقْطُرُ فَوْقَ أَرْضِيَّةِ ٱلحُجْرةِ . وَبَيْنَما كانُوا يَقودُونَهُ بَعيدًا كانَ يَصْرُخُ قائِلًا : « الدَّمُ هُوَ ٱلحَياةُ . »

وَغَشِيَ سِيوارْد إحْساسٌ بِٱلغَثَيانِ ، وَٱمْتَدَّتِ ٱلأَيْدي إلَيْهِ لِتَحولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّقوطِ ، ثُمَّ غابَ عَنِ ٱلوَعْيِ فَلَـمْ يَذْكُرْ شَيْئًا .

حينَما تَنَبَّهَ سِيوارْد كانَ يَجْلِسُ في سَريرِهِ وَهُوَ يَشْعُرُ بِالضَّعْفِ وَٱلوَهْنِ . وَلَعَلَّهُ فَقَدَ مِنَ الدِّماءِ أَكْثَرَ مِمّا كانَ يَعْتَقِدُ ، وَلَـمّا نَظَرَ في ساعَتِهِ وَجَدَ أَنَّها ٱلعاشِرةُ ، وَهُوَ ٱلوَقْتُ الَّذي كانَ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ فِيهِ في هِيلِينْغدون ، وَلٰكِنْ هَلْ عافِيَتُهُ تَسْمَحُ لَهُ بِالذَّهابِ ؟ وَدَخَلَ الدُّكْتور هِينِسي ٱلحُجْرَةَ وَقالَ :

« هِيلِينْغدون ؟ مُسْتَحيلٌ ياعَزيزي سِيوارْد . إنَّهُ واجِبي الَّذي لا مِراءَ فِيهِ — كَطَبيبٍ — أَنْ أُخبِرَكَ بِضَرورَةِ ٱلبَقاءِ في ٱلفِراشِ . »

وَأَخيرًا ٱتُّفِقَ أَنْ يَذْهَبَ ٱلدُّكْتور هِينِسي بِنَفْسِهِ إلى هِيلِينْغدون ، قَبْلَ أَنْ يَنامَ ، لِيَزورَ مَنْزِلَ وِسْتِنْرا .

كانَ لابُدَّ أَنْ يَقْضِيَ شَخْصٌ مَا اللَّيْلَ هُناكَ . وَلٰكِنَّ سِيوارْد لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ هِينسِي الكَثِيرَ عَنْ حالَةِ لُوسِي ، إِذْ إِنَّ ٱلبُروفِيسور كانَ قَدْ أُعْطَى تَعْلِيماتِهِ حِينَ قالَ : « الَّذِي حَدَثَ فِي هِيلِينْغدون يَجِبُ أَنْ يَبْقَى سِرًّا لا يُذاعُ . » وَفَوْقَ هٰذا ، فَإِنَّ سِيوارْد لَمْ يَشَأْ أَنْ يَعْرِفَ ٱلأَطِبّاءُ ٱلآخَرونَ شَيْئًا عَنْ هٰذا « السِّحْرِ » الَّذِي يُمارَسُ عَنْ طَرِيقِ « زُهورِ الثُّومِ » . وَلِذٰلِكَ ، وَرَغْبَةً فِي ٱلتَّسَتُّرِ طَلَبَ ٱلدُّكْتور هِينِسِي أَنْ يُخْبِرَ لُوسِي بِأَنْ تَقومَ بِعَمَلِ ٱلإِجْراءَاتِ الـمَعْهودَةِ ، عَلَى أَمَلِ أَنْ تَفْهَمَ هِيَ ما يُرِيدُ .

لَـمْ يَنَمْ سِيوارْد فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ نَوْمًا مُرِيحًا بِذِراعِهِ الـمَجْروحَةِ ، وَحِينَما أَدْرَكَهُ النُّعاسُ أَخِيرًا لَـمْ يَهْنَأْ بِالرّاحَةِ إِلّا قَلِيلًا ، إِذْ إِنَّ بَرْقِيَةً وَصَلَتْ فِي ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ . وَقالَ الصَّبِيُّ الَّذِي حَمَلَها إِنَّ ٱلبَرْقِيَّةَ كانَ يَنْبَغِي أَنْ تُسَلَّمَ فِي مَساءِ ٱليَوْمِ السّابِقِ لَوْلا أَنَّها أُرْسِلَتْ خَطَأً إِلى قَرْيَةٍ أُخْرَى تَحْمِلُ نَفْسَ ٱلِاسْمِ . وَجاءَ فِي ٱلبَرْقِيَّةِ :

« اِحْرِصْ عَلَى وُجودِكَ فِي هِيلِينْغدون اللَّيْلَةَ . إِنَّ ٱلأَمْرَ فِي غايَةِ ٱلأَهَمِّيَّةِ . سَوْفَ أَصِلُ مُبَكِّرًا فِي صَباحِ التّاسِعَ عَشَرَ . »

قـان هِيلْسِينْغ

وَصاحَ سِيوارْد : « يالَلسَّماءِ ! إِنَّهُ يَقْصِدُ اللَّيْلَةَ الـماضِيَةَ . تُرَى ماذا كانَ قـان هِيلْسِينْغ يَعْنِي ؟ » وَلَـمْ يَنْتَظِرْ لِتَناوُلِ ٱلإِفْطارِ ، وَإِنَّما ٱسْتَقَلَّ ٱلعَرَبَةَ مُباشَرَةً إِلى هِيلِينْغدون . وَكانَ ٱلوَقْتُ لا يَزالُ مُبَكِّرًا ، وَلَـمْ يَشَأْ أَنْ يُوقِظَ لُوسِي أَوْ والِدَتَها ، وَلِذٰلِكَ دَقَّ ٱلجَرَسَ بِرِفْقٍ لَعَلَّ إِحْدَى الخادِماتِ تَسْمَعُهُ فَتَفْتَحَ لَهُ ٱلبابَ ، وَلٰكِنْ لَـمْ تَكُنْ هُناكَ ٱسْتِجابَةٌ ، فَدَقَّ ٱلجَرَسَ مَرَّةً ثانِيَةً دُونَ جَدْوَى . فَدَسَّ أُذُنَهُ فِي صُنْدُوقِ ٱلخِطاباتِ لَعَلَّهُ يَسْمَعُ أَوْ يَرَى شَيْئًا ، وَلٰكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ كانَ فِي صَمْتِ ٱلقُبورِ . فَأَحَسَّ فِي قَرارَةِ نَفْسِهِ أَنَّ أَمْرًا سَيِّئًا قَدْ حَدَثَ ، وَأَخَذَ يَدورُ حَوْلَ ٱلمَنْزِلِ لَعَلَّهُ يَجِدُ نافِذَةً مَفْتوحَةً . وَلٰكِنَّ تَعْلِيماتِ ڤان هِيلْسِنْغ كانَتْ تُنَفَّذُ بِدِقَّةٍ ، وَكُلُّ الـمَنافِذِ كانَتْ مُوصَدَةً بِعِنايَةٍ وَإِحْكامٍ . وَمازالَ حَتَى وَصَلَ إِلى حُجْرَةِ السَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا الَّتِي اخْتِيرَتْ لِتَكون فِي الطّابَقِ ٱلأَرْضِيِّ لِكَيْ تَتَجَنَّبَ صُعودَ السُّلَّمِ لِـمَرَضِها . وَفُوجِئَ بِأَنَّ نافِذَةَ ٱلحُجْرَةِ مُحَطَّمَةٌ ، وَأَنَّ فَوْقَ زُجاجِها بَعْضَ قَطَراتٍ مِنَ

الدَّمِ ، وَأَنَّ هُناكَ آثارَ أَقْدامِ حَيَوانٍ في حَوضِ الزُّهورِ الَّذي يَقَعُ تَحْتَ النّافِذةِ ، وَمِنَ آلـمُحْتَملِ أَنْ تَكونَ آثارَ أَقْدامِ كَلْبٍ ، أَوْ لَعَلَّها ـــ وَإِنْ بَدَتِ آلفِكْرةُ سَخيفةً ـــ آثارُ أَقْدامِ ذِئْبٍ .

وَأَخَذَ سِيوارْد يَتَطَلَّعُ فِيما حَوْلَهُ . وَكانَ آلهُدوءُ يَسودُ آلـمَنْزِلَ وَآلحَديقةَ بِطَريقةٍ غَيْرِ عادِيّةٍ . وَآنْحَنى لِكَيْ يَتَأَمَّلَ في آثارِ آلأَقْدامِ بِعنايةٍ أَكْثَرَ ، وَإِذا بِهِ يَسْمَعُ فِي نَفْسِ اللَّحْظةِ صَوْتًا يَجيءُ مِنْ خَلْفِهِ ، فَهَبَّ واقِفًا ، مُتَأَهِّبًا لِلدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ أَمامَهُ إِلّا فـان هِيلْسِينْغ ، فَقَصَّ عَلَيْهِ في عِباراتٍ مُوجَزَةٍ ما حَدَثَ بِشأْنِ رِينْفِيلْد وَآلبَرْقِيّةِ الَّتي تَلَقّاها .

قالَ فـانِ هِيلْسِينْغ وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ خِلالَ النّافِذةِ آلـمُحَطَّمةِ : « أَخْشى أَنْ نَكونَ قَدْ وَصَلْنا بَعْدَ فواتِ آلأَوانِ . »

ثُمَّ فَتَحَ النّافِذةَ ، وَتَسَلَّقَ كِلاهُما واحِدًا بَعْدَ آلآخَرِ إِلى الدّاخِلِ . كانَتْ لُوسي وَأُمُّها مُمَدَّدَتَيْنِ فَوْقَ السَّريرِ ، وَكانَتْ تَبْدو عَلى وَجْهِ السَّيِّدةِ وِسْتِنْرا نَظْرةُ رُعْبٍ رَهيبةٍ لَـمْ يَرَ سِيوارْد مِثْلَها قَطُّ ، فَلَـمّا جَسَّ يَدَها وَجَدَ أَنَّها مَيِّتةٌ . وَكانَتْ تَقْبِضُ بِيَدِها آلأُخْرى بِقُوّةٍ على عِقْدٍ مِنَ الزُّهورِ . وَلابُدَّ أَنَّها ـــ في لَحْظةِ فَزَعٍ ـــ اسْتَطاعَتْ أَنْ تَصِلَ إِلى آبْنَتِها ، وَأَنْ تَمُدَّ يَدَها فَتَنْتَزِعَ الزُّهورَ الَّتي كانَتْ حَوْلَ عُنُقِها .

كانَتْ لُوسي تَرْقُد بِجِوارِها ، وَكانَ آلجُرْحانِ اللَّذانِ فِي عُنُقِها ، وَاللَّذانِ كانا قَدْ بَدَآ يَلْتَئِمانِ ، مَفْتوحَيْنِ عَلى سِعَةٍ ، وَفيهِما مَظْهَرُ الشَّيْءِ آلـمَنْهوشِ . وَأَمْسَكَ فـان هِيلْسِينْغ يَدَها وَوَضَعَ أُذُنَهُ مُلاصِقةً لِصَدْرِها ، وَمَضَتِ الثَّواني كَأَنَّها ساعاتٌ قَبْلَ أَنْ يَهْتِفَ قائِلًا : « لَـمْ يَفُتِ آلأَوانُ بَعْدُ . أَسْرِعْ وَهاتِ بَعْضَ آلكُحُولِ . »

وَهُرِعَ سِيوارْد إِلى حُجْرةِ الطَّعامِ ، فَرَأَى فِيها مَنْظَرًا أَزالَ الدَّهْشةَ الَّتي كانَتْ تَمَلَّكَتْهُ حِينَ دَقَّ آلجَرَسَ دُونَ مُجيبٍ . رَأَى آلخادِماتِ مُمَدَّداتٍ عَلى آلأَرْضِ ، فَآنْحَنى فَوْقَهُنَّ لِيَشُمَّ رائِحةَ أَنْفاسِهِنَّ ، فَآكْتَشَفَ أَنَّ مُخَدِّرًا قَدْ وُضِعَ في شَرابِهِنَّ فَجَعَلَهُنَّ يَسْتَغْرِقْنَ في النَّوْمِ . وَأَخَذَ سِيوارْد زُجاجةً وعَادَ إِلى حُجْرةِ النَّوْمِ حَيْثُ أَخَذَ فـان هِيلْسِينْغ يُدَلِّكُ بِالسّائِلِ

يَدَيْ لُوسي وَذِراعَيْها وَوَجْهَها ، وَحِينَئِذٍ أَخْبَرَهُ سِيوارْد بِما حَدَثَ لِلْخادِماتِ ، فَقالَ لَهُ ڤـان هِيلْسِينْغ :

« اِذْهَبْ فَنَبِّهْهُنَّ ، فَنَحْنُ فِي حاجَةٍ إِلى ماءٍ ساخِنٍ ، إِذْ لابُدَّ أَنْ تَبْقَى لُوسي دافِئَةً ، ثُمَّ اسْتَدْعِ السَّيِّد هُولْمُود فَرُبَّما اسْتَطَعْنا أَنْ نُنْقِذَها . ولٰكِنْ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ مُسْتَعِدًّا لِلأَسْوَإِ . »

وَلَـمّا كانَتْ لُوسي فِي حالَةِ إِغْماءٍ شَديدٍ فَقَدْ رَأَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَتِها أَنْ يَنْقُلَ إِلَيْها دَمًا طازَجًا ، وَلِذٰلِكَ آثَرَ أَنْ يَتْرُكَها فِي نَوْمِها ، وَجَلَس سِيوارْد يُراقِبُها . وَكانَ مِنَ ٱلْغَريبِ أَنَّ هُزالَها جَعَلَ أَسْنانَها تَبْدُو أَطْوَلَ وَأَحَدَّ مِمّا كانَتْ مِنْ قَبْلُ . وَلٰكِنْ حِينَما فَتَحَتْ عَيْنَيْها أَخيرًا بَدَتِ ٱلْفَتاةَ الشّابَّةَ ٱلْبَديعةَ الَّتِي كانَ يَعْرِفُها وَيُحِبُّها .

كانَ آرْثر شُجاعًا ، فَقَدْ جَلَسَ مَعَ لُوسي طَوالَ ٱلْوَقْتِ وَلَـمْ تَكْشِفْ مَلامِحُ وَجْهِهِ عَمّا كانَ يَعْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ مِنْ حُزْنٍ وَأَسًى . وَدَخَلَ ڤـان هِيلْسِينْغ بَعْدَ ذٰلِكَ وَطَلَبَ مِنْهُ الذَّهابَ إِلى حُجْرَةِ ٱلْجُلُوسِ لِيُحاوِلَ أَنْ يَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ النَّوْمِ ، عَلى حِينَ بَقِيَ سِيوارْد مَعَ لُوسي .

وفِي حَوالَى السّاعَةِ السّادِسةِ صَباحًا دَخَلَ ڤـان هِيلْسِينْغ حَتّى يُتيحَ لَهُ فُرْصةً لِلرّاحةِ ، ثُمَّ حَلَّ ٱلـمِنْديلَ ٱلْحَريريَّ الَّذي كانَ قَدْ عَقَدَهُ حَوْلَ عُنُقِها وَهَتَفَ : « اُنْظُرْ . »

وَتَطَلَّعَ سِيوارْد إِلَيْها فَتَمَلَّكَهُ شُعورٌ غَريبٌ بارِدٌ ، إِذْ رَأَى أَنَّ ٱلْجُرْحَيْنِ اللَّذَيْنِ كانَا حَوْلَ عُنُقِها قَدِ ٱخْتَفَيا تَمامًا ، فَقالَ ڤـان هِيلْسِينْغ فِي أَسًى : « إِنَّها تَموتُ ٱلآنَ . إِنَّها لَحَظاتٌ وَتُفارِقُ ٱلْحَياةَ . اِذْهَبْ فَأَيْقِظْ صَديقَها الشّابَّ حَتَّى يَكونَ بِجِوارِها فِي هٰذِهِ اللَّحْظَةِ . »

وَأَخَذَ ڤـان هِيلْسِينْغ ــ بِما يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ كِياسةٍ وَتَقْديرٍ ــ يُسَرِّحُ شَعْرَها حَتَّى أَصْبَحَ مُرْسَلًا حَوْلَ رَأْسِها فِي مَوْجاتٍ ذَهَبِيَّةٍ ، وَحِينَما جاءَ آرْثَر فَتَحَتْ عَيْنَيْها وَقالَتْ فِي صَوْتٍ خافِتٍ : « آرْثَر ياحَبيبي ! »

فَانْحَنَى آرْثَر لِيُقَبِّلَها ، وَلٰكِنَّ ڤـان هِيلْسِينْغ الَّذي كانَ يُراقِبُهُ عَنْ كَثَبٍ سارَعَ فَأَوْقَفَهُ قائِلًا : « لا ! لَيْسَ ٱلآنَ ! أَمْسِكْ بِيَدِها فَقَطْ . »

وَأَغْمَضَتْ لُوسي عَيْنَيْها ، وَبَدا عَلَيْها النُّعاسُ ، وَلاحَظَ سيوارْد لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ التَّغَيُّراتِ الغَريبَةَ الَّتي كانَتْ قَدْ طَرَأَتْ عَلَيْها في أَثْناءِ اللَّيْلِ : الْجِلْدَ الْمَشْدودَ ، وَالْفَمَ الْمَفْتوحَ ، وَالأَسْنانَ الطَّويلَةَ الحادَّةَ .

ثُمَّ تَكَلَّمَتْ لُوسي ثانِيَةً في صَوْتٍ ناعِسٍ رَقيقٍ : « أَرْثَر ، قَبِّلْني . »

وَعِنْدَما انْحَنى أَرْثَر عَلَيْها فَتَحَتْ عَيْنَيْها ، وَعِنْدما رَأى سيوارْد كَيْفَ أَصْبَحَتْ عَيْناها أُصيبَ بِصَدْمةٍ فَقَدْ أَصْبَحَتا جامِدَتَيْنِ مُتَحَجِّرَتَيْنِ . أَمَّا فان هِلْسِينْغ فَقَدْ لاحَظَ شَيْئًا جَعَلَهُ يُسارِعُ إلى أَرْثَر قَبْلَ أَنْ يُقَبِّلَها فَيَجْذِبَهُ إلى الوراءِ بِكُلِّ ما أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ وهُوَ يَهْتِفُ : « لا مِنْ أَجْلِ حَياتِكَ ! مِنْ أَجْلِ رُوحِكَ الحَيَّةِ ! »

كانَ سيوارْد يُرَكِّزُ عَيْنَيْه عَلى وَجْهِ لُوسي ، فَشاهَدَ ظِلًّا مِنَ الغَضَبِ يَمُرُّ عَبْرَ وَجْهِها ، وَرَأى أَسْنانَها الحادَّةَ تَنْطَبِقُ . وَلَمْ تَمْضِ إلَّا هُنَيْهةٌ حَتّى عادَتْ إلى ما كانَتْ عَلَيْهِ : الْفَتاةَ الشّاحِبَةَ الْمَنهوكَةَ الْمُشْرِفَةَ عَلى الْمَوْتِ . وَحاوَلَتْ أَنْ تَبْتَسِمَ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ القُوَّةَ لِتَبْتَسِمَ . كانَ الأَمْرُ كَما لَوْ أَنَّ هُناكَ اثْنَتَيْنِ مِنْ لُوسي تَعيشانِ في بَدَنٍ واحِدٍ .

وَقالَ فان هِلْسِينْغ في صَوْتٍ رَقيقٍ لِأَرْثَر : « تَعالَ يابُنَيَّ ، خُذْ يَدَها في يَدِكَ وَقَبِّلْها الآن ، وَلٰكِنْ لَيْسَ في الشَّفَتَيْنِ وَلْتَكُنْ قُبْلَةً واحِدةً . »

وَفَعَلَ أَرْثَر كَما قالَ ، وَما لَبِثَتْ أَجفانُ لُوسي أَنِ انْطَبَقَتْ ، وَصارَ تَنَفُّسُها ثَقيلًا ، حَتّى تَوَقَّفَتْ أَنْفاسُها أَخيرًا .

وَقالَ سيوارْد في صَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « لَقَدِ انْتَهى كُلُّ شَيْءٍ . »

فَرَدَّ فان هِلْسِينْغ : « لا ! كُنْتُ أَتَمَنّى أَنْ تَكونَ هٰذِهِ هِيَ النِّهايَةَ ، وَلٰكِنَّها ـــ فَقَطْ ـــ مُجَرَّدُ بِدايَةٍ . »

اَلْفَصْلُ آلثّاني عَشَرَ

لَمْ يَكُنْ لِلُوسي وَأُمِّها أُسْرَةٌ تَتَوَلّى شُؤُونَ آلجِنازَةِ ، وَقَدْ وافَقَ مُحامِيها عَنْ طِيبِ خاطِرٍ عَلى أَنْ يَقومَ الدُّكْتور سيوارْد بِهٰذِهِ آلـمُهِمَّةِ ، وَحُدِّدَ لَها آليَومُ التّالي . وَحَتّى حُلولِ مِيعادِ آلجِنازَةِ كانَتْ لُوسي تَرْقُدُ في حُجْرَتِها بَيْنَ طاقاتٍ كَثيرةٍ مِنَ الزُّهورِ آلبَيْضاءِ وَشُموعٍ بَيْضاءَ طَويلَةٍ ، وَقَدْ عادَ إِلَيْها بَعْدَ مَوْتِها كُلُّ ما كانَتْ تَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ جَمالٍ . بَلْ إِنَّها كانَتْ أَجْمَلَ بَعْدَ آلـمَوْت ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَذْوِي جَسَدُها بِآلـمَوْتِ ، كانَ ـــ كُلَّما مَضَتِ السّاعاتُ ـــ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ يَعودُ إِلى آلحَياةِ .



وَفي هٰذا ٱلـمَساءِ ، وَبَيْنَما كانَ سِيوارْد يَقِفُ مع فـان هِيلْسِينْغ أَمامَ ٱلجُثّةِ تَصِلُ إِلَيْهِما الرّائِحة ٱلعَطِرةُ الّتي تَنْشُرُها ٱلأَزْهارُ وَالشُّموعُ ٱلـمُحْتَرِقةُ ، قالَ سِيوارْد : « أَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُصَدِّق أَنَّني أَنْظُرُ إلى جَسَدٍ مَيِّتٍ . »

فَرَدَّ فـان هِيلْسِينْغ : « لَعَلَّ مِنَ ٱلخَيْرِ أَنْ تُفكِّرَ في ٱلأَمْرِ هٰكَذا . »

وَتَرَك فـان هِيلْسِينْغ ٱلحُجْرةَ ، ثُمَّ عادَ وَمَعَهُ صُنْدوقُ أَزْهارِ الثُّومِ الّذي وَصَلَ ذٰلِكَ الصَّباحَ مِنْ هولَنْده كَٱلعادةِ ، وَقالَ : « إِنَّ واجِبَنا نَحْوَها لَـمْ يَنْتَهِ بِٱلـمَوْتِ . »

وَصَلَ آرْثَر مُبَكِّرًا في صَباحِ يَوْمِ ٱلجنازةِ ، وَكانَتْ رُوحُهُ ٱلـمَعْنَوِيّةُ في غايَةِ السُّوءِ ، وَكانَ في أَشَدِّ ٱلحاجةِ لِكُلِّ عَوْنٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَهُ أَصْدِقاؤُهُ . دَخَلَ مَعَهُمْ لِكَيْ يَرَى لُوسِي ، وَأَخَذَتْهُ الدَّهْشةُ لِلْـمَرّةِ ٱلثّانيةِ مِنْ مَظْهَرِها . فَلَقَدْ بَدا جَمالُها رائِعًا ، حَتّى لَيُمْكِنُ ٱلقَوْلُ إِنَّهُ كانَ رائِعًا بِطَرِيقةٍ تُثيرُ ٱلخَوْفَ .

وَفي هٰذا الصَّباحِ وَصَلَتْ رِسالةٌ مُعَنْونةٌ بِاسْمِ لُوسِي ، وَعَرَفَ آرْثَر أَنَّها بِخَطِّ مِينا فَفَتَحَها وَقَرَأَها عَلَيْهِما . وَٱلواقِعُ أَنَّها لَـمْ تَتَضَمَّنِ ٱلكَثيرَ ، فيما عَدا أَنَّ مِينا تَزَوَّجَتْ في بُودابِست ، وَأَنَّها عادَتْ هِيَ وجوناثان إلى إِكْسِتر .

وَلٰكِنَّ فـان هِيلْسِينْغ أَبْدَى اهْتِمامًا وَقالَ : « لابُدَّ أَنْ أُقابِلَها ، وَسَوْفَ أَطْلُبُ مِنها ٱلحُضورَ إلى لَنْدَن ، فَلَعَلَّها تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْبِرَني بِأَشْياءَ أُرِيدُ مَعْرِفَتَها . »

أَمّا مِنْ حَيْثُ جِنازةِ لُوسِي وَأُمِّها فَلَيْسَ هُناكَ ٱلكَثيرُ الّذي يُقالُ ، فَبَعْدَ أَنْ دُفِنَتا في مَقْبَرةِ أُسْرةِ وِسْتِنْرا عادَ آرْثَر إلى لَنْدَن لِرِعايةِ والِدِهِ ، وَعادَ الدُّكْتور سِيوارْد إلى ٱلـمُسْتَشْفى . أَمّا فـان هِيلْسِينْغ فَقَدْ كانَ مِنَ ٱلغَريبِ أَنَّهُ ـــ بِالرَّغْمِ مِنْ كَثْرةِ مَشاغِلِهِ ـــ لَـمْ يَكُنْ راغِبًا في ٱلعَوْدةِ إلى أَمِسْتِردام .

وَسَأَلَ سِيوارْد عَمّا إذا كانَ مِنَ ٱلـمُمْكِنِ أَنْ يُقيمَ مَعَهُ فَتْرةً ، وَقالَ إِنَّهُ يَأْمُلُ أَنْ يُدَبِّرَ لِقاءً مَعَ مِينا . وَلٰكِنَّ سِيوارْد أَحَسَّ أَنَّ هٰذا لَـمْ يَكُنِ السَّبَبَ ٱلوَحيدَ في رَغْبَتِهِ في ٱلإِقامةِ ، وَتَساءَلَ في نَفْسِهِ : « أَتُراهُ يَرْغَبُ في ٱلانْتِظارِ لِأَنَّهُ يَتَوَقَّعُ حُدوثَ شَيْءٍ ؟ »

وَفِعْلًا حَدَثَ شَيْءٌ بَعْدَ أُسْبوعٍ مِنَ ٱلجِنازةِ . شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ يَمَسُّ حَياتَهُمْ مِنْ أَيَّةِ ناحِيةٍ ، وَإِنَّما بَدا ذا أَهَمِّيَّةٍ لِفان هِيلْسينْغ .

كانَا يَجْلِسانِ في مَكْتَبِ الدُّكْتور سِيوارْد ذاتَ مَساءٍ يَتناوَلانِ الشّايَ في هُدُوءٍ كَٱلعادةِ ، وَكانَ الطَّبيبُ يَقْرَأُ صَحيفةَ لَنْدن ٱلـمَسائِيَّةَ الَّتي كانَ يُحِبُّ ٱلاطِّلاعَ عَلَيْها في هٰذا ٱلوَقْتِ كُلَّ لَيْلةٍ ، وَسَأَلَ سِيوارْد :

« هَلْ قَرَأْتَ عَنْ حوادِثِ ٱلاعْتِداءِ عَلى ٱلأَطْفالِ الَّتي وَقَعَتْ في لَنْدن يابُروفيسور ؟ يَبْدو أَنَّ عَدَدًا مِنَ ٱلأَطْفالِ في شَمالِ لَنْدَن قَدِ اخْتَفوا وَهُمْ يَلْعَبونَ ، وَكانَ يُعْثَرُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ بِضْعِ ساعاتٍ ، وَفي مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ غالِبًا ، وَهُمْ في حالَةٍ مِنَ الشُّحوبِ وَٱلإِعْياءِ يُرْثى لَها ، وَفي أَعْناقِهِمْ جُروحٌ . »

وَكَرَّرَ سِيوارْد ٱلعِبارَةَ ٱلأَخيرَةَ « وَفي أَعناقِهِمْ جُروحٌ » ثُمَّ سَأَلَ : « أَلَيْسَ هٰذا مُثيرًا ؟ » وواصَلَ كَلامَهُ : « وَكانَ كُلٌّ مِنَ ٱلأَطْفالِ يَقولُ — بَعْدَ أَنْ يُفيقَ — إِنَّهُ قابَلَ سَيِّدةً ، وَإِنَّها كانَتْ تَأْخُذُهُ لِيَتَمَشّى مَعَها ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْ هٰؤلاءِ ٱلأَطْفالِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَذَكَّرَ ما حَدَثَ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ . »

وَتَناوَلَ فان هِيلْسينْغ الصَّحيفَةَ وَقَرَأَ ٱلقِصَّةَ كامِلَةً بِعِنايَةٍ ثُمَّ سَأَلَ : « ما رَأْيُكَ في هٰذا ٱلـمَوْضوعِ ؟ »

فَأَجابَ سِيوارْد : « لَيْسَتْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ ، فِيما عَدا أَنَّ ٱلحالَةَ تَبْدو أَشْبَهَ قَليلًا بِحالَةِ لُوسي . »

فَقالَ هِيلْسينْغ : « أَشْبَهُ قَليلًا فَقَطْ ؟ هَلْ تَقْصِدُ أَيُّها الصَّديق أَنَّكَ — بَعْدَ كُلِّ ما رَأَيْتَهُ — لا تَزالُ لَيْسَتْ لَدَيْكَ فِكْرَةٌ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَوْتِ لُوسي ٱلـمِسْكينةِ ؟ »

قالَ سِيوارْد : « لَقَدْ ماتَتْ نَتيجةً لِـما فَقَدَتْهُ مِنْ دِماءٍ . »

قالَ فان هِيلْسينْغ : « وَكَيْفَ فَقَدَتْ دِماءَها ؟ »

سَكَتَ سِيوارْد ، فَقالَ فان هِيلْسينْغ : « إِنَّكَ رَجُلٌ ذَكِيٌّ ياصَديقي ، وَلٰكِنَّكَ تَنْظُرُ

إلى ٱلحَياةِ نَظْرةً ضَيِّقةً . إنَّكَ تَظُنُّ أَنَّ ٱلعِلْـمَ يقَدِّمُ لَنا إجاباتٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلٰكِنَّكَ مُخْطِئٌ . فَهُناكَ أَشْياءُ كَثيرَةٌ لا يَسْتَطيعُ ٱلعِلْـمُ أَنْ يَصِلَ إلَيْها ، وَأَنْتَ لا تُريدُ أَنْ تَراها . إنَّ كُلًّا مِنْ لُوسي وَهٰؤُلاءِ ٱلأَطْفالِ فَقَدوا دِماءَهُمْ بِسَبَبِ ٱلجُروحِ الَّتي في أَعْناقِهِمْ . وَٱلآنَ أَخْبِرْني ، مَنِ الَّذي أَحْدَثَ هٰذِهِ ٱلجُروحَ ؟ »

قالَ سِيوارْد : « لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ خَفافيشَ في أَمْريكا ٱلجَنوبِيَّةِ تَمْتَصُّ دِماءَ النّاسِ أَوِ ٱلحَيَواناتِ في أَثْناءِ نَوْمِهِمْ بِهٰذِهِ الطَّريقةِ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ لَدَيْنا في إنْجِلْترا مِثْلُ هٰذِهِ ٱلخَفافيشِ . »

فَقالَ فَـان هِيلْسينْغ : « أَصَبْتَ ياصَديقي جاك ، وَلٰكِنْ إذا لَـمْ يَكُنِ الَّذي امْتَصَّ دِماءَ لُوسي مِنَ ٱلخَفافِيشِ مَصّاصَةِ الدِّماءِ ، فَماذا يَكونُ إذًا ؟ »

فَلاذَ سِيوارْد بِالصَّمْتِ لَحْظَةً ، ثُمَّ اسْتَدارَ بِوَجْهٍ شاحِبٍ كَسيفٍ نَحْوَ فَـان هِيلْسينْغ وقالَ : « أَتُريدُني أَنْ أَعْتَقِدَ أَنَّ مَصّاصَ دِماءٍ .. أَنَّ رَجُلًا مَصّاصَ دِماءٍ هُوَ الَّذي أَحْدَثَ هٰذِهِ ٱلجُروحَ ؟ وَلٰكِنِّي لا أُومِنُ بِوُجودِ مَصّاصينَ لِلدِّماءِ مِنَ ٱلبَشَرِ . إنَّنا لا نَعيشُ في عالَـمِ ٱلأَساطيرِ وَٱلقِصَصِ ٱلخُرافِيَّةِ . إنَّهُ لا يَعْتَقِدُ في أَشْياءَ كَهٰذِهِ إلّا مَجْنونٌ . »

فَنَظَرَ فَـان هِيلْسينْغ إلَى سِيوارْد مَحْزونًا وَقالَ : « كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَكونَ مَجْنونًا وَلا أُضْطَرَّ إلى ٱلقَوْلِ بِأَنَّ لُوسي قَدْ قُتِلَتْ حَقيقةً بِيَدِ مَصّاصِ دِماءٍ . وَلٰكِنْ ، لَيْسَ هٰذا كُلَّ شَيْءٍ . » وَهُنا غَطَّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ كَما لَوْ كانَ غَيْرَ راغِبٍ في ٱلاسْتِمْرارِ في ٱلحَديثِ ، ثُمَّ قالَ :

« لا تَظُنَّ أَنَّ مَصّاصَ الدِّماءِ الَّذي شَرِبَ دِماءَ هٰؤُلاءِ ٱلأَطْفالِ هُوَ نَفْسُ مَصّاصِ الدِّماءِ الَّذي شَرِبَ دَمَ لُوسي . »

فَقالَ سِيوارْد : « ماذا تَعْني يابُروفِيسور ؟ »

فَأَجابَ : « أَعْني يادُكْتور سِيوارْد أَنَّ مَصّاصَ الدِّماءِ الَّذي ٱعْتَدى عَلى هٰؤُلاءِ ٱلأَطْفالِ هُوَ لُوسي نَفْسُها ! »

اَلْقِسْمُ ٱلرّابِعُ

لـــــندن

اَلْفَصْلُ ٱلثّالِثَ عَشَرَ

أَخَذَ ڤان هِيلْسِينْغ يَنْظُرُ إِلى الدُّكْتور سِيوارْد فَتَصْطَدِمُ نَظَراتُهُ مُباشَرَةً بِعَيْنَيْنِ غاضِبَتَيْنِ ، إِذْ لَـمْ يَكُنْ يَسيرًا عَلى سِيوارْد أَنْ يَتَقَبَّلَ عَقْلُهُ بِسُهولَةٍ فِكرَةَ أَنَّ ٱلفَتاةَ الَّتي أَحَبَّها يَوْمًا مَصّاصةُ دِماءٍ تُهاجِمُ صِغارَ ٱلأَطْفالِ لِتَشْرَبَ دِماءَهُمْ . وَكانَ ڤان هِيلْسِينْغ واثِقًا أَنَّهُ لَيْسَ في مَكْتَبَةِ الدُّكْتور سِيوارْد أَيُّ مَرْجِعٍ يَتَضَمَّنُ مَعْلُوماتٍ عَنْ مَصّاصي الدِّماءِ ، وَلٰكِنَّ هٰذا لا يَعْني أَنَّهُمْ غَيْرُ مَوْجُودِينَ . إِنَّهُمْ مَوْجودُونَ ، وَعَلى ڤان هِيلْسِينْغ أَنْ يُثْبِتَ ذٰلِكَ . صَحيحٌ أَنَّ هُناكَ ٱلكَثيرَ الَّذي لا يَعْرِفُهُ هُوَ نَفْسُهُ عَنْ هٰذا الـمَوْضُوعِ بَعْدُ ، وَلٰكِنَّ هُناكَ حَقيقةً مُؤْلِمةً واضِحةً لَهُ وَهِيَ أَنَّهُ كانَ هُناكَ في ٱلبيئَةِ الَّتي تُحيطُ بِهِمْ مَصّاصُ دِماءٍ واحِدٌ ، أَمّا ٱلآنَ فَقَدْ أَصْبَحَ هُناكَ ٱثْنانِ ، وَفي ٱلأُسْبوعِ ٱلقادِمِ أَوِ ٱلشَّهْرِ ٱلقادِمِ قَدْ يُصْبِحُ هُناكَ ثَلاثَةٌ أَوْ أَرْبَعةٌ أَوْ خَمْسةٌ ، وَهُوَ ٱلوَحيدُ « أبراهام ڤان هِيلْسِينْغ مِنْ أَمِسْتِردام » الَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يُوقِفَ هٰذا التَّكاثُرَ ، وَلٰكِنَّهُ في حاجَةٍ إِلى مَنْ يُعاوِنُهُ .

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ في رِقَّةٍ : « ياصَديقي ، إِنَّ ٱلحَقيقةَ قَدْ يَكونُ حَمْلُها شاقًّا ، وَأَنا لا أَتَوَقَّعُ ــ وَأَنْتَ أَحَدُ ٱلعُلَماءِ ــ أَنَّهُ يُمْكِنُكَ أَنْ تُصَدِّقَ شَيْئًا بِدونِ بُرْهانٍ ، وَلٰكِنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أُقَدِّمَ لَكَ هٰذا ٱلبُرْهانَ إِذا جِئْتَ مَعي . »

فَسَأَلَهُ سِيوارْد في ارْتِيابٍ : « إِلى أَيْنَ ؟ »

فَأَجابَ ڤان هِيلْسِينْغ : « أَوَّلًا إِلى مُسْتَشْفَى شَمالِ لَنْدَن لِكَيْ نَرَى أَحَدَ ٱلأَطْفالِ . »

فَسَأَلَهُ سِيوارْد : « وَبَعْدَ ذٰلِكَ ؟ »

فَكانَ جَوابُ ڤان هِيلْسِينْغ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مِفْتاحًا كَبيرًا وَرَفَعَهُ في يَدِهِ ، وَلَـمْ يَكَدْ سِيوارْد يَرَى الـمِفْتاحَ حَتّى شَحَبَ لَوْنُهُ ، فَقَدْ كانَ مِفْتاحَ الـمَقْبرةِ ، وَقالَ في صَوْتٍ خافِتٍ :

« لا لَيْسَ إلى هُناكَ ؟ لَـمْ يَمْضِ عَلى مَوْتِها إلّا أُسْبوعٌ ! كانَ مِنَ آلـمُمْكِنِ أَنْ أَزورَ آلـمَقْبَرَةَ لَوْ أَنَّ آلـمَيِّتَ شَخْصٌ آخَرُ ، أَمّا هِيَ فَلا . لَقَدْ كانَتْ جَميلةً وَهِيَ مَيِّتَةٌ ، وَأَنا أُحِبُّ أَنْ أَحْتَفِظَ بِذِكْراها وَهِيَ عَلى هٰذِهِ الصُّورةِ ، لا عَلى الصُّورةِ الَّتي أَصْبَحَت عَلَيْها آلآنَ . »

فَقالَ قان هِيلْسينْغ : « ياصَديقي إنَّهُ بِسَبَبِ حُبِّكَ لَها أَطْلُبُ مِنْكَ آلآنَ أَنْ تَأْتِيَ مَعِي . وَإذا لَـمْ نَكُنْ قَدِ آسْتَطَعْنا أَنْ نُنْقِذَ حَياتَها ، فَمِنَ آلواجِبِ عَلَيْنا آلآنَ ــ عَلى آلأَقَلِّ ــ أَنْ نُحاوِلَ إنْقاذَ رُوحِها . »

وَصَلَ قان هِيلْسينْغ والدُّكْتور سِيوارْد إلى آلـمُسْتَشْفَى حَوالَى السّاعةِ السّادِسةِ . وَكانَ الطِّفْلُ في تَحَسُّنٍ مُسْتَمِرٍّ . وَكَشَفَ الطَّبيبُ الَّذي يَتَوَلَّى عِلاجَهُ عَنْ عُنُقِهِ ، وَأَراهُما آثارَ آلجُروحِ فِيهِ ، وَلَـمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ شَكٍّ في أَنَّها كانَتْ تُشْبِهُ تِلْكَ الَّتي كانَتْ في عُنُقِ لُوسي . وَلَـمّا سَأَلَ قان هِيلْسينْغ الطَّبيبَ عَنْ رَأْيِهِ في سَبَبِ حُدوثِ هٰذِهِ الآثارِ أَجابَ :

« لا يُمْكِنُ إلّا أَنْ يَكونَ حَيوانًا ما ، كَالفَأْرِ مَثَلًا . كَما يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ خُفّاشًا ، وَلٰكِنْ لَيْسَ بِالطَّبْعِ مِنَ آلخَفافيشِ آلـمَحَلِّيَّةِ ، وَإنَّما مِنْ نَوْعٍ أَجْنَبِيٍّ ، فَهُناكَ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ يُحْضِرونَ إلى إنْجِلْترا حَيواناتٍ غَريبةً مِنْ أَنْحاءٍ مُخْتَلِفةٍ مِنَ آلعالَـمِ ، بَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ حَيَوانًا هارِبًا مِنْ حَديقةِ آلحَيَوانِ . نَعَمْ ، فَمُنْذُ أُسْبوعٍ أَوْ أُسْبوعَيْنِ فَقَطْ هَرَبَ مِنْهُمْ ذِئْبٌ ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ مُهْمِلونَ غايةَ آلإهْمالِ . »

كانَتِ الشَّمْسُ تَميلُ لِلْغُروبِ حِينَما غادَرَا آلـمُسْتَشْفى وَتَوَجَّها نَحْوَ هامِسْتِد ، الَّتي تَقَعُ عَلى رَبْوةٍ تُطِلُّ عَلى لَنْدَن مِنَ الشَّمالِ . سارا في شَوارِعَ خالِيةٍ مُظْلِـمةٍ حَتّى بَلَغا زُقاقًا صَغيرًا في أَحَدِ جانِبَيْهِ جِدارٌ . وَتَطَلَّعا حَوْلَهُما فَلَـمّا لَـمْ يَجِدا أَحَدًا فِي الزُّقاقِ تَسَلَّقا آلجِدارَ إلى حَيْثُ تُوجَدُ آلـمَقابِرُ .

كانَ قان هِيلْسينْغ يَعْرِفُ وِجْهَتَهُ تَمامًا ، ومَا هِيَ إلّا لَحَظاتٌ حَتّى كانَ الرَّجُلانِ يَقِفانِ أَمامَ مَقْبرةِ وِسْتِنْرا . فَأَشْعَلَ آلبُروفِيسور شَمْعةً وَفَتَحَ آلبابَ ، ثُمَّ انْحَنى جانِبًا وَأَشارَ بِيَدِهِ لِلدُّكْتور سِيوارْد ــ مُجامَلةً مِنْهُ وَتَأَدُّبًا ــ لِكَيْ يَدْخُلَ أَوَّلًا . وبَدا عَلى وَجْهِ سِيوارْد أَنَّهُ

يُرَحِّبُ بِهٰذِهِ اللَّفْتَةِ مِنَ التَّأَدُّبِ وَحُسْنِ السُّلوكِ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَسَعْهُ إِلّا ٱلِامْتِثالُ فَأَخَذَ الشَّمْعَةَ وَدَخَلَ .

كانَتِ ٱلْمَقْبَرَةُ — عِنْدَما شاهَداها فِي ٱلمَرَّةِ السّابِقَةِ حِينَ دُفِنَتْ لُوسِي — مَكانًا مُقْبِضًا عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ ذٰلِكَ كانَ في ضَوْءِ النَّهارِ ، وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ عَبَقِ الزُّهورِ النَّضِرَةِ آنَذاكَ ، فَكَيْفَ يَكونُ ٱلحالُ وَقَدْ ذَبَلَتِ الزُّهورُ وحَالَ لَوْنُها ؟ وَكَيفَ يَكونُ بَعْدَ أَنْ فَقَدَتِ ٱلفِضَّةُ وَالنُّحاسُ وَالتَّصاوِيرُ الَّتي تُوَشّي تابُوتَ لُوسِي بَرِيقَها ؟ وَسَأَلَ سِيوارْد : « ماذا تَعْتَزِمُ أَنْ تَفْعَلَ ؟ »

فَأَجابَ ٱلبُرُوفِيسور : « راقِبْ ، وَسَوْفَ تَرَى . »

ثُمَّ فَتَحَ التّابوتَ مِنْ أَعْلاهُ ، وَكانَ تَحْتَ ٱلفُتْحةِ غِطاءٌ مِنَ الرَّصاصِ يُحيطُ بِٱلجُثَّةِ تَمامًا . وَكانَ ٱلبُروفِيسور قَدْ أَخَذَ أُهْبَتَهُ فَأَحْضَرَ مَعَهُ ما يَلْزَمُ مِنْ أَدواتٍ لِمُواجَهةِ ٱلمَوْقِفِ ، فَشَرَعَ يَقْطَعُ الرَّصاصَ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ حِينَ رَأَى الدُّكْتور سِيوارْد يَتَسَلَّلُ مِنْ جِوارِهِ وَيَتَرَجِعُ مُتَّجِهًا نَحْوَ بابِ ٱلمَقْبَرةِ وَهُوَ يَقولُ فِي صَوْتٍ مُرْتَجِفٍ : « بُروفِيسور ، إِنَّها مَيْتَةٌ مُنْذُ أُسْبُوعٍ ، وَلَسْتُ أَرْغَبُ فِي رُؤْيَتِها ثانِيةً . »

فَقالَ ٱلبُروفِيسور : « اِبْقَ هُنا ما لَمْ تَكُنْ خائِفًا مِنْ مُواجَهةِ ٱلحَقيقةِ . » وَٱنْتَهى فَان هِيلْسِينْغ مِنْ عَمَلِ ٱلفُتْحةِ ، ثُمَّ قَطَعَ ٱلجُزْءَ الَّذي يَقَعُ تَحْتَ وَسَطِ ٱلغِطاءِ الرَّصاصِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ غازٍ ، لَمْ تَكُنْ هُناكَ أَيُّ رائِحةٍ لِلْمَوْتِ .

قالَ ٱلبُروفِيسور : « وَٱلآنَ سَوْفَ أَجْذِبُ أَحَدَ طَرَفَي الرَّصاصِ ، وَتَقِفُ أَنْتَ في مُواجَهَتي لِتَجْذِبَ الطَّرَفَ ٱلآخَرَ وَحينَئِذٍ سَوْفَ نَرَى ما نَرَى . »

وَهٰكَذا جَذَبا الرَّصاصَ مِنْ جانِبَيِ ٱلقَطْعِ كِلَيْهِما ، وَإِذا بِالتّابوتِ خالٍ ، فَقالَ فان هِيلْسِينْغ : « ٱلبُرْهانُ ٱلأَوَّلُ ! تَعالَ ! اِتْبَعْني ! »

وَمَضَى ٱلبُروفِيسور ، يَتْبَعُهُ صَدِيقُهُ الصّامِتُ ٱلمَذْهولُ إِلى خارِجِ ٱلمَقْبَرةِ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُغْلِقَها ، ثُمَّ قالَ لَهُ : « وَٱلآنَ سَوْفَ نَنْتَظِرُ ، وَإِذا وَقَفْنا تَحْتَ هٰذِهِ ٱلأَشْجارِ عَلى مَسافةٍ قَريبةٍ مِنَ ٱلمَقْبَرةِ فَإِنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَرَى أَيَّ شَيْءٍ يَحْدُثُ . »

وَٱنتَظرا ، وَطالَ ٱلاِنتِظارُ ، وَسَمِعا ساعةً تَدُقُّ الثّانِيةَ عَشْرَةَ ، ثُمَّ تَدُقُّ ٱلواحِدةَ ، ثُمَّ الثّانِيةَ . وَلابُدَّ أَنَّ السّاعَةَ كانَتْ قَدْ قارَبَتِ الثّالِثةَ حينَما أُطْبَقَتْ يَدُ قان هِيلْسينْغ عَلى ذِراع سيوارْد ، ثُمَّ أَشارَ لَهُ إلى شَكْلٍ أَبْيَضَ يَتَحَرَّكُ بَيْنَ ٱلأَشْجارِ عَلى بُعْدِ عِشْرينَ أَوْ ثَلاثينَ مِتْرًا . وَخَرَجَ قان هِيلْسينْغ مِنْ تَحْتِ ٱلأَشْجارِ وَتَقَدَّمَ مِنْهُ ، وَبَدا كَأَنَّهُ رآهُ ، فَتَوَقَّفَ ثُمَّ تَقَهْقَرَ إلى ٱلوَراءِ وَاخْتَفى ، في نَفْسِ اللَّحْظةِ الَّتي تَعَثَّرَ فيها قان هِيلْسينْغ وَسَقَطَ فَوْقَ شَيْءٍ مُلْقًى في مَمَرٍّ مِنَ ٱلعُشْبِ الطَّويلِ . وَحينَما سَمِعَ سيوارْد صَيْحةَ الدَّهْشةِ الَّتي أَطْلَقَها قان هِيلْسينْغ خَفَّ إلَيْهِ مُسْرِعًا ، وَأَشْعَلَ عُودَ ثِقابٍ ، وَإذا فَوْقَ ٱلأَرْضِ طِفْلٌ صَغيرٌ لايَزالُ في سُباتٍ عَميقٍ ، وصاحَ ٱلبُروفِيسور وَهُوَ يَنْهَضُ مِنْ فَوقِ ٱلعُشْبِ : « ٱلبُرْهانُ الثّاني ! »



وَقالَ سيوارْد بَعْدَ أَنْ فَحَصَ الطِّفْلَ : « لَيْسَ بِٱلعُنُقِ أَيُّ أَثَرٍ . »

فَقالَ ٱلبُروفِيسور : « لَمْ يَتَّسِعْ لَها ٱلوَقْتُ ، وَلٰكِنْ ، إذا لَمْ يَكُنِ ٱلبُرهانُ الثّاني كامِلًا فَسَوْفَ أُرِيكَ ٱلبُرْهانَ الثّالِثَ ، وَحِينَئِذٍ ، لَعَلَّكَ تَقْتَنِعُ . »

وَكانَ الطِّفْلُ لايَزالُ نائِمًا ، فَمَهَّدَ لَهُ سيوارْد مَكانًا فَوْقَ ٱلعُشْبِ ، وَتَبِعَ ڤان هِيلْسِينْغ إلى ٱلـمَقْبَرَةِ . كانَتِ الشَّمْسُ قَدْ بَدَأَتْ تَطْلُعُ حِينَما فَتَحا ٱلبابَ ، وَلٰكِنَّ الظُّلْـمةَ كانَتْ حَوْلَ التّابوتِ كَما كانَتْ مِنْ قَبْلُ ، فَقالَ ٱلبُروفِيسور : « أَشْعِلْ عُودَ ثِقابٍ . »

وَفُوجِئَ سيوارْد بِأَنَّ التّابوتَ لَمْ يَكُنْ خالِيًا كَما كَانَ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّما كانَتْ لُوسِي تَرْقُدُ فيهِ وَهِيَ تَبْدو بِمِثْلِ ما كانَتْ تَبْدو قَبْلَ ٱلجِنازةِ تَمامًا . كانَتْ ــ لَوْ كانَ هٰذا مُمْكِنًا ــ أَكْثَرَ جَمالًا مِنْها فِي أَيِّ وَقْتٍ مَضَى ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ هٰذا وَجْهَ فَتاةٍ اِنْقَضَى عَلى مَوْتِها سَبْعَةُ أَيّامٍ ؟ وَجَذَبَ ڤان هِيلْسِينْغ شَفَتَيْها إلى ٱلخَلْفِ كاشِفًا عَنْ أَسْنانِها ، وَقالَ : « انْظُرْ إِنَّها أَشْبَهُ بِحَدِّ السِّكِّينِ . كَمْ مَرَّةً ، يادُكْتور سيوارْد ، يَنْبَغِي أَنْ تَنْغَرِسَ هٰذِهِ ٱلأَسْنانُ فِي عُنُقِ طِفْلٍ حَتّى تُؤْمِنَ أَنَّ مَعَنا ٱلآنَ مَصّاصةَ دِماءٍ مُتَعَطِّشةً إلى الدَّمِ ، وَأَنَّ عَلَيْنا أَنْ نَقْضِيَ عَلَيْها نِهائِيًّا ؟ »

كانَ سيوارْد يَبْدو وَكَأَنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ عَيْنَيْهِ مِنَ التَّطَلُّعِ إلى هٰذا ٱلجَمالِ الشِّرِّيرِ لِهٰذا ٱلجَسَدِ الثّاوِي فِي ذٰلِكَ التّابوتِ . ثُمَّ سَأَلَ : « بُروفِيسور ، ماذا يَنْبَغِي عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَ ؟ »

فَأَجابَ ٱلبُروفِيسور : « نَنْزِعُ رَأْسَها مِنْ جَسَدِها ، وَنَمْلَأُ فَمَها بِالثُّومِ ، وَنَغْرِسُ قِطْعةً سَمِيكَةً مِنَ ٱلخَشَبِ لِتَتَغَلْغَلَ فِي قَلْبِها . وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلآنَ ، فَلَسْنا مُسْتَعِدَّيْنِ لِذٰلِكَ بَعْدُ . ثُمَّ إِنَّنا ــ بِسَبَبِ ٱلـمَخاطِرِ الَّتي تُواجِهُنا ــ في حاجَةٍ إلى مَزِيدٍ مِنَ ٱلعَوْنِ ، وَفَوْقَ هٰذا ، فَإِنَّ الَّذي أَطْلَعْتُكَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ لابُدَّ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ آرْثَر هولـمود . لِنَرْحَلِ ٱلآنَ . »

وَهٰكَذا أَغْلَقا ٱلـمَقْبَرَةَ ، ثُمَّ حَمَلا الطِّفْلَ الَّذي كانَ لايَزالُ نائِمًا وَوَضَعاهُ خارِجَ بَوّابةِ ٱلـمَقْبرةِ ، وَهُمْ عَلى يَقِينٍ أَنَّ الشُّرْطَةَ سَوْفَ تَجِدُهُ عاجِلًا . وَكانَ جَمِيلًا ،أَنْ يُحِسّا دِفْءَ الشَّمْسِ حِينَما غادَرا ٱلـمُرْتَفَعاتِ ، وَسارا عائِدَيْنِ إلى لَنْدَن .

اَلْفَصْلُ الرّابِعَ عَشَرَ

لَـمْ يَكُنْ مِنَ اَلْيَسيرِ إِقْناعُ آرْثَر بِاَلْمَجيءِ إِلى اَلـمَقْبَرَةِ ، وَلٰكِنَّهُ جاءَ أَخيرًا . وَكانَ اَلفَضْلُ فِي ذٰلِكَ لِجاك سيوارْد . ذٰلِكَ أَنَّ ڤان هِيلْسِينْغ كانَ يَعْلَـمُ أَنَّ كَلامَ سيوارْد مَعَ آرْثَر سَوْفَ يَكونُ أَوْقَعَ أَثَرًا مِنْ كَلامِهِ هُوَ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَعْلَـمُ كَذٰلِكَ أَنَّهُ لا كَلامَهُ وَلا كَلامَ سيوارْد يُمْكِنُ أَنْ يُقْنِعَ أَرْثَر بِأَنَّ لُوسي مَصّاصةُ دِماءٍ ، وَإِنَّما لُوسي نَفْسُها هِيَ الَّتي تَسْتَطيعُ إِقْناعَهُ .

كانَتِ السّاعةُ قَدْ تَجاوَزتْ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ حِينَما وَقَفَ الرِّجالُ الثَّلاثةُ حَوْلَ التّابوتِ . وَكانَ ڤان هِيلْسِينْغ يَحْمِلُ حَقيبةً طَوِيلةً .

وَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « دُكْتُور سِيوارْد ، حِينَما غادَرْنا هٰذِهِ اَلـمَقْبَرَةَ صَباحَ اَلْيَوْمِ كانَتْ جُثَّةُ لُوسي في تابوتٍ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ سِيوارْد : « بَلَى . لَقَدْ كانَتْ فِي التّابوتِ يابُروفِيسور . »

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ بِطَرِيقةِ اَلْحُواةِ وَالسَّحَرةِ : « سَأَفْتَحُ التّابوتَ اَلآنَ . »

ثُمَّ فَتَحَهُ ، وَنَظَرَ اَلجَميعُ ، فَإِذا هُوَ خالٍ . وَغَشِيَ اَلجَميعَ صَمْتٌ طَوِيلٌ ، ثُمَّ قالَ آرْثَر في صَوْتٍ خافِتٍ : « بُروفِيسور ، أَعْلَـمُ أَنَّكَ لَـمْ تَكُنْ لِتَنْقُلَ جُثَّتَها ، فَمَنِ الَّذي نَقَلَها ؟ مَنْ ذا الَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا كَهٰذا ؟ »

فَلَـمْ يُجِبْ ڤان هِيلْسِينْغ ، وَإِنَّما خَرَجَ مِنَ اَلـمَقْبَرةِ وَهُما يَتْبَعانِهِ . ثُمَّ أَوْصَدَ اَلبابَ ، وَأَخْرَجَ مِنْ حَقيبَتِهِ بَعْضَ اَلخُبْزِ اَلـمَلْفوفِ فِي قِطْعةِ قُماشٍ بَيْضاءَ ، وَأَخَذَ يَطْوِيهِ بَيْنَ أَصابِعِهِ ، ثُمَّ دَسَّهُ فِي اَلفَراغِ الَّذي بَيْنَ اَلبابِ وَحَجَرِ اَلـمَقْبَرَةِ الَّذي يُحيطُ بِهِ ، وَكَذٰلِكَ في ثَقْبِ اَلقُفْلِ ، وَقالَ وَهُوَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ :

« هٰذا خُبْزٌ مُقَدَّسٌ بُورِكَ فِي اَلكَنيسةِ ، وَسَأُغْلِقُ اَلـمَقْبَرَةَ حَتّى لا يَسْتَطيعَ أَيُّ كائِنٍ شِرِّيرٍ أَنْ يَدْخُلَها . »

فَسَأَلَهُ آرْثَر وَهُوَ لا يَزالُ تَحْتَ تأْثيرِ الصَّدْمةِ الَّتي أَصابَتْهُ بِسَبَبِ ٱخْتِفاءِ جُثَّةِ لُوسي : « وَماذا بَعْدَ ذٰلِكَ ؟ »

فَأَجاب ڤَان هِيلْسينْغ : « وَٱلآنَ اسْتَعِدُّوا ، فَإِنَّكُمَا في حاجَةٍ إِلى قُدْرةٍ عَقْلِيَّةٍ عالِيةٍ ، فَهَيّا بِنا نَنْتَظِرْ خَلْفَ هٰذِهِ الشَّجَرةِ حَيْثُ نَسْتَطيعُ أَنْ نَرى ٱلـمَقْبَرةَ . »

كانَ ڤان هِيلْسينْغ يَتَحَدَّثُ كَما لَوْ كانَ يَعْرِفُ تَمامًا ما الَّذي سَيَحْدُثُ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ في ٱلوَقْتِ نَفْسِهِ يَشْعُرُ بِالشَّكِّ وَٱلخَوْفِ . لَقَدْ كانَ في حالَةِ انْجِذابٍ إِلى أَعْماقٍ سَحيقةٍ مِنَ ٱلعالَـمِ اللّاطَبيعِيِّ .. عالَـمِ اللّاموْتى الَّذي يُطْلَقُ عَلى مَصّاصي الدِّماءِ . وَحينَما نَظَرَ حَوْلَهُ كانَ يُخالِجُهُ شُعورٌ بِأَنَّهُ لَـمْ يَرَ قَطُّ في اللَّيْلِ مَكانًا مِثْلَ هٰذا يُنْبِئُ بِشَرٍّ كَثيرٍ . كانَتْ أَحْجارُ ٱلقُبورِ يَلْـمَعُ بَياضُها كَمَثَلِ عِظامِ ٱلـمَوْتى ، وَكُلَّـما هَبَّتِ الرِّيحُ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ حَرَكَةَ أَجْنِحةٍ تُرَفْرِفُ ، وَحَرَكَةَ أَشْياءَ في ٱلعُشْبِ تَزْحَفُ ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ ما كانَ لِيَسْتَطيعَ أَنْ يَظَلَّ في هٰذا ٱلـمَكانِ لَوْ أَنَّهُ كانَ وَحْدَهُ .

لَـمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُم يَنْبِسُ بِكَلِـمةٍ ، بَلْ إِنَّ الرِّيحَ تَوَقَّفَتْ أَخيرًا وَخَلَّفَتْ وَراءَها سُكونًا كَسُكونِ ٱلأَحْلامِ ، وَٱنْقَضَتْ ساعةٌ أَعْقَبَها صَوتٌ .

كانَ جاك سيوارْد قَدْ شَهَقَ حينَ لَـمَحَ شَيْئًا ، وَأَشارَ بِيَدِهِ . كانَ هُناكَ عَلى مَسافةٍ مِنْهُمْ شَكْلٌ أَبْيضُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صَفَّيْنِ مِنَ ٱلأَشْجارِ حامِلًا شَيْئًا ما بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ في بُقْعةٍ انْعَكَسَ عَلَيْها ضَوْءُ ٱلقَمَرِ ، فَإِذا ٱلـمَشْهَدُ هٰذِهِ ٱلـمَرَّةَ واضِحًا كُلَّ ٱلوُضوحِ . كانَتْ سَيِّدةً ذاتَ شَعْرٍ ذَهَبِيٍّ ، تَأْتَزِرُ بِقُماشٍ أَبْيضَ كَقُماشِ ٱلأَكْفانِ ، وَتَتَقَدَّمُ إِلى ٱلأَمامِ مُمْسِكةً بِطِفْلٍ صَغيرٍ ، وَتَقَدَّمَتِ السَّيِّدةُ حَتّى أَصْبَحَتْ قَريبةً مِنْهُم بِحَيْثُ أَمْكَنَهُمْ أَنْ يَتَبَيَّنوها .. كانَتْ لُوسي .

وَلٰكِنَّ لُوسي الَّتي تَغَيَّرَتْ كَثيرًا كانَتْ شَفَتاها تَقْطُرانِ بِدِماءِ الطِّفْلِ الطّازَجةِ ، وَكانَ الدَّمُ يَسيلُ عَلى وَجْهِها حَتّى صَبَغَ ٱلقُماشَ ٱلأَبْيضَ الَّذي تَأْتَزِرُ بِهِ .



وَتَقَدَّم ڤان هِيلْسِينْغ خُطُواتٍ إلى ٱلأَمامِ ، وَما كادَتْ تَراهُ حَتَّى ٱنْسَحَبَتْ إلى ٱلخَلْفِ مُحْدِثةً زَمْجَرةً غاضِبةً ، وَأَلْقَتِ الطِّفْلَ الَّذي كانَتْ ــ حَتَّى ٱلآنَ ــ تَحْتَفِظُ بِهِ بَيْنَ يَدَيْها كَما يَحْتَفِظُ ٱلكَلْبُ بِعَظْمةٍ ، فَصَرَخَ صَرْخةً أَليمةً تَأَثَّرَ لَها آرْثَر ، فَأَطْلَقَ بِدَوْرِهِ صَيْحةً لَمْ تَكَدْ لُوسي تَسْمَعُها حَتّى تَغَيَّرَتْ ثانِيةً . فَقَدْ رَأَتْ آرْثَر وَمَدَّتْ إِحْدَى يَدَيْها نَحْوَهُ بِطَريقةٍ عَفَوِيَّةٍ ، نَفْسِ طَريقةِ لُوسي الَّتي أَلِفَها ، ثُمَّ قالَتْ : « آرْثَر ، دَعْ أَصْدِقاءَكَ وَتَعالَ مَعي . »

كانَتْ هُناكَ نَغْمةٌ حُلْوةٌ في صَوْتِها ، بَلَغَ مِنْ حَلاوتِها أَنَّ ڤان هِيلْسِينْغ نَفْسَهُ شَعَرَ بِٱنْجِذابٍ إِلَيْها . أَمّا آرْثَر فَقَدْ وَقَفَ كَأَنَّما مَسَّهُ سِحْرٌ . فَتَبَسَّمَتْ لَهُ ثانِيةً ، فَتَقَدَّمَ نَحْوَها ، وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ كانَ بِٱلمِرْصادِ ، وَقَبْلَ أَنْ تُطْبِقَ لُوسي بِأَسْنانِها عَلَى عُنُقِ آرْثَر وَثَبَ إلى ٱلأَمامِ رافِعًا أَمامَهُ صَليبَهُ الذَّهَبِيَّ الصَّغيرَ . وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتّى صَرَخَتْ صَرْخةً ضارِيةً كَما لَوْ كانَ قَدْ لَمَسَها حَديدٌ مُحمًّى أَحْمَرُ ، وَقَفَزَتْ إلى ٱلوَراءِ ، ثُمَّ جَرَتْ نَحْوَ بابِ ٱلمَقْبرةِ ، وَلٰكِنَّها تَوَقَّفَتْ هُناكَ ثانِيةً إِذْ إِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ كانَ قَدْ أَدّى عَمَلَهُ بِنَجاحٍ . وَأَخيرًا لَمْ تَجِدْ مَفَرًّا مِنْ أَنْ تَجْرِيَ خِلالَ ظِلِّ شَجَرةٍ . وَكانَ كُلُّ ما ٱسْتَطاعوا أَنْ يُشاهِدوهُ مِنْها هُوَ بَياضَ أَسْنانِها وَهِيَ تَلْمَعُ فِي الظَّلامِ .

وَسادَ السُّكونُ حَيْثُ صارَ كُلٌّ مِنَ ٱلحَيِّ وَاللاَّمَيِّتِ فِي حالةِ ذُهولٍ . وَفِي النِّهايةِ ٱسْتَدارَ ڤان هِيلْسِينْغ نَحْوَ آرْثَر ــ وَالصَّليبُ لا يَزالُ مَرْفوعًا في يَدِهِ ــ وَسَأَلَهُ فِي صَوْتٍ مُرْتَجِفٍ : « هَلْ أَسْتَمِرُّ فِي عَمَلِي ؟ »

فَجثا آرْثَر عَلى رُكْبَتَيْهِ ، وَغَطّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ قائِلًا : « اِفْعَلْ ما تَعْتَقِدُ أَنَّهُ لازِمٌ . لَنْ يَكونَ هُناكَ ما هُوَ أَسْوَأُ مِمّا رَأَيْتُ . »

وَعادَ ٱلبُروفيسور إلى بابِ ٱلمَقْبَرةِ ، وَأَخْرَجَ بَعْضًا مِنَ ٱلخُبْزِ ٱلمُقَدَّسِ ، وَفَتَحَ ٱلبابَ قَليلًا . أَمّا لُوسي فَكانَتْ كَأَنَّما اجْتَذَبَتْها قُوَّةٌ قاهِرةٌ لا تَسْتَطيعُ الصُّمودَ أَمامَها ، فَدَلَفَتْ مِنْ ظِلالِ ٱلأَشْجارِ عائِدةً إلى ٱلمَقْبَرةِ . وَٱخْتَفَتْ مِنْ خِلالِ ٱلفَراغِ فِي فُتْحةِ ٱلبابِ ،

وَحينَئِذٍ أعادَ ٱلبُروفِيسور ٱلخُبْزَ إلى مَكانِهِ وَأَغْلَقَ ٱلبابَ ، ثُمَّ قالَ :

« أيُّها ٱلأَصْدِقاءُ ، لَيْسَ أَمامَنا ما نَسْتَطيعُ عَمَلَهُ قَبْلَ بُزوغِ ضَوْءِ النَّهار . إنَّها لا تَسْتَطيعُ ٱلخُروجَ ٱلآنَ فَهِيَ مَنْهُوكَةٌ ، وَلَعَلَّها ضَعيفةٌ واهِنَةٌ بِسَبَبِ أَنَّها لَمْ تَذُقْ ما يُشْبِعُها لِمُدَّةِ لَيْلَتَيْنِ ، وَسَرْعانَ ما يُدْرِكُها النُّعاسُ ، وَحينَئِذٍ سَوْفَ نُؤَدِّي مُهِمَّتَنا . »

وَبَيْنَما كانَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ يَنْتَظِرونَ بُزوغَ الشَّمْسِ كانَتِ ٱلأَفْكارُ الضّارِيَةُ تَجولُ في أَذْهانِهِمْ . ثُمَّ ظَهَرَتْ حُمْرَةُ السَّماءِ وَبَزَغَتِ الشَّمْسُ ، وَٱنْتَظَرَ كُلٌّ مِنْ سِيوارْد وَآرْثَر صُدورَ كَلِمَةٍ مِنَ ٱلبُروفِيسور ، وَلٰكِنْ لَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُتَعَجِّلٌ في الشُّروعِ فِي ٱلعَمَلِ . وَأَخيرًا أَخْرَجَ ساعَتَهُ الذَّهَبِيَّةَ الثَّقيلةَ وَنَظَرَ فيها ثُمَّ قالَ : « إنَّها السّادسةُ وَالنِّصْفُ . لَدَيْنا نِصفُ ساعةٍ . »

كانَتْ لُوسِي مُسْتَغْرِقةً في نَوْمِها ، وَكانَتْ جَميلةً مِثْلَما كانَتْ دائِمًا . أمّا آرْثَر فَكانَ شاحِبًا حَتَّى يُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّهُ هُوَ ٱلمَيِّتُ . وَحينَما ٱنْحَنَى فَوْقَ التّابوتِ أَخَذَ يَنْتَحِبُ عَلانِيَةً . وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ تَكُنْ أَحاسِيسُهُ كَأَحاسيسِ آرْثَر ، وَإِنَّما كانَ بَصَرُهُ مُرَكَّزًا عَلَى الدَّمِ ٱلجافِّ الَّذي يُلَطِّخُ فَمَها . فَتَحَ ٱلحَقيبةَ وَأَخْرَجَ بَعْضَ ٱلآلاتِ الطِّبِّيَّةِ وَٱلمَباضِعِ وَقِطْعَةَ خَشَبٍ غَليظةً مُدَبَّبَةَ الطَّرَفِ يَبْلُغُ طُولُها نَحْوَ مِتْرٍ ، وَمِطْرَقةً ثَقيلةً ، وَقالَ :

« مَصّاصو الدِّماءِ لا يَموتونَ بِٱنْقِضاءِ ٱلعُمْرِ ، وَلٰكِنَّهُمْ يَسْتَمِرُّونَ فِي ٱلحَياةِ ، يَتَغَذَّونَ بِالدِّماءِ ، وَيُحَوِّلونَ غَيْرَهُمْ إلى مَصّاصي دِماءٍ مِثْلِهِمْ . وَهٰكَذا تَتَّسِعُ دائِرةُ اللّامَوْتَى عَلى مَرِّ ٱلأَيّامِ ، وَهٰؤُلاءِ ٱلأَطْفالُ الَّذينَ شَرِبَتْ مِنْ دِمائِهِمْ لَنْ يَتَأَثَّروا كَثيرًا ، أَمّا أُولٰئِكَ الَّذينَ تُشْرَبُ دِماؤُهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَإِنَّهُمْ يَسْتَمْرِئُونَها ، فَيَتَعَلَّمونَ حُبَّ مَصّاصِ دَمِهِمْ وَمِنْ ثَمَّ يُصْبِحونَ مَصّاصي دِماءٍ بَعْدَ أَنْ يَموتوا . أَمّا أَنْتَ ياصَديقي آرْثَر فَلَوْ أَنَّكَ كُنْتَ مَنَحْتَها نَفْسَكَ لَكانَ فِي ذٰلِكَ خَطَرٌ أَيُّ خَطَرٍ عَلَيْكَ ، وَلٰكِنَّ هُناكَ طَريقًا لِكَي نُحَرِّرَ رُوحَ اللّامَيِّتِ . نُحَرِّرُها مِنْ حَياةٍ كُلُّها شَرٌّ ، وَمِنْ آخِرةٍ كُلُّها عَذابٌ أَبَدِيٌّ . » ثُمَّ أَشارَ إلى ٱلمِطْرَقةِ قائِلًا :

« أَعْتَقِدُ أَنَّ أَمامَكَ عَمَلًا مُقَدَّسًا تَقومُ بِهِ .. أَنْ تَضْرِبَ ضَرْبَتَكَ وَتُنْقِذَ رُوحًا . إِنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَقومَ بِذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ أَلَيْسَ مِنَ الأَفْضَلِ لِذٰلِكَ الَّذي أَحَبَّهُ كَثيرًا أَنْ يَقومَ هُوَ بِهِ لِيُخَلِّصَها بِنَفْسِهِ ؟ »

فَقالَ آرْثَر : « ياصَديقِيَ الوَفِيُّ ، أَخْبِرْني بِما أَفْعَلُ وَسَوْفَ أَقومُ بِهِ . »

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « رَجُلٌ شُجاعٌ . خُذْ قِطْعَةَ الخَشَبِ هٰذِهِ وَضَعْ طَرَفَها المُدَبَّبَ عَلى قَلْبِها بِإِحْدَى يَدَيْكَ ، وَحينَما أَنْتَهي مِنْ تِلاوَةِ الصَّلاةِ عَلى المَيِّتِ مِنْ كِتابِ الصَّلَواتِ هٰذا اِضْرِبْ بِاسْمِ اللهِ . »

وَمَعَ أَنَّ آرْثَر كانَ لا يَزالُ شاحِبًا ، فَإِنَّهُ أَخَذَ قِطْعَةَ الخَشَبِ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ ثابِتَةٍ وَالمِطْرَقَةَ بِاليَدِ الأُخْرَى . وَبَدَأَ ڤان هِيلْسِينْغ في تِلاوَتِهِ بَيْنَما ساعَدَ الدُّكْتور سيوارْد في وَضْعِ الخَشَبَةِ فَوْقَ القَلْبِ مُباشَرَةً .

وَما إِنِ انْتَهى البُروفِيسور مِنَ الصَّلاةِ حَتَّى ضَرَبَ آرْثَر بِكُلِّ ما يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ . فَاهْتَزَّ الجَسَدُ الَّذي في التّابوتِ اهْتِزازًا عَنيفًا كَما لَوْ كان تَعَرَّضَ لِصَدْمَةٍ كَهْرَبِيَّةٍ ، وَانْفَتَحَ الفَمُ لِيُطْلِقَ صَيْحَةً جَعَلَتْ شَعْرَ رُؤوسِهِمْ يَقِفُ كَأَنَّهُ شَعْرُ فِرْجَوْنٍ . وَأَخَذَ الجَسَدُ كُلُّهُ يَنْقَلِبُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وَأَخَذَتِ الأَسْنانُ الحادَّةُ تَنْفَرِجُ وَتَنْطَبِقُ ، حَتَّى احْمَرَّتِ الشَّفَتانِ بِما انْبَثَقَ مِنْهُما مِنْ دَمٍ . وَمَعَ هٰذا فَإِنَّ أَرْثَر لَمْ يَتَوَقَّفْ ، وَكانَتْ يَدُهُ اليُمْنى تَرْتَفِعُ بِالمِطْرَقَةِ ثُمَّ تَهْوي مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ كُلَّما تَوَغَّلَ طَرَفُ الخَشَبةِ أَعْمَقَ ثُمَّ أَعْمَقَ ، حَتَّى سَكَنَتْ حَرَكَةُ الجَسدِ الضّارِيَةِ تَمامًا ، وَانْتَهى الأَمْرُ .

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « قَبْلَ أَنْ تُغادِروا المَقْبَرَةَ أَلْقُوا نَظْرَةً أَخيرَةً عَلى وَجْهِ لُوسِي ، إِنَّها لَيْسَتِ الآنَ واحِدَةً مِنْ عالَمِ اللّاموْتَى . »

فَنَظَر آرْثَر ، وَكانَ ما قالَهُ البُروفِيسور صَحيحًا ، فَبَعْدَ كُلِّ ما كانَ مِنْ دِماءٍ وَأَلَمٍ ، كانَتْ لُوسِي تَرْقُدُ في سَلامٍ . لَمْ تَعُدْ مَصّاصَةَ دِماءٍ ، وَإِنَّما صارَتْ لُوسِي الَّتي أَحَبَّها

وَالَّتي خَلَّصها أخيرًا . وَمالَ عَلَيْها فَقَبَّلَها لِلْـمَرَّةِ ٱلأَخيرةِ ، وَسارَ مُتَثاقِلًا إلى خارِجِ ٱلـمَقْبَرةِ .. إلى ضَوْءِ الشَّمْسِ .

أَمّا الطَّبيبانِ فَقَدْ قَطَعا بَقِيَّةَ قِطْعةِ ٱلخَشَبِ وَتَرَكا الطَّرَفَ ٱلـمُدَبَّبَ فِي قَلْبِها ، وَحَشَوا فَمَها بِالثُّومِ ، وَفَصلا رَأْسَها عَنْ جَسَدِها ، ثُمَّ أَحْكَما إغْلاقَ التّابوتِ بِٱلغِطاءِ . وَبَعْدَ خُروجِهِما أَوْصَدَ ٱلبُروفِيسور بابَ ٱلـمَقْبرةِ ، وَأَعْطَى آرْثَر ٱلـمِفْتاحَ ، ثُمَّ قالَ :

« لَقَدِ ٱنْتَهى أَوَّلُ جُزْءٍ مِنْ عَمَلِنا ، وَيَبْقَى بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلجُزْءُ ٱلأَعْظَمُ .. أَنْ نَجِدَ سَبَبَ ٱلبَلاءِ الَّذي نَزَلَ بِلُوسي ثُمَّ نُدَمِّرَهُ . كُلُّ ما أُريدُ أَنْ أَعْرِفَهُ هُوَ : هَلْ أَنْتُما مُسْتَعِدّانِ لِتَتْبَعاني لِـمُواجَهةِ مَخاطِرَ أُخْرَى ؟ »

فَقالَ جاك سيوارْد : « أَيْنَما تَذْهَبْ فَأَنا مَعَكَ . إنَّهُ واجِبٌ عَلَيْنا أَنْ نَقْضِيَ عَلى هٰذا الشَّرِّ . »

وَنَظَرَ ٱلِاثْنانِ إلى آرْثَر ، وَلٰكِنَّهُما لَمْ يَكونا في حاجةٍ إلى سُؤالِهِ . لَقَدْ كانَتْ تَبْدو في عَيْنَيْهِ نَظْرةُ الرَّجُلِ الَّذي لا يُريدُ مِنَ ٱلحَياةِ إلّا شَيْئًا واحِدًا ، وَالَّذي لَنْ يَهْدَأَ لَهُ بالٌ إلّا إذا وَجَدَهُ .

اَلْفَصْلُ ٱلخامِسَ عَشَرَ

وَهٰكَذا جَنَّدَ ڤان هِيلْسِينْغ جَيْشَهُ الصَّغيرَ ، وَلٰكِنْ أَيْنَ ٱلعَدُوُّ ؟ فَفي حالةِ لُوسي كانَتْ خُطوطُ ٱلـمَعْرَكةِ واضِحةً ، وَٱلأَمْرُ هاهُنا مُخْتَلِفٌ . وَمَعَ هٰذا ، فَإِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَـمْ يَكُنْ يَسْتَطيعُ ٱلِانْتِظارَ حَتَّى يَكْشِفَ ٱلعَدُوُّ عَنْ نَفْسِهِ . لَقَدْ كانَ مِنَ الرِّجالِ الَّذين لا يُحِبُّونَ التَّرَبُّصَ وَٱلِانْتِظارَ . وَفَوْقَ هٰذا ، فَقَدْ كانَ هُناكَ أَثَرٌ يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَفى ، أَمّا هٰذا ٱلأَثَرُ فَهُوَ الَّذي قادَهُ في ٱليَوْمِ التّالي إلى مَحَطَّةِ پادينغتون حَيْثُ ٱنْتَظَرَ وُصولَ جوناثان وَمِينا هارْكَر .

كانَ جوناثان مُنْذُ عَوْدَتِهِ مِنْ ترانْسيلْڤانْيا يَعيشُ في هُدوءٍ . كانَ قَدْ عانَى مِنْ صَدْمةٍ أَليمةٍ ، وَلِذٰلِكَ أَبْقَتْهُ مِينا بَعيدًا عَنْ لَنْدَن . أَمّا ٱلآنَ وَقَدْ تَحَسَّنَتْ حالَتُهُ فَقَدْ قَرَّرَتْ أَنْ يَذْهَبا إلى لَنْدَن لِيَلْتَقِيا بِڤان هِيلْسِينْغ الَّذي كانَ قَدْ طَلَبَ لِقاءَهُما مِرارًا .

وَصَلَ ٱلقِطارُ ، وَعادوا ثَلاثَتُهُمْ إلى ٱلفُنْدُقِ الَّذي يَنْزِلُ بِهِ ڤان هِيلْسِينْغ . وَفِي ٱلبِدايةِ رَوَتْ قِصَّةَ إقامَتِها مَعَ لُوسي في هْوِيتْبِي وَما وَقَعَ فيها مِنْ أَحْداثٍ . وَقَدْ أُعْجِبَ ٱلبُروفِيسور أَيَّ إعْجابٍ بِهٰذِهِ ٱلفَتاةِ الَّتي كانَتْ تَعْرِفُ كَيْفَ تَتَصَرَّفُ فِي ٱلـمَواقِفِ الصَّعْبةِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ رَوَى جوناثان قِصَّتَهُ مَعَ ٱلكونْت دراكولا ، وَلَـمْ يَسْتَطِعْ ڤان هِيلْسِينْغ بَعْدَ أَنِ اسْتَمَعَ إِلَيْهِ أَنْ يَكْتُمَ مَشاعِرَهُ ٱلـمُسْتَثارةَ فَسَأَلَهُ : « وَلٰكِنْ لِـماذا لَـمْ تُنْبِئ أَحَدًا بِكُلِّ هٰذا مِنْ قَبْلُ ؟ »

فَقالَتْ مِينا : « بُروفِيسور ، لَقَدْ مَضَتْ أَسابيعُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَرِدَّ عافِيَتَهُ وَيُصْبِحَ قادِرًا عَلى رِوايةِ قِصَّتِهِ لِأَحَدٍ .. حَتَّى لي أَنا . ثُمَّ مَنْ تَظُنُّ أَنَّهُ كانَ يُصَدِّقُهُ إِلّا أَنا ؟ »

وَحِينَئِذٍ أَخْبَرَهُما ڤان هِيلْسِينْغ بِكُلِّ ما حَدَثَ بَعْدَ مَوْتِ لُوسي ، ثُمَّ قالَ لَهُما : « سَوْفَ تُصَدِّقانِ قِصَّتي كَما صَدَّقْتُ قِصَّتَكُما ، وَلٰكِنْ — كَما تَقولينَ — مَنْ غَيْري وَغَيْرُكُما يُصَدِّقُ ؟ وَهٰذا هُوَ السَّبَبُ في أَنَّنا نَحْنُ الَّذين يَجِبُ أَنْ نُنازِلَ هٰذا الشَّرَّ . إِنَّني أَطْلُبُ إِلَيْكُما أَنْ تُشارِكانا في هٰذِهِ ٱلـمَعْرَكةِ ، وَلَسَوْفَ نَلْتَقي اللَّيْلةَ عِنْدَ الدُّكْتُور سِيوارْد . إِنَّكِ ياسَيِّدةُ هارْكَر تَعْلَمينَ أَكْثَرَ مِنْ أَيٍّ مِنّا مَدَى ٱلخَطَرِ الَّذي أَسْأَلُكِ أَنْ تُواجِهيهِ . »

فَتَطَلَّعَتْ مِينا إلى وَجْهِ جوناثان الشّاحِبِ الَّذي زَحَفَتْ إِلَيْهِ التَّجاعيدُ ، وَإلى شَعْرِهِ الَّذي وَخَطَهُ ٱلبَياضُ . تَطَلَّعَتْ إِلَيْهِ وَفي صَدْرِها حِقْدٌ عَلى قُوَّةِ الشَّرِّ الَّتي جَعَلَتِ الرَّجُلَ الَّذي تُحِبُّهُ يَبْدو مُسِنًّا قَبْلَ ٱلأَوانِ . ثُمَّ قالَتْ : « سَوْفَ أُساعِدُكَ . »

وَقالَ جوناثان أَخيرًا : « إذا ساعَدَتْكَ مِينا فَإِنَّني سَأُساعِدُكَ كَذٰلِكَ . »

وَبَدا مِنَ الطَّريقَةِ الَّتي نَطَقَ بِها عِبارَتَهُ أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ هٰذا ٱلقَرارَ بِسُهولَةٍ ، فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « سَنَكونُ بِٱنْتِظارِكُما في السّاعَةِ السّابِعَةِ . إنَّ ما سَمِعْتُهُ مِنْكُما يَجْعَلُني عَلى يَقينٍ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْنا وَقْتٌ نُضَيِّعُهُ ، وَفي ٱلواقِعِ رُبَّما سَبَقَ السَّيْفُ ٱلعَذَلَ . »

ثُمَّ قالَ بَعْدَ أَنِ ٱجْتَمَعوا وَتَباحَثوا : « وَهٰكَذا أَيُّها ٱلأَصْدِقاءُ ، فَهٰذِهِ هِيَ ٱلحَقائِقُ الَّتي ٱكْتَشَفْناها عَنْ عَدُوِّنا . وَطِبْقًا لِما تَكَشَّفَ لَنا ، فَهُوَ عَدُوٌّ قَوِيٌّ ، وَلٰكِنْ لَهُ مَواضِعُ ضَعْفٍ . وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَهُوَ في حاجَةٍ إلى مَكانٍ يَسْتَريحُ فيهِ أَثْناءَ ساعاتِ النَّهارِ ، فَإِذا ٱسْتَطَعْنا أَنْ نُباغِتَهُ وَهُوَ في صُنْدوقِهِ فَإِنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نُدَمِّرَهُ . »

فَقالَ سِيوارْد : « إذا ، وَلٰكِنَّنا قَبْلَ ذٰلِكَ نُريدُ أَنْ نَعْرِفَ أَيْنَ هٰذِهِ الصَّناديقُ ؟ »

فَرَدَّ ڤان هِيلْسِينْغ : « نَحْنُ نَعْرِفُ — وَٱلفَضْلُ في ذٰلِكَ لِجوناثان — أَنَّها عَلى بُعْدِ بِضْعِ مِئاتٍ مِنَ ٱلأَمْتارِ مِنَ ٱلحُجْرَةِ الَّتي نَجْلِسُ فيها ٱلآنَ في مَنْزِلِ كارْفاكْس ؟ »

فَصاحَ جاك سِيوارْد وَآرْثَر هُولْمُوود في وَقْتٍ واحِدٍ تَقْريبًا : « في مَنْزِلِ كارْفاكْس ؟ »

كانَ ڤان هِيلْسِينْغ يُحِبُّ أَنْ يُثيرَ دَهْشَةَ سامِعيهِ ، وَقَدْ أَحْدَثَتْ كَلِماتُهُ ٱلأَثَرَ الَّذي أَرادَهُ . قالَ : « إنَّ كارْفاكْس هُوَ بَيْتُ دراكولا ، وَلابُدَّ أَنْ تَكونَ الصَّناديقُ فيهِ . »

فقالَ سِيوارْد : « هٰذا يُفَسِّرُ حالَةَ رِينْفِيلْد ، لابُدَّ أَنَّ دراكولا هُوَ الَّذي أَثارَهُ في ذٰلِكَ ٱليَوْمِ . نَعَمْ ، مُنْذُ أُسْبوعٍ أَوْ أُسْبوعَيْنِ هَرَبَ مِنّا رِينْفِيلْد ، وَتَبِعْناهُ إلى أَراضي كارْفاكْس ، إلى أَبْوابِ ٱلكَنيسَةِ ٱلقَديمَةِ . لابُدَّ أَنْ تَكونَ الصَّناديقُ هُناكَ . »

فَصاحَ آرْثَر : « مَاذا نَحْنُ مُنْتَظِرونَ ؟ هَيَّا بِنا . »

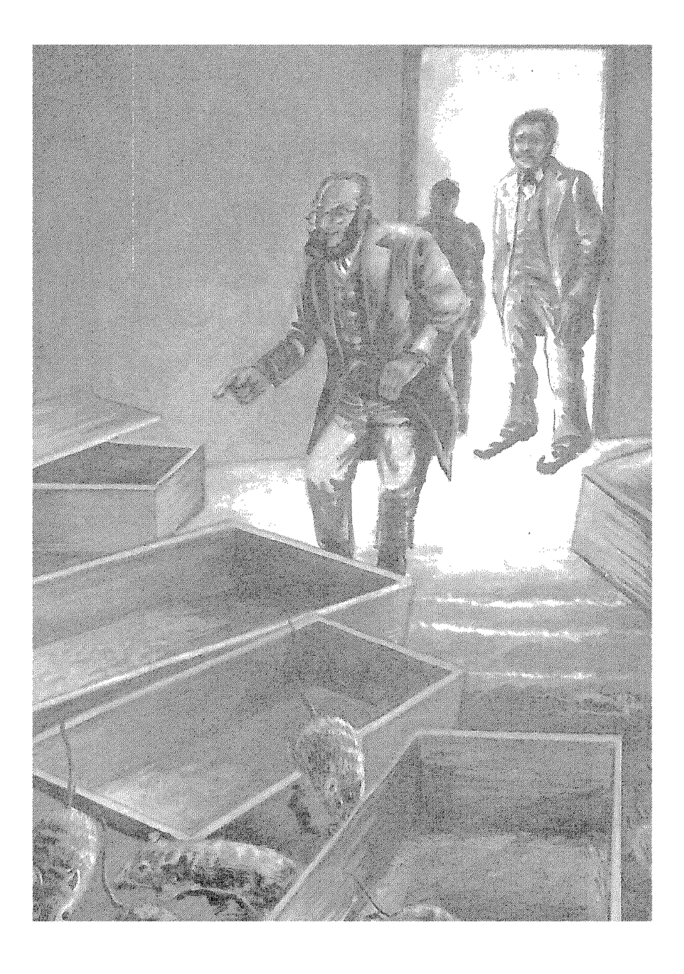
وَلَمْ يَكُنْ ڤان هِيلْسِينْغ يُحبُّ ٱلِاسْتِعْجالَ فَقالَ : « لَيْسَ بِهٰذِهِ السُّرْعةِ . لابُدَّ أَنْ نُعِدَّ أَنْفُسَنا أَوَّلًا . »

ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ صَليبًا صَغيرًا ذَهَبِيًّا وَعَلَّقَهُ حَوْلَ عُنُقِ جوناثان الَّذي كانَ أَقْرَبَ ٱلجَميعِ إِلَيْهِ ، وَعَلَّقَ مَعَهُ كَذٰلِكَ عِقْدًا مِنْ زُهورِ الثُّومِ أَخَذَهُ مِنْ صُنْدوقٍ كانَ بِحَوْزَتِهِ ، وَفَعَلَ الشَّيْءَ نَفْسَهُ مَعَ كُلٍّ مِنْ سيوارْد وَآرْثَر . فَلَمّا جاءَ دَوْرُ مِينا قالَ : « ياسَيِّدةُ مِينا ، لَنْ أَسْأَلَكِ أَنْ تُشارِكينا فِي هٰذِهِ ٱلمُهِمَّةِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ بِٱلمُهِمَّةِ الَّتي تَقْوى عَلَيْها النِّساءُ . لَقَدْ كانَتْ رِحْلَتُكِ ٱليَوْمَ طَويلةً شاقَّةً ، وَمِنْ حَقِّكِ أَنْ تَسْتَريحِي . »

فَقالَتْ مِينا إِنَّها لَيْسَتْ مُرْهَقةً ، وَإِنَّها تَرْغَبُ فِي الذَّهابِ مَعَهُمْ ، وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ يَرْضَخْ لِرَغْبَتِها ، وَخَرَجَ الرِّجالُ ٱلأَرْبعةُ وَحْدَهُمْ تَحْتَ سِتارِ اللَّيْلِ . كانَ جاك سيوارْد قَدْ أَحْضَرَ مَعَهُ مَجْموعةً مِنَ ٱلمَفاتيحِ ٱلقَديمةِ مُعَلَّقةً فِي حَلْقةٍ ، وَحاوَلَ أَنْ يَفْتَحَ بابَ ٱلكَنيسةِ بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ مِفْتاحًا ، واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ ، فَلَمْ يُفْلِحْ . أَمّا ٱلخامِسَ عَشَرَ فَقَدْ دارَ فِي ٱلقُفْلِ فَٱنْفَتَحَ ٱلبابُ إِلى الدّاخِلِ دونَ أَنْ يَدْفَعَهُ أَحَدٌ ، كَما لَوْ كانَ ثَمَّةَ من يَتَوَقَّعُ قُدومَهُمْ . وَكانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ ڤان هِيلْسِينْغ الَّذي رَسَمَ بِيَدِهِ ٱليُمْنى فِي ٱلهَواءِ عَلامةَ الصَّليبِ . كانَتِ ٱلأَرْضُ مُغَطّاةً بِطَبَقةٍ سَميكةٍ مِنَ التُّرابِ مِمّا جَعَلَ كَثيرًا مِنْ آثارِ ٱلأَحْذِيةِ الَّتي وَطِئَتْها واضِحةً عَلَيْها ، وَكانَ أَحَدُها أَكْثَرَ وُضوحًا لِقُرْبِ عَهْدِهِ . أَمّا الشَّيْءُ الَّذي لَفَتَ أَنْظارَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ فَقَدْ كانَ الرّائِحةَ النَّفّاذةَ ، إِذْ لَمْ يَكَدْ جوناثان يَشُمُّها حَتّى قالَ : « إِنَّها أَنْفاسُهُ . إِنَّني أَذْكُرُ رائِحَتَها جَيِّدًا . »

وَوَقَعَتْ أَنْظارُهُمْ عَلى ٱلفَوْرِ عَلى الشَّيْءِ الَّذي جاءوا مِنْ أَجْلِهِ ، فَقَدْ كانَتْ صَناديقُ التُّرابِ مَرْصوصةً بِجِوارِ ٱلجِدارِ واحِدًا فَوْقَ ٱلآخَرِ ، وَلٰكِنْ كَمْ كانَ عَدَدُها ؟ لَقَدْ أَظْهَرَ ٱلحَصْرُ ٱلعاجِلُ أَنَّ تِسْعةً وَعِشْرينَ فَقَطْ كانَتْ هُناكَ ، وَذٰلِكَ مِنَ الخَمْسينَ صُنْدوقًا .

وَحَرَّكَ ڤان هِيلْسِينْغ لِسانَهُ بِسِبابٍ خافِتٍ ، ثُمَّ قالَ : « إِنَّ العَدُوَّ لايَزالُ مُتَقَدِّمًا عَلَيْنا . »



ثُمَّ بَدَأَ يُعيدُ عَدَّ الصَّناديقِ : « اِثْنانِ وَعِشْرُونَ ، ثَلاثَةٌ وَعِشْرُونَ .. »

ثُمَّ تَوَقَّفَ إذْ كانَ آرْثَر يَجْذِبُ ذِراعَهُ لِيُنَبِّهَهُ إلى شَيْءٍ ما ، وَقالَ آرْثَر : « أَلا تُلاحِظُ أَنَّ المَكانَ أَقَلُّ إظْلامًا مِمّا كانَ ؟ »

فَتَوَقَّفوا جَميعًا عَنِ ٱلعَدِّ وَتَطَلَّعوا حَوْلَهُمْ . كانَ كُلُّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ ٱلمَبْنى مُمْتَلِئًا بِما يُشْبِهُ نُقَطًا نارِيَّةً حَمْراءَ ، ثُمَّ كانَتْ هُناكَ تَحَرُّكاتٌ صَغيرةٌ صَحِبَتْها أَصْواتٌ خَفيفَةٌ . وَوَقَفَ ٱلجَميعُ يُحَدِّقونَ فَتْرَةً قَصيرةً ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثوا أَنْ فَهِموا كُلَّ شَيْءٍ . كانَتِ ٱلكَنيسةُ تَموجُ بِمِئاتٍ بَلْ بِآلافِ ٱلجُرْذانِ . وَجَرَى ٱلجَميعُ نَحْوَ ٱلبابِ ، وَلٰكِنَّ ٱلجُرذانَ جَرَتْ نَحْوَهُمْ . كانَتْ هُناكَ جُرْذانٌ تَحْتَ أَقْدامِهِمْ ، وَجُرْذانٌ تَجْري فَوْقَ أَقْدامِهِمْ ، وَجُرذانٌ تَتَسَلَّقُ فَوْقَ سَراوِيلِهِمْ ، وَجُرذانٌ فِي شَعْرِ رُؤوسِهِمْ . أَمّا ٱلجُرْذانُ السِّمانُ الطِّوالُ فَقَدْ تَعَلَّقَتْ بِأَسْنانِها في مَلابِسِهِمْ ، وَكُلَّما نَفَضوها عَنْهُمْ حَلَّ مَحَلَّها ٱلمَزيدُ وَٱلمَزيدُ ، وَكانَتْ عُيونُها تَلْمَعُ في الظَّلامِ .

وَبَعْدَ لَأْيٍ آسْتَطاعوا أَنْ يَبْلُغوا ٱلبابَ ، وَمَعَ أَنَّهُمْ شَعَروا بِٱلأَمانِ في الخارِجِ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَنْطَلِقْ لِسانُهُ بِكَلِمةٍ إلّا بَعْدَ مُضِيِّ فَتْرةٍ مِنَ الزَّمَنِ . وَأَخيرًا قالَ فان هِيلْسِينْغ : « عِنْدَما نَعودُ غَدًا فَمِنَ ٱلخَيْرِ أَنْ يُحْضِرَ آرْثَر كِلابَهُ مَعَهُ . »

فَصاحَ سِيوارْد : « غَدًا ؟ إِنَّني لا أُريدُ ٱلعَوْدَةَ إِلَى هُنا أَبَدًا . »

فَرَدَّ فان هِيلْسِينْغ : « إِنَّنا مُضْطَرُّونَ إلى ٱلعَوْدةِ رَضينا أَمْ كَرِهنا . لابُدَّ أَن نُدَمِّرَ الصَّناديقَ . »

وَفِي ٱلحَقيقةِ لَمْ يَكُنْ فان هِيلْسِينْغ يُفَكِّرُ فِي الصَّناديقِ الَّتي يَعْتَزِمونَ تَدْميرَها ، وَإِنَّما الَّذي كانَ يُقْلِقُهُ هُوَ الصَّناديقُ الَّتي لَيْسَتْ هُناكَ . إنَّ واحِدًا وَعِشْرينَ صُنْدوقًا قَدْ نُقِلَتْ مِنْ كارْفاكْس وَلابُدَّ مِنَ ٱلعُثورِ عَلَيْها .

اَلْفَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ

بَيْنَما الرِّجالُ ٱلأَرْبعةُ جالِسونَ حَوْلَ ٱلـمائِدةِ يَتناوَلونَ طَعامَ ٱلإِفْطارِ قال ڤان هِيلْسِينْغ : « واحِدٌ وَعِشْرونَ صُنْدوقًا مَفْقودةً ، وَمِنَ ٱلـمُحْتَمَلِ أَنْ تَكونَ في أَيٍّ مَكانٍ . »

فَقالَ آرْثَر : « إِنَّ واحِدًا وَعِشْرينَ صُنْدوقًا تُؤَلِّفُ حِمْلًا كَبيرًا ، فَإِذا كانَتْ قَدْ نُقِلَتْ نَهارًا فَمِنَ ٱلـمُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ بَعْضُ ٱلَّذينَ في الـمُسْتَشْفى قَدْ لاحَظوا نَقْلَها . وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ كارْفاكْس قَريبةٌ جِدًّا ، وَلا بُدَّ أَنَّ الصَّناديقَ نُقِلَتْ خِلالَ ٱلأَسابيعِ الثَّلاثةِ ٱلأَخيرةِ . »

وَفَجْأَةً وَضَعَ الدُّكْتور سِيوارْد فِنْجانَ الشّاي بِعَجَلةٍ عَلى ٱلـمائِدةِ وَسارَعَ بِٱلخُروجِ مِنَ ٱلحُجْرةِ ، ثُمَّ عادَ بَعْدَ لَحَظاتٍ وَفي يَدِهِ قُصاصةُ وَرَقٍ ، وَالدَّهْشةُ تَعْلو وُجوهَ أَصْدِقائِهِ ، وَصاحَ : « كانَ يَنْبَغي أَلّا يَفوتَني التَّفْكيرُ في ذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ ... أَعْني : في تَقْريرِ دُكْتور هِينِسي . » ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ مُهاجَمةِ رِينْفِيلْد لِحَمّالَيْ عَرَبةِ النَّقْلِ ، وَكَيْفَ أَنَّ دُكْتور هِينِسي ٱحْتاطَ لِلْأَمْرِ فَسَجَّلَ ٱسْمَيْهِما خَشْيَةَ أَنْ تَحْدُثَ مَتاعِبُ مَعَ الشُّرْطةِ فيما بَعْدُ . ثُمَّ قالَ :

« وَها هُما ٱلِاسْمانِ ، توماس سْنِيلِّينْغ ، وجوزيف سْمُولِّيت ، وَلا بُدَّ أَنَّ رِينْفِيلْد قَدْ عَرَفَ أَنَّهُما كانا يَنْقُلانِ دراكولا في أَحَدِ هٰذِهِ الصَّناديقِ . »

وَقَدْ أَحَسَّ ڤان هِيلْسِينْغ بِٱرْتياحٍ حينَما سَمِعَ ٱلخَبَرَ ٱلَّذي جاءَ بِهِ الدُّكْتور سِيوارْد ، وَبَدَأَ يَضَعُ ٱلخُطَطَ مِنْ جَديدٍ . وَبِناءً عَلى ٱلخُطَّةِ ذَهَبَ جوناثان إِلى لَنْدن لِلْبَحْثِ عَنْ حَمّالَيْ عَرَبةِ ٱلنَّقْلِ ، وَٱلِاهْتِداءِ إِلى ٱلـمَكانِ ٱلَّذي نَقَلا إِلَيْهِ الصَّناديقَ . أَمّا الثَّلاثةُ ٱلآخَرونَ فَقَدْ عادوا إِلى كارْفاكْس . وَلَـمْ يَكُنِ ٱلـمَكانُ في ضَوْءِ النَّهارِ مُرْعِبًا كَما كانَ بِٱلأَمْسِ ، وَلَـمْ تَكُنْ هُناكَ حاجةٌ إِلى ٱلكِلابِ ٱلَّتي أَحْضَرَها آرْثَر مَعَهُ لِتُبْعِدَ ٱلجُرْذانَ ، إِذْ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ أَيٌّ مِنْها ، وَلا كانَتْ هُناكَ أَيَّةُ جُثَّةٍ في أَيٍّ مِنَ الصَّناديقِ . وَلِذٰلِكَ كانَ مِنَ السَّهْلِ عَلى ٱلبُرُوفِيسور أَنْ يَفْتَحَ كُلَّ صُنْدوقٍ وَيَضَعَ في داخِلِهِ قِطْعةً مِنَ ٱلخُبْزِ ٱلـمُقَدَّسِ . وَمَعْنى هٰذا أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطيعَ مَصّاصُ دِماءٍ أَنْ يَسْتَقِرَّ فيها بَعْدَ ذٰلِكَ .

لَـمْ تَكُنْ مِينا في صِحَّةٍ طَيِّبةٍ ، وَكانَتْ تَبْدو شاحِبةَ ٱلوَجْهِ وَهِيَ تَجْلِسُ لِتَتَناوَلَ

ٱلإِفْطارَ فِي ٱلوَقْتِ ٱلَّذي عادَ فيهِ الرِّجالُ . وَفيما بَعْدُ ، قامَتْ بِجَوْلَةٍ فِي ٱلـمُسْتَشْفى مَعَ ٱلدُّكْتُور سِيوارْد ، وَكانَ يَرْوي لَها قِصَّةَ رِينْفِيلْد الَّتي أَثارَتِ ٱهْتِمامَها ، حَتَّى بَلَغا حُجْرَتَهُ فَدَخَلَتْها مَعَ الطَّبيبِ . كانَ رِينْفِيلْد يَبْدو هادِئًا ، بَلْ لَقَدْ كانَ وَدودًا أَليفًا في هٰذا ٱليَوْمِ ، وَبدا عَلَيْهِ أَنَّهُ مُعْجبٌ بِمِينا الَّتي ٱسْتَأْذَنَتِ الطَّبيبَ في أَنْ تَقْضيَ مَعَهُ بَعْضَ ٱلوَقْتِ لِتَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ . وَبَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ كانَ دُكْتُور سِيوارْد مَشْغولًا بِعَمَلِهِ ، كَما كانَ ٱلبُروفِيسور مَشْغولًا بِقِراءَةِ كِتابٍ فِي ٱلحَديقَةِ ، أَمَّا آرْثَر فَقَدْ أَخَذَ كِلابَهُ في جَوْلَةٍ لِلتَّرَيُّضِ . وَفيما بَعْدُ ، وَصَلَتْ بَرْقِيَّةٌ مِنْ جوناثان يَقولُ فيها إِنَّهُ لَـمْ يَنْتَهِ مِنْ تَحَرِّياتِهِ بَعْدُ ، وَإِنَّهُ قَرَّرَ أَنْ يَقْضِيَ اللَّيْلَ في لَنْدَن . وَبَعْدَ أَنْ قَضى ٱلآخرونَ أُمْسِيَةً طَيِّبَةً مُجْتَمِعين ، ٱنْصَرَفوا إِلى مَضاجِعِهِمْ واحِدًا بَعْدَ ٱلآخَرِ . وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّ هٰذا ٱليَوْمَ الَّذي ٱنْقَضَى هادِئًا لَـمْ يُعِدَّهُمُ ٱلإِعْدادَ ٱلكافِيَ لِـمُواجَهةِ ٱللَّيْلَةِ الَّتي كانَتْ تَنْتَظِرُهُمْ . فَفي الدَّقيقَةِ ٱلعِشْرينَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ٱسْتَيْقَظَ ڤان هِيلْسِينْغ عَلى صَيْحةٍ مُرْعِبةٍ . وَبَيْنَما هُوَ يَرْتَدي بَعْضَ ثِيابِهِ سَمِعَ وَقْعَ أَقْدامِ شَخْصٍ يَجْري فِي الدِّهْليزِ نَحْوَ حُجْرةِ الدُّكْتور سِيوارْد . وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ الحارِسُ اللَّيْلِيُّ جاءَ لِيُعْلِنَ أَنَّ رِينْفِيلْد قَدْ أُصيبَ . وَحينَما وَصَلَ الطَّبيبانِ إِلى حُجْرةِ رِينْفِيلْد شاهَداهُ مُمَدَّدًا عَلى ٱلأَرْضِ ، وَأَنَّهُ وُجِّهَتْ إِلى رَأْسِهِ ضَرْبَةٌ شَديدةٌ هَشَّمَتْ عَظْمةَ الرَّأْسِ وَضَغَطَتْها إِلى الدّاخِلِ وَكانَ الرَّجُلُ لايَزالُ حَيًّا ، وَلٰكِنَّهُ يَتَنَفَّسُ بِصُعوبةٍ .

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « أَحْضِرْ حَقيبَتَكَ . لابُدَّ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنَ الضَّغْطِ الَّذي تُحْدِثُهُ ٱلعَظْمةُ ٱلـمَكْسورةُ . لابُدَّ أَنْ نَقُصَّها فَوْرًا وَإِلَّا فَإِنَّهُ سَيَموتُ . »

فَرَدَّ سِيوارْد : « سَوْفَ يَموتُ لاَ مَحالةَ . لَقَدْ كانَتِ الضَّرْبةُ في غايةِ ٱلعُنْفِ . لا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ الإِصابةُ نَتيجةَ مُجَرَّدِ سُقوطٍ . »

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ وَهُوَ يَحْلِقُ الشَّعْرَ ٱلـمُلَوَّثَ بِالدَّمِ لِيُنَظِّفَ ٱلـمَكانَ الَّذي سَيُحْدِثُ فيهِ ٱلقَصَّ : « إِذا أَمْكَنَهُ أَنْ يُخْبِرَنا بِما حَدَثَ لَهُ فَرُبَّما كانَ هٰذا عَوْنًا لَنا . »

وَقَدْ نَجَحَتْ مُحاوَلاتُ الطَّبيبَيْنِ وَظَهَرَتْ نَتائِجُها فِي ٱلحالِ ، إِذِ ٱنْفَتَحَتْ عَيْنا رِينْفِيلْد وَبَدَأَتْ شَفَتاهُ تَتَحَرَّكانِ ، ثُمَّ قالَ : « لَقَدْ جاءَ . »

فَقالَ سِيوارْد : « اِسْتَمِـرَّ . »

فَمَضى يَقولُ : « .. مِنْ خِلالِ النَّافِذةِ في الضَّبابِ ، مِثْلَما جاءَ في اللَّيْلةِ الْماضِيةِ . وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَسْعَى إلى دِماءٍ . لَقَدْ كانَتِ السَّيِّدةُ هارْكَر طَيِّبةً مَعي ، وَكانَ يَسْعَى إلى دَمِها ، وَحاوَلْتُ أَنْ أَمْنَعَهُ فَطَرَحَني أَرْضًا . »

وَخَفَتَ صَوْتُ رِينْفِيلْد الْمِسْكينِ حَتَّى أَصْبَحَ مِنَ الصَّعْبِ سَماعُهُ ، ثُمَّ سَكَتَ بَعْدَ ذٰلِكَ .

وَجَسَّ دُكْتُور سِيوارْد نَبْضَهُ ... لَقَدْ ماتَ !

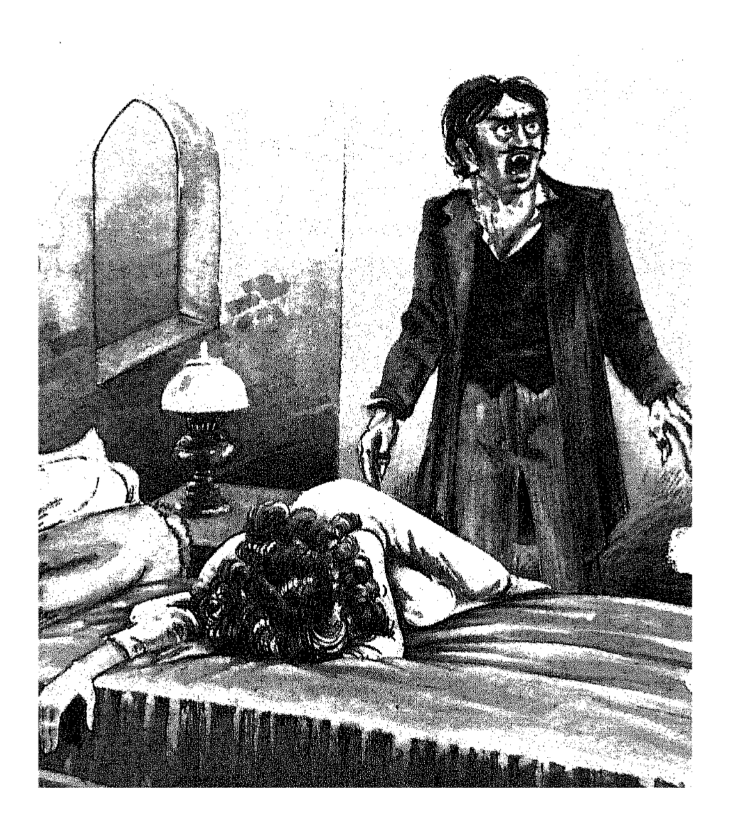
لَمْ يَنْبِسْ أَيٌّ مِنَ الطَّبِيبَيْنِ بِكَلِمةٍ ، وَإِنَّما انْدَفعا إلى الطَّابَقِ الْعُلْوِيِّ حَيْثُ الْتَقَيا في طَرِيقِهِما بِآرْثَر ، وَاتَّجَهوا مُباشَرةً إلى حُجْرةِ مِينا . وَتَوقَّفوا عِنْدَ بابِها وَأَنْصَتوا ، وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ هادِئًا في داخِلِ الْحُجْرةِ ، فَهَلْ كانَ مِنَ الْحِكْمةِ أَنْ يَثِقوا بِما فاهَ بِهِ رَجُلٌ مَجْنونٌ في لَحْظةِ احْتِضارِهِ ؟

وَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ وَهُوَ يُحاوِلُ فَتْحَ الْبابِ في حَذَرٍ وَرِفْقٍ : « إِنَّها مَسْأَلةُ حَياةٍ أَوْ مَوْتٍ . »

كانَ الْبابُ مُوصَدًا ، فَانْدَفَعَ آرْثَر عَلى الْفَوْرِ وَأَلْقى بِجِسْمِهِ عَلَيْهِ بِكُلِّ ما يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ ، فَانْفَتَحَ الْبابُ عَلى مِصْراعَيْهِ مِمَّا أَدَّى إلى أَنْ يَهْوِيَ الْبُروفِيسور عَلى الْأَرْضِ . وَحِينَ نَهَضَ عَلى رُكْبَتَيْهِ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلى مَنْظَرٍ جَمَّدَ الدَّمَ في عُروقِهِ ، وَظَلَّ لَحْظةً لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَرْفَعَ نَفْسَهُ عَنِ الْأَرْضِ .

كانَ دراكولا واقِفًا ، وَكانَ ظَهْرُهُ مُسْتَنِدًا إلى الْجِدارِ الَّذي في أَقْصى الْحُجْرةِ ، وَكانَ يُمْسِكُ بِمِينا لَصِيقةً بِهِ ، وَذِراعُهُ الْيُمْنَى تَقْبِضُ عَلى رَأْسِها وَتَدْفَعُ بِهِ نَحْوَ صَدْرِهِ . كانا يَبْدوانِ لِأَوَّلِ وَهْلةٍ كَأَنَّهُما عاشِقانِ . وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمَحَ جُرْحًا مَفْتوحًا في عُنُقِ مَصَّاصِ الدِّماءِ ، وَخَطًّا رَفيعًا مِنَ الدَّمِ يَسيلُ عَلى صَدْرِهِ . كانَ دراكولا يَضْغَطُ عَلى وَجْهِ مِينا إلى أَسْفَلَ فَوْقَ صَدْرِهِ لِيُرْغِمَها عَلَى أَنْ تَشْرَبَ مِنْ دَمِهِ كَما يُرْغِمُ الْمَرْءُ قِطًّا صَغيرًا عَلى شُرْبِ اللَّبَنِ .

وَ مِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ ، أَنَّ دراكولا قَدْ أَخذَتْهُ ٱلمُفاجَأَةُ كَما أَخذَتْهُمْ ، فَقَدْ كانَتْ عَيْناهُ تَبْدُوانِ كَدائِرَتَيْنِ مِنْ نارٍ ، بَيْنَما كانَ فَمُهُ مَفْغورًا ، و بادَرَ إلى إلْقاءِ مِينا عَلى السَّريرِ وَ قَدِ



آحْمَرّ وَجْهُها وَقَميصُ نَوْمِها مِمَّا عَلَقَ بِها مِنْ دِماءٍ . وَفي اللَّحْظَةِ الَّتي كانَ يَتَأَهَّبُ فيها لِكَي يَقْفِزَ كانَ ڤان هِيلْسِينْغ قَدْ تَمَكَّنَ مِنَ آلوقوفِ عَلى قَدَمَيْهِ وَرَفَعَ الصَّليبَ في يَدِهِ وَوَجَّهَهُ نَحْوَ دراكولا ، وَآقتَدى بِهِ كُلٌّ مِنْ سِيوارْد وَآرْثَر بِصَليبَيْهِما . أَمَّا مَصَّاصُ الدِّماءِ فَقَدْ أَطْلَقَ صَرْخَةً ، وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها تَسَلَّلَتْ ضَبابَةٌ إلى آلحُجْرَةِ وَخَيَّمَتْ عَلَيْها ، وَلَمْ تَكَدْ تَنْقَشِعُ حَتَّى كانَ آلكونْت قَدْ ذَهَبَ .

وَآنقَضَتْ ساعَةٌ قَبْلَ أَنْ تَسْتَعيدَ مِينا قُدْرَتَها عَلى آلكَلامِ ، إذْ كانَتِ الصَّدْمَةُ الَّتي أَصابَتْها شَديدَةً . قالَتْ مِينا : « لَقَدْ كانَ أَشْبَهَ بِحُلْمٍ .. حُلْمٍ رَأَيْتُهُ في اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ كُنْتُ عَلى وَشْكِ أَنْ يُدْرِكَني النُّعاسُ حينَما ظَهَرَ إلى جِواري رَجُلٌ لامِعُ آلعَيْنَيْنِ ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيَّ ، فَخارَتْ قُوايَ كُلُّها . ثُمَّ .. » وَبَدا كَأَنَّما تُعاني مَشَقَّةً في آلاسْتِمْرارِ في كَلامِها ثُمَّ قالَتْ : « ثُمَّ فَتَحَ قَميصَهُ ، وَأَنْشَبَ أَظافِرَهُ في عُنُقِهِ فَأَحْدَثَ جُرْحًا نَزَفَتْ دِماؤُهُ ، وَجَعَلَني أَشْرَبُ مِنْ دَمِهِ . وَبَيْنَما كُنْتُ أَشْرَبُ ، وَكانَ ذٰلِكَ رَغْمًا عَنّي ... بَيْنَما كُنْتُ أَشْرَبُ .. قالَ .. » ثُمَّ تَوَقَّفَتْ .

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « حاوِلي آلاسْتِمْرارَ يا عَزيزَتي . »

فَمَضَتْ تَقولُ : « قالَ : آلآنَ أَصْبَحْنا وَلَنا دَمٌ واحِدٌ ، وَعَقْلٌ واحِدٌ . لَقَدْ ساعَدْتِ أَعْدائي ، وَلٰكِنَّكِ سَوْفَ تُساعِدينَني عاجِلًا . »

لَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ ؛ إذ ماذا يُمْكِنُ أَنْ يَقولوا لِيُساعِدوها ؟ وَمَضَتْ مِينا تَقولُ وَالدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْها ، وَهِيَ تُمْسِكُ بِيَدَيْ ڤان هِيلْسِينْغ : « وَلٰكِنْ هَلْ صَحيحٌ يابُروفِيسور ؟ هَلْ سَأَظَلُّ أَسيرَةً لِدراكولا مُرْتَبِطَةً بِهِ إلى آلأَبَدِ ؟ وَحينَما أَموتُ ، أَلا بُدَّ أَنْ أُصْبِحَ واحِدَةً مِنْ هٰؤُلاءِ ؟ »

فَرَدَّ ڤان هِيلْسِينْغ وَهُوَ يَبْدو أَكْبَرَ سِنًّا وَأَشَدَّ بَياضَ شَعْرٍ مِمَّا هُوَ : « ياآبْنَتي ، إنَّكِ مَعَ أَصْدِقاءَ يُضَحُّونَ بِحَياتِهِمْ لِكَيْ تَكوني آمِنَةً . لَقَدْ تَهاوَنَّا في آلحِفاظِ عَلَيْكِ ، وَلٰكِنَّنا لَنْ نَتَهاوَنَ بَعْدَ آلآنَ . إذا كانَ دراكولا يَظُنُّ أَنَّه كَسَبَ شَيْئًا في هٰذِهِ آلجَوْلَةِ فَهُوَ مُخْطِئٌ . لَقَدْ كانَ لَدَيْنا مِنْ قَبْلُ سَبَبٌ كافٍ يَدْفَعُنا لِتَدْميرِهِ ، أَمَّا آلآنَ فَإنَّ هٰذا السَّبَبَ أَصْبَحَ أَقْوى مِمَّا كانَ أَلْفَ مَرَّةٍ . »

اَلْفَصْلُ ٱلسّابِعَ عَشَرَ

عادَ جوناثان في الصَّباحِ التّالي وَ هُوَ يَشْعُرُ ــ عَلى غَيْرِ ٱلعادةِ ــ بالرِّضا عَنْ نَفْسِهِ ، فَقَدِ آهتَدى إلى ثَلاثةِ أَماكِنَ أُرْسِلَتْ إِلَيْها الصَّناديقُ . فَخَمْسةٌ مِنْها أُرْسِلَتْ إلى مايل إند في شَرْقِ لَنْدَن ، وَ سَبْعةٌ إلى وولوارث في جَنوبِ لَنْدَن ، وَ تِسْعةٌ إلى رَقْمِ ١١٨ في بيكاديللي . وَ كانَتْ وُجوهُ أَصْحابِهِ ٱلحَزينةُ الَّتي قابَلوهُ بِها في ٱلـمُسْتَشْفى تَنِمُّ عَنْ أَمْرٍ ما ، مِمَّا جَعَلَهُ مُسْتَعِدًّا لِتَلَقِّي ٱلأَخْبارِ السَّيِّئَةِ عَنْ مِينا . وَ مَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ وَقَعَ ٱلخَبَرُ عَلَيْهِ وَ قْعَ الصَّاعِقةِ . وَلَوْلا أَنَّ مِينا نَفْسَها كانَتْ في غايةِ الشَّجاعةِ لَفَقَدَ كُلَّ ما كانَ قَدِ آستَرَدَّهُ مِنْ قُوَّةٍ في ٱلجِسْمِ وَ ٱلعَقْلِ في ٱلأَسابيعِ ٱلقَليلةِ ٱلـماضِيةِ .

كانَ ٱلِاجْتِماعُ الَّذي عَقَدَهُ ٱلأَصْدِقاءُ في مَكْتَبِ الطَّبيبِ لِقاءً غَيْرَ سَعيدٍ . لَقَدْ حَدَثَ تَغَيُّرٌ في اللُّعْبةِ . فَمِنْ قَبْلُ ، رُبَّما كانَ يَكْفي أَنْ تُدَمَّرَ الصَّناديقُ ، وَ يُضْطَرَّ دراكولا إلى مُغادرةِ إِنْجِلْترا ، أَمَّا ٱلآنَ فَقَدْ أَصْبَحَ مِنَ الضَّروريِّ أَنْ يُدَمَّرَ دراكولا نَفْسُهُ إذا أُريدَ إِنْقاذُ مِينا . لَقَدْ شَرِبَتْ مِنْ دَمِ مَصَّاصِ الدِّماءِ ، وَ لا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَتى يَبْدَأُ الشَّرُّ وَ يَقَعُ ٱلبَلاءُ .

وَ لٰكِنَّهُمْ ــ عَلى ٱلأَقَلِّ ــ كانوا يَعْلَمونَ ٱلآنَ إلى أَيْنَ نُقِلَتِ الصَّناديقُ ، و إذا لَمْ يَكُنْ دراكولا قَدْ قامَ بِتَوْزيعِها حَوْلَ لَنْدن ــ مَرَّةً أُخرى ــ فَمِنَ ٱلـمُمْكِنِ تَدْميرُها . وَ لٰكِنَّ دُكْتور سِيوارْد أَثارَ أَوَّلَ مُشْكِلةٍ ، إذْ قالَ : « كَيْفَ نَتَمَكَّنُ مِنْ دُخولِ ٱلـمَنازِلِ الَّتي بِها الصَّناديقُ ؟ »

فَرَدَّ جوناثان مُتَسائِلًا : « كَيْفَ تَمَكَّنَ ٱلكونْت مِنْ دُخولِها ؟ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ لَهُ أَساليبَهُ في الدُّخولِ . وَ لٰكِنَّهُ عادةً ــ يَسْتَخْدِمُ مَفاتيحَ ، وَ لا بُدَّ أَنَّهُ يَحْتَفِظُ بِهٰذِهِ ٱلـمَفاتيحِ في مَكانٍ ما . وَ مَنْزِلُ بيكاديللي يَقَعُ في وَسَطِ لَنْدَن . وَ لَوْ كُنْتُ مَكانَه لَاحْتَفَظْتُ بِٱلـمَفاتيحِ فيهِ . »

فَقالَ الطَّبيبُ : « هٰذا صَحيحٌ . وَ لٰكِنْ لا يَزالُ عَلَيْنا أَنْ نَدْخُلَ هٰذا ٱلـمَنْزِل . وَ لَيْسَ

مِنَ السَّهْلِ أَنْ نَتَسَلَّلَ إلى مَنْزِلٍ كبيرٍ كَهٰذا يَقَعُ في حَيٍّ مأْهولٍ مِنْ أَحْياءِ لَنْدَن ، وَ في ضَوْءِ النَّهارِ ، دونَ أَنْ يُبْلِغَ أَحَدٌ الشُّرْطةَ . »

وَ كانَ الرَّدُّ عِنْدَ آرْثَر الَّذي قالَ : « أُتْرُكوا لي هٰذِهِ ٱلـمُهِمَّةَ . كُلُّ ما أَحْتاجُ إلَيْهِ هُوَ مَجْموعةٌ مِنَ الثِّيابِ الثَّمينةِ . »

فَنَظروا إلَيْهِ مَدْهوشينَ ، وَ لٰكِنَّه لَـمْ يَلْفِظْ بِكَلِـمةٍ ، وَ إنَّما كانَ يَبْدو وَ هُوَ مُتَأَكِّدٌ تمامًا أَنَّ ٱلبُروفيسور قَرَّرَ أَنْ يَثِقَ في خُطَّتِهِ أَيًّا كانَتْ هٰذِهِ ٱلخُطَّةُ . وَ لٰكِنْ بَقِيَتْ هُناكَ صُعوبةٌ واحِدَة ، إذْ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكوا مِينا في رِعايتِهِ .

فَسَأَلَتْ مِينا : « وَ لِماذا لا أَصْحَبُكُمْ إلى لَنْدَن ؟ »

فَقالَ ٱلبُروفيسور : «لِأَنَّ ٱلعَمَلَ الَّذي نَقومُ بِهِ لَنْ يَكونَ مِنْ نَوْعِ ٱلعَمَلِ الَّذي تَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُ النِّساءُ . »

فَقالَتْ مِينا : « بُروفِيسور ، إنَّ الَّذي رَأَيتُ مِنْ قَبْلُ ، وَ الَّذي عانَيْتُ مِنْ قَبْلُ ، لَـمْ يَكُنْ مِنْ نَوْعِ ٱلعَمَلِ الَّذي تَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُ النِّساءُ ، وَ لٰكِنِّي رَأَيْتُهُ وَ عانَيْتُهُ . إنَّني ذاهِبةٌ مَعَكُمْ ، وَ سَوْفَ تَرى أَنَّني لَنْ أَخافَ . »

وَ في هٰذِهِ ٱلـمَرَّةِ لَـمْ يَكُنْ لَدَى ڤان هِيلْسِينْغ ما يُجيبُ بِهِ ، وَ ذَهَبَتْ مِينا مَعَهُمْ .

عِنْدَما ٱقْتَرَبوا مِنْ لَنْدن ٱرْتَدى آرْثَر ٱلـملابِسَ الثَّمينةَ ، وَ بَدا كَأَنَّهُ ٱبْنُ لُورد ، ثُمَّ غادَرَ ٱلـمَحطَّةَ وَحْدَهُ في عَرَبةٍ ، وَ قالَ لَهُمْ وَ هُوَ يَتْرُكُهُمْ : « أَمْهِلوني ساعةً واحِدةً فَقَطْ . »

وَ بَعْدَ مُضِيِّ السَّاعةِ تَمامًا كانَ ڤان هِيلْسِينْغ وَ سِيوارْد يَسيرانِ إلى بيكاديللي ، وَ عَلى بُعْدِ أَرْبَعينَ مِتْرًا خَلْفَهُما سارَ جوناثان وَ مِينا كَأَنَّهُما لا يَعْرِفانِهِما . وَ حينَما مَرَّ ٱلبُروفيسور وَ سِيوارْد بِٱلـمَنْزِلِ رَقْمِ ١١٨ أَخَذَتْهُما الدَّهْشةُ إذْ رَأَيا أَنَّ ٱلبابَ نِصفُ مَفْتوحٍ وَ شاهَدا أَحَدَ ٱلعُمَّالِ يَقومُ بِعَمَلٍ ما في ٱلقُفْلِ . فَتَوَقَّفا وَ تَظاهَرا بِأَنَّهُما يَتَأَمَّلانِ في مَعْروضاتِ أَحَدِ

المَتاجِرِ المُجاوِرةِ ؛ لِكَيْلا يَلْفِتا إلَيْهِما الأَنْظارَ . وَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ جوناثان و مِينا فُتِحَ بابُ المَنْزِلِ كامِلًا ، وَ ظَهَرَ آرْثَر مِنَ الدَّاخِلِ فَأَعْطى العامِلَ بَعْضَ النُّقودِ ، ثُمّ حَمَلَ العامِلُ حَقيبَتَهُ وَ انْصَرَف .

وَ الْتَقى الجَميعُ داخِلَ المَنْزِلِ فَأَغْلَقوا البابَ ، وَوَقَفوا في البَهْوِ يَتَحَدَّثونَ . وَ وَجَّهَ البْروفِيسور سُؤالَهُ إلى آرْثَر : « كَيْفَ تَأَتَّى لَكَ أَنْ تَفْعَلَ هٰذا ؟ »

فَابْتَسَمَ آرْثَر وَ قالَ : « ذَهَبْتُ إلى حانوتٍ لِبَيْعِ الأَقْفالِ ، وَقُلْتُ إنَّ خادمي الأَحْمَقَ سافَرَ وَمَعَهُ كُلُّ مَفاتِيحي وَ إنِّي لا أَسْتَطيعُ دُخولَ مَنْزِلي ، وَ سَأَلْتُهُمْ ما إذا كانوا يَسْتَطيعونَ فَتْحَ بابِهِ ، فَأَرْسَلوا أَحَدَ عُمَّالِهِمْ مَعي . حَقيقةً لَقَدْ كانَ الأَمْرُ في غايةِ البَساطةِ . »

فَسَأَلَ سِيوارْد : « وَلٰكِنْ ... أَلَـمْ يَسْأَلوكَ عَمَّنْ تَكونُ ؟ »

فَأَجابَ آرْثَر : « إنَّهم في لَنْدن يُصَدِّقونَ الرَّجُلَ الَّذي يَلْبَسُ ثِيابًا أَنيقةً ما دامَ يَبْدو واثِقًا مِنْ نَفْسِهِ . »

وَ هٰكَذا شَرَعوا يَبْحَثُونَ في الطَّابَقِ الأَرْضيِّ حَتَّى وَجَدوا الصَّناديقَ في حُجْرةٍ خَلْفِيَّةٍ كَريهَةِ الرَّائِحةِ ، وَ قالَ فان هِيلْسِينْغ : « تِسْعةٌ ! الحَمْدُ للهِ ، فَإذا كانَ الكونت في واحِدٍ مِنْ هٰذِهِ فَلَنْ نَكونَ في حاجةٍ إلى الإسْتِمْرارِ في البَحْثِ . »

وَ تَرَكَ البْروفِيسور الآخَرينَ لِيَقوموا بِفَتْحِ الصَّناديقِ ، وَ صَعِدَ هُوَ إلى الطَّابَقِ العُلْويِّ وَ دَخَلَ الحُجْرةَ الكُبْرى الَّتي تُطِلُّ عَلى الشَّارِعِ . وَ كانَ في وَسَطِ الحُجْرةِ مِنْضَدةٌ عَلَيْها فِرْجَونُ شَعْرٍ ، وَ فِرْجَونُ مَلابِسَ ، وَ فِنجانٌ قَديمٌ بِهِ قَليلٌ مِنَ الماءِ . وَبَدا كَما لَوْ كانَ الماءُ قَد اسْتُخْدِمَ في إزالةِ دَمٍ . وَ كانَ هُناكَ مِفْتاحانِ أَيْضًا . فَأَخَذَهُما وَ هَبَطَ إلى الطَّابَقِ الأَرْضيِّ في نَفْسِ اللَّحْظةِ الَّتي كانوا يَفْتَحونَ فيها الصُّنْدوقَ الأَخيرَ . وَ تَبَيَّنَ أَنَّ دراكولا لَـمْ يَكُنْ في أَيٍّ مِنَ الصَّناديقِ التِّسْعةِ ، وَلٰكِنَّ فان هِيلْسِينْغ لَـمْ يَكُنْ في الحَقيقةِ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَكونَ مَحْظوظًا إلى هٰذِهِ الدَّرَجةِ ، وَ كانَ في جَعْبَتِهِ خُطَطٌ أُخْرى .

قالَ ٱلبُروفِيسور : « جاك ، سَوْفَ تَذْهَبُ إلى مايل إند ، أَمَّا آرْثَر و جوناثان فَيَذْهَبانِ إلى وولوارث ، وَهاكُمُ ٱلـمِفْتاحَيْنِ ، وَلا تَنْسَوا أَنْ تَتَوَقَّفوا في الطَّريقِ عِنْدَ ٱلفُنْدُقِ الَّذي أَنْـزِلُ فيهِ لِكَيْ تَأْخُذوا ٱلحَقـيبَتَيْنِ اللَّتَـيْنِ تَحْتَوِيانِ عَلى كُلِّ مـا تَحْتاجونَ إِلَيْهِ في مُهِمَّتِكُمْ . أَمَّـا مِينا وَأَنا فَسَنَبْقى هُنا ، وَحاوِلوا أَنْ تَعودوا إلى هُنا قَبْلَ حُلولِ الظَّلامِ . »

اِنْصَرَفَ الرِّجالُ الثَّلاثةُ وَبَقِيَ ڤان هِيلْسِينْغ وَمِينا في ٱلمَنْزِلِ وَحْدَهُما ، فَصَعِدا إلى الطَّابَقِ ٱلعُلْوِيِّ ، وَجَلَسا إلى النَّافِذةِ يَتَطَلَّعانِ إلى الشَّارِعِ ٱلـمُزْدَحِمِ . وَكانا يُحاوِلانِ أَلَّا يُفَكِّـرا في الصَّناديقِ الَّتي في الطَّابَقِ ٱلأَرْضِيِّ ، أَوْ في ٱلـماءِ ٱلـمَصْبوغِ بِالدَّمِ فَوْقَ ٱلـمِنْضَدةِ خَلْفَهُما ، أَو في أَنْفاسِ مَصَّاصِ الدِّماءِ الَّتي كانَتْ تَسْري في ٱلهَواءِ .

كانا يَعْلَـمانِ أَنَّهما في أَمانٍ في النَّهارِ ، وَلٰكِنْ ما إِنْ ظَهَرَتْ بوادِرُ ٱلـمَساءُ ، وَفَقَدَ النَّهارُ إِشْراقَهُ حَتَّى بَدَأَ ڤان هِيلْسِينْغ يَنْتابُهُ ٱلقَلَقُ . هَبْ أَنَّ ٱلأَصْدِقاءَ تَأَخَّروا وَأَنَّ دراكولا ٱلغاضِبَ الثَّائِرَ عادَ إلى ٱلـمَنْزِلِ في قُوَّتِهِ وَجَبَروتِهِ .

وَفي حَوالَى السَّاعةِ السَّابِعةِ كانَتْ هُناكَ طَرَقاتٌ عَنيفةٌ عَلى ٱلبابِ ٱلأَمامِيِّ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ جاك سِيوارْد الَّذي قالَ إِنَّه وَجَدَ ٱلـمَنْزِلَ وَالصَّناديقَ ٱلخَمْسةَ ، وَلٰكِنْ لَـمْ يَكُنْ دراكولا في أَيٍّ مِنْها كَذٰلِكَ .

وَمَرَّتْ نِصْفُ ساعةٍ ، وَأَخَذَتِ الظُّلْـمةُ تَزْحَفُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، وَقُبَيْلَ أَنْ يَعُمَّ الظَّلامُ ٱلـمَكانَ إذا بِٱلبابِ يُطْرَقُ ثانِيةً ، وَدَخَلَ آرْثَر وَجوناثان . وَلٰكِنْ لا أَثَرَ لِدراكولا . لَقَدْ وَجَدا سِتَّةَ صَناديقَ خالِيةٍ ، أَمَّا السَّابِعُ فَمَفْقودٌ . يا لَها مِنْ أَخْبارٍ سَيِّئةٍ ! إِنَّ عَدُوَّهُمْ لا يَزالُ طَليقًا ، وَأَمَّا ٱلـمَكانُ الَّذي يَخْتَبِئُ فيهِ فَإِنَّهُ لا يَزالُ مَجْهولًا .

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « وَلٰكِنَّهُ يَعْلَـمُ أَنَّهُ في مَأْزِقٍ ، وَسَوْفَ يَزورُ صَناديقَهُ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَيَأْتي في وَقْتٍ ما اللَّيْلةَ إلى هُنا ، وَيَنْبَغي أَن نَكونَ مُسْتَعِدِّينَ لَهُ . إِنَّ فُرْصَتَنا في قَتْلِهِ لَيْسَتْ كَبيرةً وَلٰكِنْ لابُدَّ أَنْ نَنْتَهِزَها إِذْ رُبَّما لا تُتاحُ لَنا فُرْصةٌ أُخرى . »

وَطالَ ٱنتِظارُهُمْ في ٱلحُجْرةِ ٱلخَلْفِيَّةِ ثلاثَ ساعاتٍ قَبْلَ أَنْ يَطْرُقَ أَسْماعَهُمْ صَوْتُ ٱلمِفْتاحِ في البابِ ٱلأَماميِّ ، وَحانَ ٱلوَقْتُ لِيَأْخُذوا أُهْبَتَهُمْ . كانَ ڤان هِيلْسِينْغ يَقِفُ مُواجِهًا ٱلبابَ ، وَآرْثَر إلى يَمينِهِ ، وَسِيوارْد إلى يَسارِهِ ، وَوَقَفَتْ مِينا في أَحَدِ أَرْكانِ ٱلحُجْرةِ . أَمّا جوناثان فَكانَ يَقِفُ خَلْفَ ٱلبابِ مُمْسِكًا بِالسِّكّينِ ٱلهِنْدِيِّ الطَّويلِ ٱلَّذي كانَ يَدَّخِرُهُ لِهٰذِهِ اللَّحْظةِ .

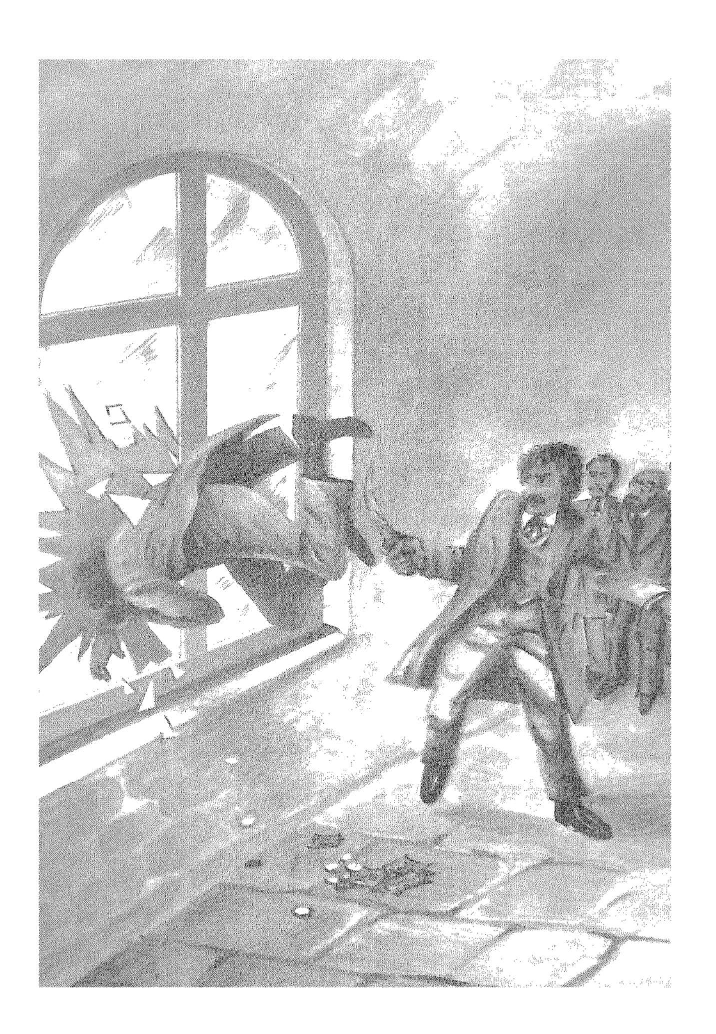
وَسَمِعوا وَقْعَ أَقْدامٍ حَذِرةٍ في ٱلبَهْوِ ، وَمَضَتْ لَحْظةُ سُكونٍ ، وَفَجْأَةً تَهاوى ٱلبابُ كُلُّهُ وَسَقَطَ ، وَٱنتَصَبَ دراكولا في ٱلحُجْرةِ بَيْنَهُمْ . أَهْوى عَلَيْهِ جوناثان بِطَعْنةٍ ، وَلٰكِنَّ دراكولا كانَ أَسْرَعَ فَقَفَزَ إلى أَحَدِ ٱلجَوانِبِ كَما يَقْفِزُ القِطُّ ، فَلَمْ يُصِبِ السِّكّينُ إلّا سُتْرَتَهُ مُحْدِثًا فيها ثَقْبًا واسِعًا . وَتَساقَطَتِ النُّقودُ ٱلوَرَقِيّةُ وَالذَّهَبِيَّةُ الَّتي كانَتْ فيها ، وَعِنْدَما كانَ ڤان هِيلْسِينْغ يَتَقَدَّمُ مِنْهُ وَالصَّليبُ في يَدِهِ أَخَذَ وَجْهُ ٱلكونْت يَتَحَوَّلُ إلى أَصْفَرَ مُخْضَرٍّ .

وَفي اللَّحْظةِ الَّتي كانَ جوناثان يَتَأَهَّبُ فيها لِلطَّعْنةِ الثّانِيةِ وَثَبَ ٱلكونْت فَأَلْقَى بِنَفْسِهِ تَحْتَ ذِراعِهِ الَّتي تَحْمِلُ السِّكّينَ مُتَحاشِيًا الضَّرْبَةَ ، وَٱلْتَقَطَ في طَريقِهِ حُفْنةً مِنَ النُّقودِ الَّتي عَلى ٱلأَرْضِ ، ثُمَّ ٱنْدَفَعَ مُلْقِيًا بِنَفْسِهِ مِنَ النّافِذةِ .

وَحينَ سَمِعَ ٱلأَصْدِقاءُ صَوْتَ تَهَشُّمِ الزُّجاجِ وَرَنينِ بَعْضِ الذَّهَبِ الَّذي سَقَطَ ، سارَعوا إلى النّافِذةِ في ٱلوَقْتِ ٱلمُناسِبِ لِكَيْ يَرَوا دراكولا يَنْهَضُ مُتَثاقِلًا في المَمَرِّ الَّذي يَقَعُ خَلْفَ ٱلمَنْزِلِ ، وَتَطَلَّعَ إلَيْهِمْ وَهُوَ يَصيحُ :

« إنَّكُمْ تَأْمُلونَ تَدْميري . إنَّكُمْ تَظُنّونَ أَنَّكُمْ تَرَكْتُموني بِلا مَأْوًى أَسْتَريحُ فيهِ ، وَلٰكِنْ لَدَيَّ ٱلمَزيدُ . إنَّ مُهِمَّتي لَمْ تَبْدَأْ إلّا ٱلآنَ .. الآنَ فَقَطْ ، وَإنَّ ٱلوَقْتَ في صالِحي . »

ثُمَّ أَشارَ بِأُصْبُعٍ غَطّاها الشَّعْرُ إلى مِينا قائِلًا : « إنَّها أَصْبَحَتْ مِلْكي ، وَسَوْفَ أُدَمِّرُكُمْ كُلَّكُمْ . »



ثُمّ آنْطَلَقَ يَعْدو بَيْنَ طيّاتِ الظَّلامِ ، وَبَعْضٌ مِنَ العُمْلةِ الذَّهَبيَّةِ يَتَساقَطُ مِنْهُ فَيُحْدِثُ رَنينًا .

وَقالَ البُروفِيسور : « إنَّهُ يَنْطِقُ بِكَلِماتٍ حَماسِيَّةٍ شُجاعةٍ ، وَلٰكِنَّ الواقِعَ أَنَّهُ يَخْشانا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ فَفيمَ هٰذِهِ العَجَلةُ المَحْمومةُ ؟ وَفيمَ هٰذِهِ الحاجةُ ــ الَّتي تَبْدو مُلِحَّةً ــ إلى كُلِّ هٰذِهِ النُّقودِ ؟ »

قالَ دُكتُور سيوارْد : « وَمَعَ هٰذا يابُروفِيسور فَإنَّه لايَزالُ يَمْلِكُ مَكانًا لِلاِسْتِراحةِ لا نَعْلَمُ أَيْنَ هُوَ . إنَّه يَزْدادُ خِبْرةً بِمُرورِ الوَقْتِ . هَلْ هُوَ حَقيقةً في حاجةٍ إلى كُلِّ هٰذِهِ الصَّناديقِ التُّرابيَّةِ ؟ حينَما غادَرَ ترانْسيلْفانْيا كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ في حاجةٍ إلَيْها فِعْلًا ، وَلايَزالُ يَعْتَقِدُ ذٰلِكَ الآنَ . وَلٰكِنْ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ لَدَيْهِ القُدْرةَ عَلى إيجادِ أَماكِنَ جَديدةٍ لِلاِسْتِراحةِ ، فَما مَوْقِفُنا مِنْهُ الآنَ ؟ قَدْ نَكونُ مَهْزومينَ أَمامَهُ ، وَقَدْ يَلْجَأُ إلى الاِخْتِفاءِ سَنواتٍ ، وَفي خِلالِ هٰذِهِ السَّنَواتِ مَنْ يَدْري ؟ »

وَأَدْرَكَ الباقونَ تَمامًا ماذا كانَ يَعْني بِهٰذِهِ العِبارةِ الأَخيرةِ . ما الَّذي سَيُصيبُ مِينا ؟ هَلْ مِنَ المُسْتَطاعِ حَقًّا إنْقاذُ مِينا ؟

اَلْفَصْلُ الثّامِنَ عَشَرَ

كانَتْ وَجْبةُ ٱلإفْطارِ في صَباحِ ٱليَوْمِ التّالي وَجْبةَ الصَّمْتِ وَالسُّكونِ ، إذْ كانوا جَميعًا مَشْغولينَ بِالتَّفْكيرِ : ماذا تَكونُ ٱلخُطْوَةُ التّالِيةُ ؟

وَنَزَلَتْ مِينا إلَيْهِمْ مُتَأَخِّرةً ، فَبادَرَها دُكْتُور سيوارْد بِالسُّؤالِ : « كَيْفَ حالُكِ ٱليَوْمَ . يامِينا ؟ »

فَأَجابَتْ : « مُتْعَبةٌ قَليلًا . لَقَدْ رَأَيْتُ أَحْلامًا كَثيرةً في اللَّيْلةِ ٱلماضيةِ . »

فَسأَلَ الطَّبيبُ الَّذي كانَ دائِمًا يَرى أَنَّ لِلأَحْلامِ أَهَمِّيَّتَها : « أَحْلامًا شائِقةً ؟ »

فَٱبْتَسَمَتْ مِينا وَقالَتْ : « لَيْسَتْ شائِقةً في ٱلواقِعِ ، فَقَطْ مُخْتَلِفة . لَقَدْ رَأَيْتُ نَفْسي كأَنَّما أَنا في زَوْرَقٍ وَأَنَّني أَسْمَعُ خَريرَ ماءٍ ، لا شَيْءَ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا . وَلٰكِنَّ ٱلحُلْمَ ظَلَّ يُعاوِدُني مَرَّةً بَعْدَ أُخرى . »

فَسَأَلَها : « حينَما هاجَمَكِ دراكولا في تِلْكَ اللَّيْلةِ ، أَلَمْ يَقُلْ إنَّكِ وَإيّاهُ أَصْبَحْتُما مِنْ دَمٍ واحِدٍ وَعَقْلٍ واحِدٍ ؟ »

قالت : « شَيْئًا مِنْ هٰذا ٱلقَبيلِ . »

فَسَأَلَ الطَّبيبُ وَهُوَ يَلْتَفِتُ إلى ڤان هِيلْسِينْغ : « هَلْ مِنَ ٱلمُمْكِنِ بِالنِّسْبةِ لِمِينا في حالَتِها ٱلحاضِرةِ ، أَنْ تَدْخُلَ في عَقْلِ دراكولا بَيْنَما هي نائِمةٌ ؟ »

أَجابَ ٱلبْروفِيسور : « هذا تَفْكيرٌ لَهُ وَجاهَتُهُ . »

فَسَأَلَ الطَّبيبُ : « إذا لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ تَفْكيرٍ لَهُ وَجاهَتُهُ بَلْ كانَ حَقيقةً واقِعةً فَبِماذا تُفَسِّرُ ٱلحُلْمَ الَّذي رَأَتْهُ مِينا عَنِ ٱلماءِ ؟ »

تَدَخَّلَ جوناثان في ٱلحَديثِ قائِلًا : « لِماذا ٱحْتاجَ دراكولا إلى كُلِّ هٰذِهِ النُّقودِ ؟ »

أجابَ ٱلبُروفيسور : « إنَّهُ في حاجةٍ مُلِحَّةٍ إلَيْها بِدَليلِ أنَّهُ تَوَقَّفَ لِيَلْتَقِطَ مِنَ ٱلأَرْضِ بَعْضًا مِنْها وَهُوَ خارِجٌ . هَلْ مِنَ ٱلـمُمْكِنِ أَنْ يَكونَ دراكولا مُعْتَزِمًا مُغادَرَةَ إنْجلترا ؟ »

كانَ ٱلبُروفيسور يُعَبِّرُ عَمَّا يَجولُ في أَذْهانِهِمْ جَميعًا مِنْ أفْكارٍ . وَمَضَى يَقولُ : « تُرَى هَلْ بَلَغْنا مِنَ النَّجاحِ مَعَهُ أَكْثَرَ مِمَّا تَصَوَّرْنا ؟ مِنَ ٱلـمُؤَكَّدِ أنَّهُ ٱلآنَ يَتَمَلَّكُهُ الرُّعْبُ ، فَهُوَ يَرَى أنَّهُ لَـمْ يَعُدْ يُحِسُّ بِٱلأَمانِ في لَنْدَن ، بَعْدَ أَنْ لَـمْ يَتَبَقَّ لَدَيْهِ غَيْرُ صُنْدوقٍ واحِدٍ . إنَّهُ يَعْرِفُ أنَّنا نَتَعَقَّبُهُ ، وَلِذٰلِكَ يُفَكِّرُ في ٱلهَرَبِ عَنْ طَريقِ ٱلـماءِ في سَفينةٍ عائِدًا الى مَوْطِنِهِ . لا ، نَحْنُ لَـمْ نَنْهَزِمْ بَعْدُ . إنَّ ٱلـمُطارَدَةَ مُسْتَمِرَّةٌ . »

وَتَساءَلَتْ مِينا في حُزْنٍ : « وَلٰكِنْ لِـماذا ؟ أَكيدٌ أَنَّهُ يَكْفيكُمْ أَنْ تَدْفَعوهُ إلى ٱلخُروجِ مِنْ هٰذا ٱلبَلَدِ . فَلِـماذا تُعَرِّضونَ أَنْفُسَكُمْ لِلْـمَزيدِ مِنَ ٱلـمَخاطِرِ بِتَعَقُّبِهِ في ٱلبَحرِ ؟ »

فَأَخَذَ ڤان هِيلْسِينْغ يَدَيْها كِلْتَيْهِما في يَدِهِ وَتَطَلَّعَ في عَيْنَيْها قائِلًا : « ياسَيِّدةُ مِينا ، إنَّ لَدَيْنا رُوحًا نُريدُ أَنْ نُخَلِّصَها مِنْ إسارِها . مُنْذُ أُسْبوعٍ مَضى كانَ مِنَ ٱلـمُمْكِنِ أَنْ نَكْتَفِيَ بِما قُلْتِ ، أَمَّا ٱلآنَ فَعَلَيْنا أَنْ نَجِدَهُ حَتَّى وَلَوِ اضْطُرِرْنا إلى الذَّهابِ إلى الشَّيْطانِ نَفْسِهِ . »

فَبَكَتْ مِينا مُتَأَثِّرَةً بِكَلِماتِهِ ، بَلِ الرِّجالُ أَنْفُسُهُمْ أَحَسُّوا بِالدُّموعِ تَتَرَقْرَقُ في أَعْيُنِهِمْ . وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ أَسْرَعَ بِرَدِّهِمْ إلى جَوِّ ٱلعَمَلِ الَّذي يَنْتَظِرُهُمْ فَقالَ لَهُمْ : « تَذَكَّروا ، لَيْسَ لَدَينا دَليلٌ حَتَّى ٱلآنَ عَلى أَنَّ ما يُراوِدُ أَفْكارَنا صَحيحٌ ، فَعَلَيْنا أَنْ نَبْحَثَ عَمَّا إذا كانَتْ هُناكَ سَفينةٌ غادَرَتْ لَنْدَن في اللَّيْلةِ ٱلـماضيةِ مُتَّجِهةً إلى ٱلبَحْرِ ٱلأَسْوَدِ ، ثُمَّ عَلَيْنا بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ نَعْرِفَ ما كانَتْ تَحْمِلُهُ هٰذِهِ السَّفينة . »

وَلَـمْ يَكُنْ مِنَ ٱلعَسيرِ أَنْ يَهْتَدوا إلى هٰذِهِ ٱلـمَعْلوماتِ ، فَإذا كانَ دراكولا قَدْ غادَرَ لَنْدن فَلابُدَّ أَنْ يَكونَ قَدْ رَكِبَ سَفينةً واحِدةً هِيَ كاثرين الَّتي أَقْلَعَتْ مُتَّجِهةً إلى ڤارْنا في السَّاعةِ السَّادِسةِ صَباحَ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ جوناثان في نَفْسِ ٱليَوْمِ إلى ٱلـمَكْتَبِ ٱلـمَسْؤولِ

عَنِ السَّفينةِ وَعادَ بِقصَّةٍ مُثيرةٍ . وَ في ٱلقِصَّةِ أَنَّ رَجُلًا طَويلًا نَحيلًا يَرْتَدي مَلابِسَ سَوْداءَ زَارَ ٱلـمَكْتَبَ في ساعةٍ مُتَأَخِّرةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَعَرَضَ مَبْلَغًا كَبيرًا من النُّقودِ نَظيرَ شَحْنِ صُنْدوقٍ إلى ڤارنا . وَلَـمْ يَكُنِ الصُّندوقُ مَعَهُ ، فَأَخْبَرَهُ الرُّبَّانُ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ فاتَ لِأَنَّ السَّفينَةَ سَتُقْلِعُ في السَّاعةِ الثَّالِثةِ . وَلٰكِنْ عِنْدَما حانَتْ ساعةُ الإِقْلاعِ ظَهَرَ في ٱلأُفُقِ ضَبابٌ كَثيفٌ ، وَ ٱضْطُرَّتِ السَّفينةُ إلى ٱلِانْتِظارِ . وَحينَئِذٍ عادَ الرَّجُلُ ذو ٱلـمَلابِسِ السَّوْداءِ وَ هُوَ يَسوقُ عَرَبةً تَحْمِلُ الصُّنْدوقَ ، وَ شَحَنَهُ عَلى ظَهْرِ السَّفينةِ . ثُمَّ ٱنْفَرَجَ الضَّبابُ ، وَ أَقْلَعَتِ السَّفينةُ .

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ بَعْدَ أَنِ ٱنْتَهَى جوناثان مِنْ روايةِ قِصَّتِهِ : « ياأَصْدِقائي ، إنَّنا جَميعًا .. نَعَمْ جَميعًا » وَ كَرَّر ٱلكَلِـمةَ وَهُوَ يَنْظُرُ إلى مِينا ، وَٱستَمَرَّ يَقولُ : « سَنَقومُ بِرِحْلةٍ . إنَّ هٰذِهِ السَّفينةَ ــ حَتَّى مَعَ ٱلاسْتِعانةِ بِالرِّيحِ الَّتي يُسَيْطِرُ عَلَيْها دراكولا ــ سَوْفَ تَسْتَغْرِقُ ثَلاثَةَ أَسابِيعَ لِكَي تَصِلَ إلى ڤارْنا ، أَمَّا نَحْنُ فَسَوْفَ نَأْخُذُ ٱلقِطارَ وَ نَسْتَقْبِلُهُ عِنْدَ وُصولِهِ . إنَّ لِقاءَنا التَّالِيَ بِٱلكونْت يَجِبُ أَنْ يَكونَ اللِّقاءَ ٱلأَخيرَ . »

اَلْقِسْمُ ٱلخامِسُ
ترانْسِلْقانْيا ... مَرّةً ثانِيةً

اَلْفَصْلُ التّاسِعَ عَشَرَ

بَدا جوناثان حَزينًا وَ هُوَ يُغادِرُ ٱلقِطارَ في ڤارْنا في أَواخِرِ شَهْرِ أُكْتوبر (تِشْرين ٱلأَوَّلِ) . وَ كانَ أَصْدِقاؤُهُ قَدْ بَذلوا كُلَّ جَهْدٍ لِكَيْ يَجْعَلوهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ مِينا بِخَيْرٍ . وَ كانَ جَميلًا أَنْ يَفْعَلوا ذٰلِكَ ، وَ لٰكِنَّهُ كانَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلبُروفِيسور وَ دُكْتُور سيوارْد يُراقِبانها يَوْمِيًّا لِكَيْ يَعْرِفا ما قَدْ يَطْرَأُ عَلَيْها مِنْ تَغَيُّرٍ في أَسْنانِها ، وَ في عَيْنَيْها ، وَ في بَشَرَتِها . ذٰلِكَ أَنَّ دَمَ مَصّاصِ الدِّماءِ أَشْبَهُ بِعَضَّةِ ٱلكَلْبِ ٱلـمَسْعورِ ، فَهُوَ يُحْدِثُ تَأْثيرَهُ بِبُطْءٍ ، وَ لٰكِنَّ أَثَرَهُ أَكيدٌ . وَ لَيْسَ هُناكَ وَسيلةٌ لِإِنْقاذِ الضَّحِيَّةِ الَّتي شَرِبَتْ مِنْ دَمِهِ إِلّا بِمَوْتِ مَصّاصِ الدِّماءِ نَفْسِهِ .

وَ كانَتْ هُناكَ تَغَيُّراتٌ طَفيفةٌ قَدْ بَدَأَتْ تَظْهَرُ في نَظَراتِها . و في بَعْضِ أَوْقاتٍ كانَتْ تَظَلُّ صامِتةً صَمْتًا غَيْرَ طَبيعِيٍّ ، وَ كانَ جوناثان يَعْرِفُ أَنَّ هٰذا الصَّمْتَ الـمُتَكَرِّرَ يُثيرُ ٱلقَلَقَ في الطَّبيبَيْنِ . كانَتِ ٱلخُطَّةُ الَّتي أَعَدّوها بَسيطةً ، فَقَدْ دَبَّروا ٱلأَمْرَ قَبْلَ مُغادَرَتِهِمْ لَنْدن لِكَيْ تُرْسَلَ إِلَيْهِمْ بَرْقِيّاتٌ تُطْلِعُهُمْ أَوَّلًا بِأَوَّلٍ عَلى تَحَرُّكاتِ السَّفينةِ كاثرين . كَما أَنَّهُمْ أَبْلَغوا مَكْتَبَ السَّفينةِ في ڤارْنا أَنَّ عَلَيْها صُنْدوقًا يَحْتوي عَلى بَضائِعَ مَسْروقةٍ ، وَ ٱتُّفِقَ عَلى أَنَّهُ عِنْدَما تَصِلُ السَّفينةُ سَيَصْعَدُ مَعَهُمْ إِلى ظَهْرِها مَنْدوبٌ مِنَ ٱلـمَكْتَبِ بِيَفْتَحِ الصُّنْدوقَ . فَإِذا تَيَسَّرَ لَهُمُ الصُّعودُ إِلى السَّفينةِ فَسَوْفَ يَقْتُلونَ دراكولا ، وَ لَنْ يَدَعوا أَحَدًا يَحولُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ذٰلِكَ .

وَ قالَ ٱلبُروفِيسور : « إِنَّ الشُّرْطةَ لَنْ تُسَبِّبَ لَنا أَيَّةَ مَتاعِبَ ، إِذْ لَنْ يَكونَ هُناكَ جُثَّةٌ . فَما إِنْ يَدْخُلَ الطَّرَفُ ٱلـمُدَبَّبُ قَلْبَ مَصّاصِ الدِّماءِ حَتّى يَتَحَلَّلَ جَسَدُهُ كُلُّهُ وَ لَنْ يَسْتَطيعَ أَحَدٌ أَنْ يُثْبِتَ أَنَّنا قَتَلْنا أَحَدًا . »

في صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلخامِسِ وَ ٱلعِشْرينَ مِنْ أُكْتوبَر كانَ ٱلأَصْدِقاءُ يَجْلِسونَ في ٱلفُنْدُقِ حَيْثُ

تَلَقَّوا بَرْقِيَّةً تقولُ : « تُفيدُ التَّقاريرُ أَنَّ السَّفينةَ كاثرين في الدَّرْدنيل ٱليَوْمَ . »

كانَ ٱلخَبَر مُثيرًا ، فَقَدْ كانَ يَعْني أَنَّ هُناكَ أَرْبَعًا وَعِشْرينَ ساعةً تَسْتَغْرِقُها السَّفينةُ مِنَ الدَّرْدنيل حَتَّى ڤارْنا . وَكانَتِ ٱلبَرْقِيَّةُ مُؤَرَّخةً في الرَّابعِ وَٱلعِشْرينَ ، وَهٰذا يَعْني أَنَّها سَتَصِلُ هٰذا الصَّباحَ ، وَرُبَّما بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَأَيًّا كانَتِ ٱلحالُ فَإِنَّها سَتَصِلُ في ضَوْءِ النَّهارِ .

وَلٰكِنْ حَلَّتِ السَّاعةُ الثَّانيةَ عَشْرَةَ وَلَمْ تَصِلِ السَّفينةُ كاثرين . وَٱنْقَضَتْ فَتْرةُ ما بَعْدَ الظُّهْرِ وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ أَخْبارٌ عَنْها ، وَقيلَ إِنَّ هُناكَ ضَبابًا في بَعْضِ ٱلأَماكِنِ ، وَقَدْ يَكونُ ذٰلِكَ سَبَبًا في تَأْخيرِ وُصولِها . وَلِذٰلكَ أَوَوا إلى مَضاجِعِهِمْ وَهُمْ مُبْتَئِسونَ ، عَلى أَنْ يَتَناوَبَ الرِّجالُ السَّهَرَ واحِدًا بَعْدَ ٱلآخَرِ طَوالَ اللَّيْلِ في تَرَقُّبٍ .

وَفي هٰذِهِ اللَّيلةِ رَأَتْ مِينا في مَنامِها ٱلماءَ كَذٰلِكَ ، وَفُسِّرَ ٱلمَنامُ بِأَنَّ دراكولا — عَلى ٱلأَقَلِّ — لايَزالُ عَلى ظَهْرِ السَّفينةِ .

وَمَرَّ ٱليَوْمُ السادِسُ وَٱلعِشْرونَ كَما مَرَّ سابِقُهُ ، وَلٰكِنْ في السَّاعةِ ٱلخامِسةِ بَعْدَ الظُّهْرِ وَصَلَتْ بَرْقِيَّةٌ أُخرى تَقولُ : « تُفيدُ التَّقاريرُ أَنَّ السَّفينةَ كاثرين تَدْخُلُ غالاتز في السَّاعةِ ٱلواحِدةِ . »

غالاتز ؟ إِنَّ غالاتز تَقَعُ عَلى بُعْدِ ثَلاثِمِئةِ كيلو مِتْرٍ تِجاهَ الشَّمالِ عَلى الدَّانوبِ ! إِنَّها أَقْرَبُ إلى حِصْنِ دراكولا مِنْها إلى ڤارْنا بِمِقْدارِ ثَلاثِمِئةِ كيلو مِتْرٍ . ياتُرى ما الَّذي حَدَثَ ؟

كانَ آرْثَر أَوَّلَ ٱلمُتَحَدِّثينَ فَقالَ : « هُناكَ قِطارٌ يُغادِرُ إلى غالاتز في السَّاعةِ ٱلعاشِرةِ مَساءَ اللَّيْلةِ ، إذا أَخَذْنا هٰذا ٱلقِطارَ فَإِنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَصِلَ في ٱثْنَتَي عَشْرَةَ ساعةً . »

كانَ آرْثَر أَحَدَ أُولٰئِكَ الَّذينَ يَحْتَفِظونَ بِجَداوِلِ ٱلمُواصَلاتِ في رُؤوسِهِمْ . وَهٰكَذا وَصَلوا إلى غالاتز في صَباحِ ٱليومِ التَّالي ، وَكانَ رُبَّانُ السَّفينةِ ٱلإِنْجليزيَّةِ الَّذي قابَلوه مُتَعاوِنًا مَعَهُمْ إلى حَدٍّ كَبيرٍ فَرَوَى لَهُمْ قِصَّةً غَريبةً . حَدَّثَهُمْ عَمَّا صادَفَهُمْ في ٱلبَحْرِ مِنْ حَظٍّ طَيِّبٍ

عَلى غَيْرِ ٱلعادةِ إذْ كانَتِ الرِّيحُ مُواتيةً حَتَّى ٱلبَحْرِ ٱلأَسْودِ . ثُمّ حَدَّثَهُمْ عَنِ الضَّبابِ ٱلكَثيفِ الَّذي خَيَّمَ بَعْدَ ذٰلِكَ وَٱسْتَمَرَّ أَيَّامًا ، وَعِنْدما ٱنقَشَعَ الضَّبابُ إذا بِهِمْ في الدّانوبِ عَلى مَقْرَبةٍ مِنْ غالاتز ، وَبما أَنَّ ٱلأَوْراقَ ٱلـمُتَعَلِّقةَ بِالصُّنْدوقِ تَقولُ « غالاتز ، عَنْ طَريقِ ڤارْنا » فَقَدْ كانَ مِنَ ٱلبَديهِيِّ حينَما يَتَقَدَّمُ شَخْصٌ لِتَسَلُّمِ الصُّنْدوقِ أَنْ يُسَلِّمَهُ لَهُ .

فَسَأَلَهُ ڤان هِيلْسِينْغ : « ما ٱسْمُ هٰذا الشَّخْصِ ؟ »

أَخَذَ الرُّبّانُ يَبْحَثُ في أَوْراقِهِ ثُمَّ قالَ : « ها هُوذا هيلدشايم ، إنَّه تاجِرٌ . »

فَشَكَروا لِلرُّبّانِ مُعاوَنَتَهُ الصّادِقةَ ، ثُمَّ غادَروا السَّفينةَ وَذَهَبوا إلى ٱلـمَدينةِ يَبْحَثونَ عَنْ هيلدشايم الَّذي أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ شَيْئًا عَنِ الصُّنْدوقِ . كُلُّ ما في ٱلأَمْرِ أَنَّهُ تَلَقّى تَعْليماتٍ مِنْ لَنْدَن لِكَيْ يُسَلِّمَهُ إلى وَكيلٍ يُدْعى بيتر سكينسكي يَتَعامَلُ مَعَ السلوڤاك ، وَهُمْ بِدَوْرِهِمْ يَنْقُلونَ ٱلبَضائعَ مِنْ مَنابعِ ٱلأَنْهارِ وَمَصابِّها إلى غالاتز .

وَقَصَدوا إلى سكينسكي فَلَمْ يَجِدوهُ في مَكْتَبِهِ أَوْ في بَيْتِهِ . وَقالَ جيرانُهُ إنَّهُمْ لَمْ يَروه مُنْذُ ٱلبارِحةِ . وَبَيْنَا كانوا يَتَحَدَّثونَ إلى ٱلجيرانِ جاءَ صَبِيٌّ يَجْري لاهِثًا وَهُوَ شَديدُ ٱلاضْطِرابِ ، وَقالَ إنَّ سكينسكي وُجِدَ مُلْقًى قُرْبَ ساحةِ ٱلكَنيسةِ وَقَدْ مُزِّقَ عُنُقُهُ شَرَّ مُمَزَّقٍ ، كَما لَوْ كانَ قَدْ نَهَشَهُ حَيوانٌ ضارٍ . وَما كادَ يُتِمُّ كَلامَهُ حَتَّى هُرِعَ ٱلجيرانُ نَحْوَ ٱلكَنيسةِ ، وَبَقِيَ ٱلبُروفِيسور وَأَصْحابُهُ وَحْدَهُمْ .

وَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « أَعْتَقِدُ أَنَّ ٱلسَّيِّدَ سكينسكي لَنْ يَكونَ قادِرًا عَلى مُساعَدَتِنا ٱلآنَ ، وَلٰكِنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَكْتَشِفَ الدَّوْرَ الَّذي قامَ بِهِ في تَنْفيذِ خُطَطِ دراكولا . إنَّ الصُّعوبةَ ٱلـماثِلةَ أَمامَ دراكولا ٱلآنَ هِيَ كَيْفَ يَعودُ إلى حِصْنِهِ . فَهُوَ يَسْتَطيعُ أَنْ يُسافِرَ بِطَريقٍ بَرِّيٍّ في عَرَبةٍ أَوْ في ٱلقِطارِ ، أَوْ بِطَريقٍ نَهْرِيٍّ .

« أَمّا الطَّريقُ ٱلبَرِّيُّ فَهُوَ بَطيءٌ وَفيهِ مَخاطِرُ ، وَأَمّا ٱلقِطارُ فَهُوَ سَريعٌ وَلٰكِنْ يَفْتَقِرُ إلى مَنْ يَتَوَلّى رِعايةَ الصُّنْدوقِ . ثُمَّ إنَّ التَّوَقُّفاتِ في ٱلـمَحَطّاتِ قَدْ تَكونُ فيها مَخاطِرُ ، و الَّذي

يَبْدو لي هُوَ أَنَّ تَعامُلَهُ مَعَ سكينسكي يُشيرُ إلى أَنَّهُ سافَرَ بِطَريقِ النَّهْرِ . ها هِيَ ذي خَريطَةٌ ، وَأَنْتَ ذو خِبْرَةٍ بِٱلإِقْليمِ ياجوناثان ، فَأَيْنَ تَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ ؟ »

وَنَظَرَ جوناثان إلى ٱلخَريطَةِ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ هٰذا ٱلجُزْءَ مِنَ ٱلإِقْليمِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ قَدْ تَعَلَّمَ ٱلكَثيرَ مِنْ كُتُبِ ٱلكونْت .

كانَ هُناكَ نَهْرانِ يَصُبّانِ في الدّانوبِ مِنَ الشَّمالِ ، نَهْرُ بْروث وَنَهْرُ سيرِث . وَكانَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلمِلاحَةَ في نَهْرِ بْروث أَفْضَلُ بِالنِّسْبَةِ لِلزَّوارِقِ ، أَمّا نَهْرُ سيرِث فَهُوَ يَلْتَقي بِنَهْرِ بيسْتريتْز عِنْدَ فونْدو ، وَهُوَ يَسيرُ مُحاذِيًا لِطَريقِ بيسْتريتْز ٱلجَبَلِيَّةِ وَلِذٰلِكَ قالَ جوناثان : « فَلْنَتْبَعْ نَهْرَ سيرِث . »

فَقالَ ڤان هيلْسينْغ : « وَهُوَ كَذٰلِكَ . وَأَعْتَقِدُ أَن ٱلخُطَّةَ الَّتي يَنْبَغي أَنْ نُنَفِّذَها هِيَ أَنْ يَأْخُذَ آرْثَر وَجوناثان زَوْرَقًا بُخارِيًّا إلى مَنْبَعِ النَّهْرِ ، أَمّا أَنْتَ ياجاك فَإِنّي أُريدُكَ أَنْ تَأْخُذَ بَعْضَ ٱلجِيادِ وَتَتْبَعَ جِسْرَ النَّهْرِ ، أَمّا أَنا وَمينا فَسَوْفَ نَأْخُذُ ٱلقِطارَ إلى فرِسْتي ، وَمِنْ هُناكَ نَمْضي في طَريقِنا نَحْوَ ٱلحِصْنِ فَإِذا لَقيتُمْ دراكولا في الطَّريقِ فَتَصَرَّفوا مَعَهُ ، أَمّا إذا لَمْ تَلْقَوْهُ فَسَوْفَ نَكونُ في ٱنْتِظارِكُمْ في ٱلجِبالِ . إِنَّها فُرْصَتُنا ٱلأَخيرَةُ . »

اَلْفَصْلُ ٱلعِشْرونَ

حِينَما جاءَ جوناثان إلى ترانْسيلْفانْيا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ كانَ ٱلجَوُّ مُشْمِسًا ، وَ مِنْ ثَمَّ كانَ السَّفَرُ مُتْعةً . أَمَّا ٱلآن فَالدُّنْيا خَريفٌ ، وَالصَّباحُ ٱلباكِرُ مُعْتِمٌ فَوْقَ النَّهْرِ ، وَ الضَّبابُ مُخَيِّمٌ في أَغْلَبِ ٱلأَوْقاتِ . وَلِذٰلِكَ كانَ جوناثان يَسْعَدُ بالدِّفْءِ حينَما يَفْتَحُ صُندوقَ ٱلاِحْتِراقِ في الزَّوْرَقِ ٱلبُخاريِّ الصَّغيرِ وَيَضَعُ فيهِ مَزيدًا مِنْ قِطَعِ ٱلخَشَبِ .

وَ طَوالَ يَوْمَيْنِ ــ كانَ الزَّوْرَقُ يَسيرُ فِيهِما لَيْلًا وَ نَهارًا ــ كانا يَمُرَّانِ بِقَليلٍ مِنَ الزَّوارِقِ الصَّغيرةِ الَّتي لَمْ يَكُنْ حَجْمُها يَتَّسِعُ لِحَمْلِ صُنْدوقِ ٱلكونْت . وَلٰكِنْ في ٱليَوْمِ الثّالِثِ ــ وَحينَما كانَ الزَّوْرَقُ يَمُرُّ خِلالَ نَهْرِ بيسْتريتْز ــ عَلِما مِنْ بَعْضِ السلوڤاك ٱلعابِرينَ أَنَّ هُناكَ زَوْرَقًا كَبيرًا كانَ يَمْخُرُ عُبابَ النَّهْرِ بِسُرْعةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ ، قَدْ مَرَّ بِهِمْ في ٱليَوْمِ السّابِقِ . وَقَدْ أَحْيا هٰذا ٱلخَبَرُ ٱلأَمَلَ في نَفْسَيْهِما . وَحينَما زادا مِنْ سُرْعةِ الزَّوْرقِ كانَ مَجْرى النَّهْرِ قَدْ أَصْبَحَ ضَيِّقًا صَخْرِيًّا ، وَلَمْ يَحْتَمِلِ الزَّوْرَقُ الصُّخورَ فَأَصابَهُ عَطَبٌ في النِّهايةِ ، وَٱسْتَغْرَقَ إصْلاحُهُ عِدَّةَ ساعاتٍ ، كَما أَنَّ الطَّقْسَ بَدَأَ يَسوءُ .

كانا ــ في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ ــ عَلى بُعْدِ حَوالَي تِسْعينَ كيلو مِتْرًا فَقَطْ مِنْ بيسْتريتْز . وَكانَ آرْثَر يَخْشَى أَنْ يكونَ الصُّنْدوقُ قَدْ سَبَقَ نَقْلُهُ إلى ٱلبَرِّ . وَلِذٰلِكَ غادَروا الزَّوْرَقَ عِنْدَ أَوَّلِ مَدينةٍ صَغيرةٍ لِيَسْتَخْدِما ٱلجِيادَ ، وَقَرَّرا أَنْ يَسيرا بِها عَبْرَ الطَّريقِ الرِّيفِيَّةِ الصَّغيرةِ مُتَّجِهَيْنِ إلى ٱلمَكانِ ٱلمُحَدَّدِ لِلِقاءِ مِينا وَٱلبُروفيسور . وَلَمْ يَكونا قَدْ شاهَدا جاك سيوارْد مُنْذُ أَوَّلِ يَوْمِ غادَرا فيه غالاتز ، وَلِذٰلِكَ ٱعْتَقَدا أَنَّهُ سَبَقَهُما عَلى الطَّريقِ .

أَمَّا ٱلبُروفِسيور وَ مِينا فَكانا قَدْ وَصَلا إلى ڤِرِسْتي في مُنْتَصَفِ نَهارِ ٱليَوْمِ ٱلحادي وَالثَّلاثينَ . وَكانَتْ هٰذِهِ ٱلمَحَطَّةُ هِيَ نِهايةَ مَسارِ ٱلقِطارِ ، وَلِذٰلِكَ غادَراها لِيَرْكَبا عَرَبةً تَأْخُذُهُما لِمَسافةِ مِئةِ كيلو مِتْرٍ مِنْ ڤِرِسْتي إلى طَريقِ بيسْتريتْز ٱلجَبَلِيَّةِ .

وَٱشْتَرى ٱلبُروفِيسور بَعْضَ الطَّعامِ وَٱلمَلابِسِ الثَّقيلةِ ، وَقالَ لِمِينا : « رُبَّما لا نَرى مَدينةً أُخْرى لِمُدَّةِ أُسْبوعٍ . »

كانَتِ الطُّرُق سَيِّئةً ، وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَـمْ يَكُنْ يَعْرِفُ ٱلكَلَلَ ، وَمَضيا قُدُمًا ، وَلَـمْ يَكونا يَتَوَقَّفانِ إلّا لِفَتَراتٍ قَصيرةٍ مِنْ أَجْلِ النَّوْمِ ، أَوْ لِتَغْييرِ ٱلجِيادِ كُلَّـما كانَ ذٰلِكَ مُمْكِنًا . حَتّى بَلَغا طَريقَ بيسْتريتْز في ٱليَوْمِ الثّاني .

كانَتْ مِينا تَنامُ كَثيرًا ، وَلٰكِنَّ ٱلأَحْلامَ الَّتي كانَتْ تَراها عَنِ ٱلـماءِ تَوَقَّفَتْ ، مِمّا يُشيرُ إلى أَنَّ دراكولا لابُدَّ أَنْ يَكونَ قَدْ غادَرَ النَّهْرَ . وَٱلآن وَقَدْ أَخَذا يَزْدادانِ صُعودًا في ٱلجِبالِ ، بَدَأَتْ مِينا تَتَخَلَّصُ مِنْ رَغْبَتِها في النُّعاسِ ، وَبَدا عَلَيْها ٱلِاهْتِمامُ الشَّديدُ بِالطَّريقِ ، وَأَخيرًا هَتَفَتْ وَهِيَ تُشيرُ إلى طَريقٍ جانِبِيَّةٍ : « هٰذِهِ هِيَ الطَّريقُ . »

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « أَأَنْتِ مُتَأَكِّدَةٌ ؟ »

فَأَجابَتْ : « بِالطَّبْعِ ، أَلَـمْ يُسافِرْ جوناثان في هٰذِهِ الطَّريقِ وَيُخْبِرْني عَنْها ؟ »

وَمَعَ أَنَّ ٱلأَمْرَ بَدا لِڤان هِيلْسِينْغ غَريبًا فَإِنَّهُ أَطاعَها ، وَبَعْدَ ساعَتَيْنِ تَبَيَّنَ أَنَّها كانَتْ عَلى صَوابٍ ، فَقَدْ شاهَدا ــ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ــ مِنْ خِلالِ فُرْجَةٍ بَيْنَ ٱلأَشْجارِ جُدْرانًا تُكَلِّلُها السُّحُبُ .. جُدْرانَ قَلْعَةِ دراكولا . فَٱنْسَحَبا بَعيدًا عَنِ الطَّريقِ بَيْنَ ٱلأَشْجارِ ، وَأَدْرَكَ ڤان هِيلْسِينْغ أَنَّ الثَّلْجَ سَيَسْقُطُ ، فَأَوْقَدَ نارًا . ثُمَّ أَخَذَ عُودًا وَخَطَّ بِهِ دائِرَةً حَوْلَ النّارِ وَمِينا ، وَأَلْقى فيها بَعْضَ قِطَعٍ صَغيرةٍ مِنَ ٱلخُبْزِ ٱلـمُقَدَّسِ . ثُمَّ مَشى إلى خارِجِ الدّائِرةِ ، وَوَقَفَ يَنْظُرُ إلى مِينا وَهِيَ جالِسةٌ بِجِوارِ النّارِ صامِتةً كَالأَمْواتِ ، ثُمَّ نادى : « مِينا ، تعالَيْ إلى هُنا . »

فَنَهَضَتْ وَبَدَأَتْ تَمْشي نَحْوَهُ ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ ، وَبَدا أَنَّها عاجِزةٌ عَنِ التَّقَدُّمِ خُطْوةً أُخْرى . فَمَدَّ ڤان هِيلْسِينْغ يَدَهُ نَحْوَها وَقالَ : « تَعالَي . »

فَهَزَّتْ رَأْسَها ثُمَّ ٱنْهارَتْ فَوْقَ ٱلأَرْضِ . لَقَدْ حَدَثَ ما تَوَقَّعَهُ . كانَتْ فِعلًا قَدْ أَصْبَحَتْ نِصْفَ مَصّاصةِ دِماءٍ ، وَلَـمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكَ خارِجَ الدّائِرةِ . وَلٰكِنْ إذا لَـمْ تَكُنْ هِيَ قادِرةً عَلى ٱجْتِيازِ الدّائِرةِ لِتَخْرُجَ مِنْها ، فَإِنَّ ٱلأَخرينَ لَنْ يَكونُوا قادِرينَ عَلى ٱقْتِحامِ

الدَّائِرةِ لِيَدْخُلوها . أَمَّا هُوَ فَسَيَكونُ آمِنًا ما بَقِيَ في داخِلِ الدَّائِرةِ ، وَ ما دامَ يَحْرِصُ عَلى أَلَّا يُصيبَهُ أَذًى مِنْ مِينا نَفْسِها . وَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ إِلَيْها ، أَمَّا هِيَ فَقَدْ عادَتْ إِلى النَّارِ وَ جَلَسَتْ بِجِوارِها مُسْتَغْرِقَةً في أَفْكارٍ عَميقةٍ خَفِيَّةٍ .

خَيَّمَ الظَّلامُ عَلى المَكانِ ، وَكانَتِ الجِيادُ تَصْهِلُ صَهيلًا مَذْعورًا ، وَتُحاوِلُ التَّخَلُّصَ مِنَ الشَّجَرةِ الَّتي رُبِطَتْ إِلَيْها . فَاتَّجَهَ ڤان هِيلْسِينْغ إِلَيْها ، وَرَبَّتَ عَلَيْها بِيَدَيْهِ لِتَهْدِئَتِها . وَمَعَ أَنَّهُ كانَ مَنْهوكًا مَكْدودًا فَإِنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ أَنْ يَنامَ قَبْلَ أَنْ تَنامَ مِينا الَّتي كانَتْ أَرِقَةً .

وَفي حوالَى السَّاعةِ الثَّالِثةِ صَباحًا بَدَأَتِ النَّارُ تَخْمُدُ ، وَكانَ يُوشِكُ أَنْ يَنْهَضَ لِيُحْضِرَ بَعْضَ الخَشَبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكاثَرَ سُقوطُ الصَّقيعِ حينَما تَكَلَّمَتْ مِينا . قالَتْ : « لا تَخْرُجْ مِنَ الدَّائِرةِ الآنَ . اِبْقَ كَما أَنْتَ آمِنًا . »

فَتَوَقَّفَ قائِلًا : « رُبَّما أَكونُ آمِنًا ، أَمَّا أَنْتِ ... »

فَأَطْلَقَتْ ضِحْكَةً خافِتةً غَيْرَ طَبيعِيَّةٍ وَقالَتْ : « لا تَخَفْ عَلَيَّ . لَيْسَ هُناكَ مَنْ هُوَ أَشَدُّ أَمانًا مِنِّي . فَأَنا في أَمانٍ مِنْهُمْ . »

وَكانَ يُوشِكُ أَنْ يَسْأَلَها عَمَّنْ كانَتْ تَعْني بِقَوْلِها « مِنْهُمْ » حينَما صَهَلَتِ الجِيادُ ثانِيةً ، فَنَظَرَ فَإِذا ثَلاثُ نِساءٍ يَتَحَرَّكْنَ حَوْلَ حافَةِ الدَّائِرةِ كَما تَفْعَلُ الرَّاقِصاتُ ، فَتَمَلَّكَهُ الخَوْفُ إِذْ أَدْرَكَ أَنَّهُنَّ لابُدَّ أَنْ تَكُنَّ سَيِّداتِ القَلْعةِ اللَّائي شَرِبْنَ مِنْ دَمِ جوناثان . وَمَدَّتِ النِّساءُ أَذْرُعَهُنَّ نَحْوَ مِينا كَما لَوْ كُنَّ يَدْعونَها لِتُشارِكَهُنَّ . وَأَحَسَّ ڤان هِيلْسِينْغ بِما بَدَأَ يَنْتابُ مِينا مِنْ إِثارةٍ أَخَذَتْ تَتَزايَدُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا . وَفَكَّرَ ، تُرى هَلْ سَتَظَلُّ القُوَّةُ الَّتي في الدَّائِرةِ صامِدةً ؟

وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرُكَ الأُمورَ لِلْمُصادَفةِ ، فَالْتَقَطَ قِطْعةً مِنَ الخَشَبِ المُتَوَهِّجِ وَأَلْقاها عَلَيْهِنَّ وَصاحَ : « باسْمِ الرَّبِّ اذْهَبْنَ بَعيدًا . » فَإِذا بِهِنَّ يَبْتَعِدْنَ صارِخاتٍ لاعِناتٍ .

وَعادَ السُّكونُ يُخَيِّمُ عَلى ٱلـمَكانِ ، وَأَحَسَّ بِإِرْهاقٍ لَـمْ يُحِسَّ بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّ مِينا كانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَراتٍ غَريبةً . وَكانَ عَلَيْهِ أَنْ يُواجِهَ ٱلحَقيقةَ ٱلـمُفْزِعَةَ ، إِذْ لَـمْ يَعُدْ هُناكَ أَمانٌ في أَنْ يَنامَ وَهُوَ بِصُحْبَتِها . إِنَّها تُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ عالَـمَ اللَّاموْتى .

وَأَقْبَلَ النَّهارُ بِبُطْءٍ ، وَتَوَقَّفَ سُقوطُ الصَّقيعِ ، وَلٰكِنَّ السَّماءَ كانَتْ لاتَزالُ مُلَبَّدةً بِٱلغُيومِ .

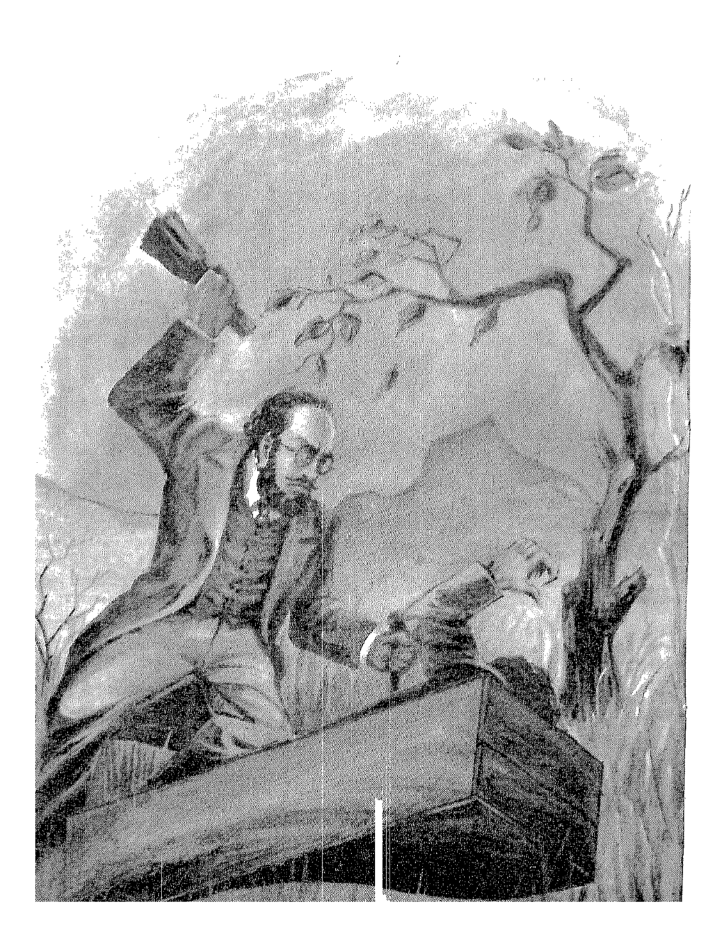
كانَ جوناثان وَآرْثَر قَدِ ٱلْتَقَيا بِجاك سِيوارْد عَلى الطَّريقِ في ٱليَوْمِ السَّابِقِ . وَبَيْنَما كانَ ٱلفُرْسانُ الثَّلاثةُ في طَريقِهِمْ لاحَظوا آثارًا حَديثةً لِعَجَلاتٍ فَوْقَ ٱلأَرْضِ الَّتي يَكْسوها الصَّقيعُ ٱلخَفيفُ . فَٱسْتَدَلُّوا بِها عَلى أَنَّهم لا يَبْعُدونَ عَنْ عَدُوِّهِمْ إِلَّا مَسافةً قَصيرةً . وَبَعْدَ الظُّهْرِ بِقَليلٍ اسْتَطاعوا أَنْ يَلْـمَحوا في طَريقِ ٱلجَبَلِ فَوْقَهُمُ ٱلغَجَرَ الَّذينَ كانَ السلوفاك قَدْ سَلَّموا إِلَيْهِمُ الصُّنْدوقَ . وَحينَما أَخَذَتِ الشَّمْسُ تَميلُ بِبُطْءٍ لِلْـمَغيبِ كانَ واضِحًا لِلْجَميعِ أَنَّهُمْ في سِباقٍ مَعَ الزَّمَنِ .

وَفَجْأَةً سَمِعوا طَلْقةً تُدَوِّي في ٱلفَضاءِ ، وَكانَ مَصْدَرُها مِنْ مَكانٍ قَريبٍ مِنْهُمْ .

فَسَحَبَ جوناثان السِّكِّينَ ٱلهِنْدِيَّ الَّذي مَعَهُ ، وَحَثَّ جَوادَهُ ٱلـمَكْدودَ لِيَنْطَلِقَ ، وَأَوْشَكَتِ ٱلـمَعْركةُ ٱلفاصِلةُ أَنْ تَبْدَأَ .

تَوَقَّفَ ٱلغَجَرُ ، وَتَجَمَّعوا حَوْلَ عَرَبَتِهِمْ وَفي أَيْديهِمُ السَّكاكينُ ، وَفي مُواجَهَتِهِمْ في وَسَطِ الطَّريقِ كانَ ڤان هِيلْسِينْغ يَقِفُ شاهِرًا مُسَدَّسًا . وَبَدا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مُتَرَدِّدُونَ لا يَعْرِفونَ ماذا يَفْعَلونَ . كانَ ڤان هِيلْسِينْغ واحِدًا ، وَكانوا كَثيرينَ . صَحيحٌ أَنَّهُ يَحْمِلُ مُسَدَّسًا ، وَلٰكِنْ ماذا إِذا هاجَموهُ كُلُّهُمْ دُفْعةً واحِدةً ؟

وَلٰكِنَّ ٱلوَقْتَ لَـمْ يُسْعِفْهُمْ لِكَيْ يَتَّخِذوا قَرارًا ، فَما هِيَ إِلَّا لَحْظةٌ حَتَّى كانَ ٱلفُرْسانُ الثَّلاثةُ يَنْدَفِعونَ بِجِيادِهِمْ نَحْوَهُمْ مُباشَرةً ، وَفي مُقَدِّمَتِهِمْ جوناثان يُلَوِّحُ بِسِكِّينِهِ وَيَصيحُ صَيْحاتٍ ضارِيةً .



كانَ ٱلغَجَرُ مَكْدودينَ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ ، وَأَخَذَهُمْ هَوْلُ ٱلـمُفاجَأَةِ ، فَتَظاهَروا بُرْهةً بِمَظْهَرِ ٱلـمُقاتِلينَ ، وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما نَكَصوا عَلى أَعْقابِهِمْ وَفَرُّوا هارِبينَ إلى سَفْحِ ٱلجَبَلِ .

كانَتِ الشَّمْسُ وَقْتَئِذٍ قَدْ أَخَذَتْ تَتَدَلَّى نَحْوَ أَسْفَلِ ٱلجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ مُنْتَصَفَ ٱلـمَسافةِ ، وَأَدْرَكوا أَنَّهُ بَعْدَ دَقائِقَ تَعودُ إلى دراكولا قُوَّتُهُ ويَفيقُ . فَكانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُسارِعوا قَبْلَ فَواتِ ٱلأَوانِ . وَلٰكِنَّهُمْ كانوا قَدْ فاتَهُمْ أَنْ يُحْضِروا آلَةً يَفْتَحونَ بِها الصُّنْدوقَ ، فَٱلتَقَطوا بَعْضَ ٱلأَحْجارِ وَتَسَلَّقوا ٱلعَرَبةَ وَأَخَذوا يَطْرُقونَ أَعْلَى الصُّنْدوقِ بِشِدَّةٍ كَأَنَّهُمْ مَجانينُ . وَكانَتِ الشَّمْسُ قَدْ بَلَغَتْ في تَدَلِّيها ثَلاثةَ أَرْباعِ ٱلـمَسافةِ نَحْوَ أَسْفَلِ ٱلجَبَلِ . وَكانوا يَكادونَ يُحِسُّونَ جَسدَ دراكولا يَتَحَرَّكُ داخِلَ الصُّنْدوقِ ، وَأَخيرًا وَمَعَ الضَّرَباتِ ٱلـمُتَتالِيةِ بِٱلأَحْجارِ ، تَحَطَّمَ خَشَبُ الصُّنْدوقِ ، وَبَدَأَ يَظْهَرُ وَجْهُ دراكولا ، ثُمَّ ٱنْفَتَحَ فَمُهُ ، وَخَرَجَ مِنْهُ صَوْتٌ خَفيضٌ . إنَّ قُوَّةَ الشَّرِّ قَدِ ٱسْتَيْقَظَتْ . تُرَى هَلْ فاتَ ٱلأَوانُ ؟

كانَتِ الشَّمْسُ قَدِ احْتَجَبَتْ أَسْفَلَ ٱلجَبَلِ حينَما وَضَعَ ٱلبُروفيسور قِطْعَةَ ٱلخَشَبِ ــ الَّتي كانَ قَدْ قَطَعَها مِن شَجَرةٍ ــ فَوْقَ قَلْبِ مَصَّاصِ الدِّماءِ . ثُمَّ رَفَعَ كُتْلَةً مِنَ ٱلخَشَبِ وَطَرَقَها بِها بِشِدَّةٍ .

كانَتْ لَحْظةً رَهيبةً . وَهَيْهاتَ أَنْ يَنْسَوا ، مَهْما ٱمْتَدَّ بِهِمُ ٱلعُمْرُ ــ آخِرَ صَيْحةٍ أَطْلَقَها دراكولا عِنْدَما ٱنْفَتَحَتْ عَيْناهُ وَٱنْغَرَزَ الطَّرَفُ ٱلـمُدَبَّبُ في قَلْبِهِ . وَكانَتِ الصَّيْحةُ هي الَّتي جَعَلَتْ مينا تُهَرْوِلُ نَحْوَهُمْ مِنْ مِنْطَقةِ ٱلأَشْجارِ حَيْثُ كانَتْ مُخْتَفِيةً ، وَٱلْتَفَّ الخَمْسةُ جَميعًا حَوْلَ جُثَّةِ عَدُوِّهِمْ .

وَأَخيرًا هَمَدَتِ ٱلجُثَّةُ ، وَتَوَقَّفَتْ حَرَكاتُ الذِّراعَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ الضَّارِيةُ ، وَنَظَروا فَإِذا وَجْهُهُ الَّذي لايَزالُ مَمْلُوءًا بِٱلحِقْدِ يَتَحَوَّلُ مِنْ أَبْيَضَ إلى أَصْفَرَ ثُمَّ إلى رَمادِيٍّ . وَبَدَأَ ٱلجَسَدُ كُلُّهُ يَجِفُّ وَيَضْمُرُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَما هيَ إلَّا خَمْسُ دَقائِقَ حَتَّى بَدا أَشْبَهَ بِٱلخُضَرِ الذَّابِلةِ ، ثُمَّ ضَمَرَ وَذَوى نِهائِيًّا .

كانوا يُراقِبونَ وَلا يَسْتَطيعونَ أَنْ يُحَوِّلوا أَبْصارَهُمْ عَمَّا يَحْدُثُ . وَلَمْ تَكُنْ قَدْ مَضَتْ نَحْو عَشْرِ دَقائِق مُنْذُ آنْغَرَزَ الطَّرفُ آلـمُدَبَّبُ في قَلْبِ دراكولا ــ حَتَّى كانَ آلجَسَدُ كُلُّهُ قَدْ تَحَلَّل . وَذَهَبَتْ إلى غَيْرِ رَجْعةٍ قُوى الشَّرِّ الَّتي كانَتْ تَعيشُ فيه .

وَآلْتَفَتَ الرِّجالُ إلى مِينا ، وَمَعَ أَنَّ ضَوْءَ النَّهارِ كانَ قَدْ ذَهَبَ ، فَقَدِ آسْتَطاعوا أَنْ يَلْحَظوا التَّغَيُّرَ الَّذي طَرَأَ عَلَيْها . فَآلأَسْنانُ الطَّويلةُ ، وَاللَّوْنُ غَيْرُ العادِي لِلْبَشَرَةِ ، وَالنَّظْرَةُ آلغَريبةُ في عَيْنَيْها .. كُلُّ ذٰلِكَ قَدِ آخْتَفَى .

لَقَدْ عادَتْ ثانِيةً لِتَكونَ مِينا ... مِينا الَّتي كانَتْ مِنْ قَبْلُ .. مِينا الَّتي أَحَبَّها جوناثان . لَقَدْ نَجَتْ .

الروايات المشهورة

١ ـ جين إير
٢ ـ فرانكنشتاين
٣ ـ مونفليت
٤ ـ دراكولا
٥ ـ اورنا دون
٦ ـ دكتور جيكل ومستر هايد



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 104